

مجلة المجمع العلمي

الجزء الاول ـ المجلد الخامس والاربعون

بغــــداد ٨٧

١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

شروط وضوابط النشر

١ ـ تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢ ـ لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعى الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣ ـ يشترط في البحث ان لايكون قد نشر او قدم للنشر في مجلة اخرى .

٤ ـ تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيان مدى اصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥ ـ هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث الى اصحابها في حالة عدم قبولها للنشر .

٦ ـ يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات التالية : ـ

أ ـ ان يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة او مكتوباً باليد بخط واضح وجيد وعلى وجه واحد من الورقة .

ب ـ ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

جـ ـ يجب ان لاتزيد عدد الصفحات عن (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لايتجاوز (٧٥٠٠) سبعة الاف وخمسمائة كلمة .

د ـ ان يكون مستوفيا المصادر والمراجع ، موثقة توثيقاً تاماً حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

هـ ـ يرفق بالبحث ما يلزمه من اشكال او صور او رسوم او خرائط او بيانات توضيحية اخرى ، على ان يوضح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار الى المصدر اذا كانت مقتبسة .

و ـ ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربياً .

٧ ـ يعطي صاحب البحث ـ عند نشره ـ ثلاث نسخ من المجلة مع عشر مستلات من بحثه .

٨ ـ المواد المنشورة تعبر عن راي كاتبها .

مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م

هيئة التحرير

ـ توجه البحوث والمراسلات الى : رئيس تحرير مجلة المجمع العلمي المجمع العلمي ـ ص . ب . (٤٠٢٣) بغداد ـ جمهورية العراق هاتف : « ٤٢٢١٧٢٣ ـ ٤٢٢٢٠٦٦ » فاكس : (٩٦٤ ـ ١) ٤٢٥٤٥٢٣

ـ الاشتراكات : داخل العراق (٤٠٠٠) دينار سنويا .

خارج العراق (٥٠) دولار امريكي سنويا وتضاف اجرة البريد .

الفهرس

تثبيت التربة لانشاء الطرق قليلة التكاليف في الوطـن العـربي ـ الإمكانيات والإشكاليات ـ (*)

الدكتور ناجح الراوي
استاذ متمرس ـ جامعة بغـداد
رئيس المجمع العلمي

١ ـ المقـدمة :ـ

تعد شبكات المواصلات المكونة من الطرق والسكك والمطارات والموانىء من عوامل البنى التحتية الاساسية لاي بلد في العالم ، لانها تسهل انتقال الافراد والبضائع من منطقة الى أخرى ، وتسهم في التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي • وقد زادت أهمية شبكات الطرق نتيجة لتقدم تكنولوجيا صناعة السيارات في القرن العشرين ، واصبحت هذه الشبكات ونوعيتها من مقاييس تقدم الامم والشعوب •

ان ربط الاقطار العربية بشبكة من الطرق المعبدة وازالة عقبات الحدود ومشكلاتها أو تخفيفها سيساعد على انتقال الاشخاص وتبادل البضائع ، ويسرع التقارب المطلوب لتحقيق الوحدة العربية • التي هي أمل هذه الامة التي تتطلع لتأخذ مكانتها بين الامم في عالم التكتلات السياسية والاقتصادية •

١ـ١ تصنيف الطرق :ـ

يختلف تصنيف الطرق وتسميتها في العالم من بلد الى آخر ، ويمكن تصنيف الطرق في الوطن العربي كما يأتي :

(*) بحث مقدم الى نـدوة « دور البحث العلمي في مشاريع الطرق قليلة التكاليف » التي كان مزمع اقامتها في عمان ٢١ ــ ٢٣ آذار ١٩٩٨ من من قبل اتحاد مجالس البحث العلمي العربية بالتعاون مع المجلس الاعلى للعلوم والتكنولوجيا ووزارتي الاشغال والاسكان والمواصلات الاردنية .

١-١-١ طرق المرور السريع :-

وهي الطرق الستراتيجية المشيدة بأعلى المواصفات من حيث جودة المواد المستخدمة والمواصفات الهندسية للاستقامة وعرض ممرات الطريق ، وانعزال الطريق عن أي تقاطعات في مستوى واحد او تداخلات جانبية غير منظمة هندسيا • ويتكون الطريق من عدة ممرات في كل اتجاه ، ويتحمل مرور كثيف من السيارات والمركبات ويسمح لها بالمرور السريع وتشمل هذه بعض الطرق التي تربط الاقطار العربية ببعضها - ومستقبلا مع بلدان العالم - وتربط المدن الرئيسة ببعضها في القطر الواحد • وما زالت هذه الطرق قليلة في الوطن العربي لكلفتها العالية ولعدم وجود الكثافة المرورية التي تبرر انشاءها من الناحية الاقتصادية •

١-١-٢ الطرق الرئيسة :-

وهي الطرق التي تربط الأقاليم والمدن الكبيرة ببعضها وبالاقطار المجاورة ، وغالبا ما تتكون من اكثر من ممر واحد بكل اتجاه ويكون الاتجاهان معزولين بجزرة وسطية • والمواد المستخدمة في انشائها تكون جيدة ويسمح التصميم الهندسي للطريق (Geometric Design) بانسياب السيارات بسرعة مناسبة •

١-١-٣ الطرق الثانوية :-

وهي الطرق التي تربط مراكز المحافظات بالاقضية والنواحي والمدن الصغيرة والمراكز الاقتصادية كالمعامل والمخازن الرئيسة ، وغالبا ما تكون هذه الطرق بعرض ٧٫٣٠ م باتجاهين غير منفصلين عن بعضها ، وبمواصفات أقل من مواصفات الطرق الرئيسة •

١-١-٤ الطرق الفرعية والريفية :-

وهي طرق رخيصة التكاليف قليلة الكثافة المرورية ، وتربط المدن الصغيرة بالقرى والارياف ، ولها مردودات اقتصادية واجتماعية كبيرة ولا تخضع لمواصفات فنية دقيقة ويستفاد من المواد المتوفرة محليا لإنشائها وغالبا ما يستفاد من تكنولوجيا تثبيت التربة المحلية لانشاء هذه الطرق •

١-٢- أنواع تعبيد الطرق :-

تقسم الطرق والمطارات من حيث تصميم التبليط (Pravement Design) الى نوعين :

١-٢-١- التبليط المرن :- (Flexible Pavement)

ويتكون من طبقات السطح والاساس (base) وتحت الاساس (sub - base) ثم التربة المحلية المرصوصة (compacted) فوق التربة المحلية الطبيعية • وتتدرج صلابة الطبقات والمواد المستخدمة فيها وقوتها من الاعلى الى الاسفل فيتوزع الاجهاد (stress) الناتج عن اثقال السيارات والطائرات بشكل تدريجي حتى يصل الى اجهاد قليل تتحمله التربة الطبيعية الضعيفة نسبيا •

ان أغلب الطرق الخارجية في الوطن العربي هي من هذا النوع لاسباب اقتصادية وتقنية •

١-٢-٢- التبليط الجاسيء :- (Rigid Pavement)

يمكن تعريف تثبيت التربة بأنها عملية تبديل أي خاصية من خواص التربة بما تتحمل الاجهاد الناتج عن اثقال السيارات والمركبات والطائرات ، ويفضل استخدام طبقة الأساس تحت الخرسانة •

٢ - تثبيت التربة :-

يمكن تعريف تثبيت التربة بأنها عملية تبديل أي خاصية من خواص التربة بما يؤدي الى تحسين ادائها الهندسي • كالقوة أو النفاذية أو تقليص الهبوط

(compressibility or settlement) [1] ويمكن إجراء تثبيـت التربة بأحدى الطرق الآتية :

- الطريقة الميكانيكية ـ وتشمل رص التربة (compaction) او اضافة تربة من نوع آخر •

الطريقة الكيميائية ـ وذلك باضافة مواد تحدث تفاعلا كيميائيا كمادة الاسمنت او النـورة او الاملاح ، وقد تضاف مواد كيميائية مساعدة •

- الطريقة الكهربائية ـ وتستخدم لبـزل التربة الطينية الثقيلة بهدف تسريع الهبوط والاستقرار •

الطريقة الحرارية ـ كتجميد الرمال المتحركة (Quick Sand) او الميـاه في أثناء شق الانفاق او تجميد التربة التي تتعرض للذوبان لمدة قصيرة من السنة للمحافظة على صلابتها بحالة الانجماد •

ويشبه وليم لامب (William Lambe) [2] تثبيت التربة بأنها « يمكن ان تقدم أدوية مختلفة لعدة امراض (مشاكل) ولكن اختيار الدواء اذا كان لازما يعتمد على ما يمكن ان يؤديه الدواء في حـالات محدودة وعلى كلفته مـع الطرق الاخرى لحل المشكلة » •

٢ـ١ استخدامات تثبيت التربة :ـ

تستـخدم تكنولوجيا تثبيت التربة لتحسين خواصها ولانشـاء مواد جديدة ، وأهم استخداماتها في المجالات هي :

- انشاء مطارات صغيرة ـ كمطار عكاشات في العراق ومطار شركة صناعة السكر في السودان •
- انشاء طرق ريفية وفرعية وهو الاستخدام الاكثر شيوعا •
- تحسين خواص المواد المستخدمة في طبقات التبليط للطرق والمطارات •

- تصنيع اجر (طابوق) قليل التكاليف في المناطق الريفية .
- تعبيد ساحات لخزن المواد ومواقف للسيارات .
- تبطين قنوات الري .
- تثبيت أكتاف السدود الترابية .

٢-٢ تثبيت التربة لانشاء الطرق الريفية والفرعية :-

ان التوسع في انشاء الطرق الريفية والفرعية في الوطن العربي وربطها بشبكات الطرق الوطنية يخدم التطور الاجتماعي لسكان الارياف ويساعد على نمو الاقتصاد الوطني بشكل مباشر ، ويشغل الايدي العاملة ، وهو لا يحتاج الا الى قليل من الاموال بالعملة الصعبة المتمثلة ببعض معدات التبليط البسيطة نسبيا .

ان أصناف تثبيت التربة التي يمكن استخدامها في الاقطار العربية تقع ضمن ما يأتي :

- التربة المثبتة بالاسمنت (soil-cement)
- التربة المثبتة بالنورة (soil-lime)
- التربة المثبتة بالقار (soil-bitumen)
- التثبيت الميكانيكي (mechanical stabilization)

وفي أغلب الاحيان فان اضافة مواد كيميائية بنسب قليلة الى خليط التربة والاسمنت او النورة او القار يساعد على التثبيت ويقلل كمية المادة المطلوبة للتثبيت ، الا ان استخدام المواد الكيميائية المضافة يعتمد على نوعية التربة المراد تثبيتها وعلى تحليل للجدوى الاقتصادية لهذه الاضافة .

ان رص (حدل) خليط التربة والمادة المثبتة بشكل جيد ، وانتظار مدة الانضاج المطاوبة (curing period) عملية ضرورية للحصول على نتيجة كفوءة من التثبيت .

٢ ـ ٣ تصميم تثبيت التربة : ـ

ان تصميم تثبيت التربة ينطوي على اتخاذ الخطوات الآتية :

٢ـ٣ـ١ اختيار المادة المستخدمة في التثبيت ونسبتها الى التربة :ـ

ويعتمد ذلك على نوعية التربة المراد تثبيتها ومدى تفاعلها مع مواد التثبيت كالاسمنت او النورة او القار لكي تعطي التربة المثبتة مقاومة الانضغاط المطلوبة (compressive strength) في مدة انضاج محددة • وبموجب المواصفات القياسية لغرض التثبيت •• ويتطلب ذلك اجراء بعض الفحوصات الاولية لمعرفة خواص التربة

ان اختيار المادة المثبتة يعتمد بالضرورة على البدائل المتوفرة اقتصاديا في المنطقة •

٢ـ٣ـ٢ كمية الماء المطلوب اضافته الى الخليط :ـ

ان نسبة الماء المطلوب أضافته الى الخليط هي النسبة التي تؤدي الى كفاءة الرص (compaction) وتنتج اعلى كثافة للخليط بجهود الرص المبذولة (compactive effort) • ان محتوى الماء الامثل (optimum water content) لرص مزيج التربة المثبتة بالاسمنت او النورة مقارب لمحتوى الماء الامثل لرص التربة بدون اضافة مثبت ، وغالبا ما تكون أعلى بنسبة ٢ـ٤٪ بالنسبة للترب الطينية (clayey soils) •

٢ـ٣ـ٣ سمك الطبقة المثبتة :ـ

ان سمك الطبقة المثبتة يعتمد على قوة الخليط المثبت ، وعلى الاجهاد المتوقع على تلك الطبقة نتيجة لكثافة المرور وثقل المركبات المتوقع استخدامها للطريق • ويمكن استعمال طرق تصميم التبليط المعروفة (Pavement Design) لمعرفة السمك المطلوب •

٢ــ٤ انشاء الطرق المثبتة :ــ

تقع عملية انشاء الطرق المثبتة بخطوتين أساسيتين :

٢ــ٤ التهيئة الاولية :ــ

وتشــــــمل :

- تهيئة الطريق بالمستوى المطلوب .
- حرث التربة الطبيعية وتنعيمها لكي تتقبل المادة المثبتة بكفاءة . ويمكن استخدام المحراث والجرارات الموجودة في الارياف لهذا الغرض .

٢ــ٤ــ٢ عملية التثبيت :ــ

وتشــــــمل :

- توزيع المادة المثبتة (الاسمنت او النورة او القار) ونثرهـا بالنسبة المطلوب اضافتها .
- مزج التربة مع المادة المثبتة واضافة كمية المـاء المطلوبة الى المحتـوى الامثل . وتوجد اجهزة ومحطات متخصصة للمـزج ثابتة او متنقلة تؤدي المزج بكفاءة أعلى .
- اجراء عملية الرص للخليط بواسطة الحادلات المتوفرة محليا .
- اجراء عملية التسوية النهائية للطريق .
- ترك المزيج للمدة المحددة للانضاج ليستمد قوته وخواصه المطلوبة . ان كمية الماء المستخدم لرص التربة تكفي لعملة الاماهة (hydration) بالنسبة للاسمنت او النورة ولعملية الانضاج في حالة المحافظة على الماء من التبخر .

٣ ـ امكانيات تثبيت التربة في الوطن العربي وبعض اشكالياتها :ـ

٣ـ١ المواد المثبتة وتواجدها في الوطن العربي(٣) :

٣ـ١ـ١ التثبيت الميكانيكي :

تتوفر في مختلف الاقطار العربية انواع مختلفة من التربة : الركام (aggregate) والحصى (gravei) والرمال فضلا عن التربة الطينية ، ولهذا فان اختيار التثبيت الميكانيكي يعتمد على كلفة نقل انواع التربة وما تؤديه عملية التثبيت مقارنة مع الحلول الاخرى الممكنة .

٣ـ١ـ٢ القار : (bitumen)

توجد مواد القار في مناطق مختلفة من الوطن العربي وقد استخدم القار الطبيعي (natural asphait) اول مرة في التاريخ في أكد فيوادي الرافدين نحو سنة ٣٨٠٠ قبل الميلاد[٤،٥] . واستخدم القار في تعبيد الطرق والبناء بالآجر (الطابوق) مادة رابطة في بابل كما استخدم في مشاريع الري والسدود ومع اكتشاف النفط واستخراجه وتكريره كاد استخدام القار الطبيعي يتلاشى ، لان الاسفلت (asphalt) ناتج عرضي من تصفية النفط .

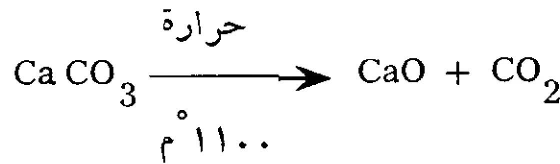
يستخدم الاسفلت في تبليط الطرق والمطارات ولا سيما المرنة منها ، وتستخدم الانواع السائلة منه (RC,MC,SC-cut-backs) والمستحلبة (RS, MS, SS-emulsions) في تثبيت التربة .

ان استخدام الاسفلت في تثبيت التربة يمكن ان يكون له احد وظيفتين: اكساب التربة قوة وصلابة باضافة التماسك (C-cohesion) الى التربة الخشنة (granular soils) او اعطاء التربة المناعة ضد الرطوبة وامتصاص الماء (water proffig) كما هو الحال بالنسبة للتربة الناعمة (fine-grained soils) ولوجود النفط بغزارة في كل من اقطار الخليج العربي (العراق ، والكويت ، وقطر ، والامارات ، والسعودية) وليبيا ، والجزائر ، ووجوده في سوريا

ومصر واكتشافه في اليمن والسودان ، لذلك فان انشاء الطرق والاهتمام بالطرق الريفية والفرعية واستخدام تثبيت التربة بالاسفلت تبدو مشجعة بالنسبة للمناطق الريفية والصحراوية .

٣-١-٣ النورة : (Lime)

النورة « الجير الحي —CaO— او الجير المطفىء $Ca(OH)_2$ معروفة في الوطن العربي منذ مدة طويلة وتصنع من حرق حجر الكلس $(CaCO_3)$ لتنتج الجير الحي :



$$CaCO_3 \xrightarrow[\text{١١٠٠°م}]{\text{حرارة}} CaO + CO_2$$

او الجير المطفىء :



$$CaO + H_2O \longrightarrow Ca(OH)_2$$

ان ترسبات حجر الكلس متوفرة بكثرة في الوطن العربي في شمال العراق — محافظات نينوى ، واربيل ودهوك والسليمانية ، والتأميم وديالى — وعلى امتداد الضفة الغربية من نهر الفرات في سوريا حتى قرب البصرة(٦) وفي مناطق مختلفة في سوريا ولبنان والاردن وشبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا .

٣-١-٤ الاسمنت :-

ان المواد الاولية اللازمة لصناعة الاسمنت هي حجر الكلس (التي تعطي CaO) والتربة الطينية (التي توفر السيليكا silica — SiO_2 — والالومينا alumina Al_2O_3 مع اضافة اكاسيد اخرى بنسب قليلة $(MgO, Na_2O, K_2O, Fe_2O_3)$ إن حرق المواد المذكورة بدرجة حرارة تتراوح بين ١٣٠٠ — ١٥٠٠ ° م يؤدي الى إنتاج مادة الأسمنت الأساسية

« كلنكر » clinker التي عند طحنهـا وتنعيمها الى درجة نعومة معينة (أنعم من منخل رقم ٢٠٠) وإضافة كمية قليلة من الجبس gypsum يتكـون الأسمنـت •

لقد انتشرت صناعة الاسمنت في الاقطار العربية لتوفر المواد الاولية للصناعة وللحاجة في الانشـاءات المختلفـة ، وأصبحت بعض القطار العربية مصدرة للأسمنت •

٣ــ٢ بعض اشكاليات تثبيت التربة :

٣ــ٢ــ١ اشكاليات التثبيت بالقار :

القار المصنع نوعان : الاسفلت asphalt والقطران tar والاسفلت المصنع بثلاثة انواع : الاسفلت السمنتي (asphalt-cement) والاسفلت السائل (cut-backs) والاسفلت المستحلب emulsions .. والانواع الثلاثـة متوفرة او يمكن تصنيعها في الاقطار العربية التي تتوفر فيها مصافي النفط •

ويمكن ان يستخدم القار لتثبيت التربة الخشنـة بكفـاءة باضافـة التماسك[٦] ويصلح لتثبيت التربة الرملية في المناطق الصحراوية ولكن هذه المناطق لا تحتاج الى الطرق الريفية بسبب طبيعة المنطقة وتمركز السكان في المدن وعدم وجود مناطق ريفية كما هو الحال في أقطار الخليج العربي وجنوب ليبيا والجزائر •

اما استخدام القار لمنع الرطوبة (waterproofing) وبالتالي المحافظة على قوة التربة الطينية الناعمة كالتربة الموجودة في جنوب العراق ومناطق السهول والاهوار فان صعوبة خلط التربة مع القار يشكل مشكلة حقيقية تقف امام استخدام القار لتثبيت هذه التربة • ومع ذلك فان امكانيات استخدام مشتقات النفط لتثبيت التربة ولانشاء الطرق الريفية والفرعية في الوطن العربي تبدو مشجعة لا سيما في حالـة استعمال مضافات كالكبريت او P_2O_5 الى الاسفلت[٧] •

لقد استخدمت شركات النفط العاملة في الوطن العربي منذ الاربعينيات من هذا القرن المشتقات النفطية ولاسيما road oil (SC) بمعدل ٤ لتر/م^{2} حيث يرش النفط بمرحلتين الى التربة ويتغلغل بعمق حوالي ٢و٥ سم وبما يؤدي الى تثبيت التربة وتجنب تطاير الغبار[٨] . الا ان الملاحظ أن هذه الطرق تكون زلقة في اثناء تساقط الامطار على محدودية مدتها في الوطن العربي •

٣ـ٢ـ٢ اشكاليات التثبيت بالنورة :ـ

ان التربة الرملية التي تحتاج الى نسبة قليلة من النورة (حوالي ٤٪ من وزن التربة) لا تستجيب للتثبيت بالنورة بدرجات الحرارة العادية وتتطلب اضافة مواد بوزلونية غير متوفرة •

اما التربة الطينية الناعمة فأنها تتحسن باضافة النورة بنسب تتراوح بين ٥ـ٧٪ من وزن التربة حيث ان هناك نسبة مثلى من النورة وان الزيادة في النورة اكثر من هذه النسبة لا تؤدي الى فائدة وربما تؤدي الى نقص في قوة مقاومة الانضغاط وان هذه النسبة من النورة لا تؤدي بقوة مقاومة انضغاط الخليط الى قوة معقولة لتحمل اثقال السيارات والمركبات مما يتطلب ان يكون سمك التبليط غير اقتصادي • ان خليط النورة مع التربة الطينية الناعمة يستجيب الى اضافة مواد كيميائية قلوية كهيدروكسيد الصوديوم او كاربونات الصوديوم المستوردة من الخارج بعملات صعبة ، مما يجعل اضافة النورة محددا بتحسين نوعية التربة اللزجة plastic soils لزيادة حد اللزوجة Plastic Limit وبالتالي تقليل معامل اللزوجة (Plasticity Index) وجعل التربة اسهل للتعامل في أثناء الرص ، وكذلك تستخدم النورة لتقليل كمية الاسمنت المستخدم في تثبيت التربة اذا كانت النورة أقل كلفة من الاسمنت •

٣ـ٢ـ٣ اشكاليات التثبيت بالاسمنت :

تحدد المواصفات الامريكية قوة خليط التربة المثبتة بالاسمنت وبمدة انضاج لسبعة ايام بحوالي ٢٠٠٠ كيلو نيوتن/م٢ KN/m^2 او حوالي (٣٠٠ باوند/انج٢) بواسطة فحص الانضغاط غير المحصور (Unconfined Compressive Strength) واذا كانت التربة الخشنة تحتاج الى ٣ـ٥٪ من الأسمنت لتستجيب لهذه المواصفة فأن بعض الترب الطينية الناعمة في العراق والأردن ـ على سبيل المثال ـ تحتاج ١٢ـ١٨٪ من الأسمنت من وزن التربة وهي نسب عالية يمكن تقليصها بنحو ٤٪ باضافة المواد الكيمائية القلوية بعيارية ٥ و ٠ ـ ١و٥ (normality) ، كما يمكن الاستعاضة عما يقارب ٤٪ من الاسمنت بالنورة اذا كان ذلك اقتصاديا •

ان اضافة النورة او الاسمنت الى حد ٤ـ٥٪ يؤدي الى قوة انضغاط متقاربة ولكن الفرق ان الزيادة في الاسمنت المضاف يؤدي الى الزيادة في قوة الانضغاط بعلاقة خطية(linear relationship)في حين ان الزيادة في النورة بعد النسبة المثلى ((Optimum Line Content)) غير مفيد •

وتضيف شحة المياه اللازمة لرص مزيج التربة المثبتة بالاسمنت اوالنورة اشكالا اضافيا في المناطق الصحراوية في الوطن العربي •

٣ـ٢ـ٤ التثبيت الميكانيكي :

ان تثبيت التربة باضافة تربة من نوع آخر واجراء عملية الرص اسهل واقل انواع التثبيت كلفة في حالة توفر التربة المضافة في موقع قريب من الطريق تحت الانشاء فالتربة الطينية يمكن ان تحسن باضافة تربة خشنة اليها وبالعكس ، الا ان اشكالات هذا التثبيت غالبا ما يؤدي الى طريق خشن الملمس ، ويحتاج الى ان يرش بالاسفلت لزيادة التماسك واعطاء السطح المطلوب •

٤ ـ من بعض نتائج التجارب المختبرية لتثبيت التربة العراقية والاردنية

ان تثبيت الركام والتربة الخشنة بالاسمنت او الاسفلت لا يشكل مشكلة تذكر ، وان كمية الاسمنت المطلوبة تتراوح بين ٣ـ٥٪ من وزن التربة ، اما كمية الاسفلت المطلوب اضافتها فتعتمد على تدرج التربة ونوعية الاسفلت المستخدم وصنفه .

ان مشكلة تثبيت التربة تكمن في الترب الطينية التي غالبا ما تكون هي التربة التي يتم التعامل معها في المناطق الريفية .

ان التجارب المختبرية على انواع الترب المأخوذة من عمق قريب من السطح من كل من الموصل وتكريت والرطبة وبغداد وكربلاء والديوانية والبصرة في العراق ، ومن اربد وزيزيه وناعور في الاردن تشير الى النتائج الاتيــة :

٤ـ١ ان ترب الموصل وبغداد والديوانية والبصرة واربد وزيزية هي ترب طينية مزيجية (silty clay) متشابهة كما يبين الجدول رقم ١ والشكل رقم ١ ، وتستجيب للتثبيت بالنورة والاسمنت .

اما تربة ناعور الخضراء التي تحتوي على عنصر ال (Marl) ونسبة عالية من املاح الكبريتات ($SO_3 = 2\%$) فانها لا تستجيب للتثبيت[٩] .

٤ـ٢ هناك حد اعلى لنسبة النورة التي يمكن الاستفادة منها في التثبيت (Optimum Lime Content) كما يوضح الشكلان ٢ـأ ، ٣ـب .

وان النسبة المثلى تتراوح بين ٣ـ٧٪ من وزن التربة ويمكن معرفة النسبة المثلى للنورة المستخدمة بقياس الاس الهيدروجيني (PH) لمزيج النورة والتربة ، فنسبة النورة التي تؤدي الى أعلى أس هايدروجيني هي النسبة المثلى[١٠] . ويمكن زيادة قوة المزيج اكثر من الحد الاعلى باضافة

مواد كيميائية قلوية تؤدي الى زيادة الاس الهايدروجيني واذابة مزيد من الاليومينا والسيليكا من التربة وتكوين مادة التفاعل (gell) التي تؤدي الى قوة المزيج الجديد ، ومن هذه المواد فان هيدروكسيد الصوديوم وكاربونات الصوديوم بعيارية تتراوح بين ٥و٠ ــ ١و٥ N هي الاكثر كفاءة[١١] كما يبين الشكل رقم (٤) •

٤ــ٣ ان اضافة النسبة المثلى للنورة لا تؤدي الى القوة المطلوبة لتتحمل الاجهاد • ولهذا يستخدم الاسمنت الذي يؤدي الى زيادة القوة مع زيادة نسبة الاسمنت كما تبين الاشكال (٢ــب ، ٣ــأ ، ٥) وان استخدام النورة يسهل عملية رص التربة الطينية وتقليل كمية الاسمنت المطلوب بنسبة ٢٪ لتربة زيزية و ٤ــ٥٪ بالنسبة لتربة اربد والترب العراقية الاخرى[٩،١٢،١٣] كما يبين الشكل رقم (٦) •

٤ــ٤ يبين الشكل رقم (٢ــب ، ج ، د) والشكل رقم (٣ــأ) علاقة خطية بين نسبة الاسمنت المضاف الى التربة وقوة المزيج المقاسة بقوة فحص الانضغاط غير المحصور (Unconfined Compressive Strength) او معامل تحمل كاليفورنيا (C.B.R) [٩،١٢] •

٤ــ٥ ان نسبة الاسمنت المطلوبة للوصول الى قوة الانضغاط غير المحصور ٢٠٠٠ كيلو نيوتن/م٢ KN/m^2 خلال سبعة ايام من الانضاج هي نحو ١٢٪ لتربة الموصل وبغداد واربد وتزداد الى ١٨٪ لتربة البصرة وناعور[٩،١٢،١٣] اما تربة زيزية فيمكن ان تثبت ب ٩٪ من وزن التربة • ويمكن تقليل هذه النسب باضافة النورة او المواد الكيميائية القلوية اذا كان ذلك اقتصاديا •

٤ــ٦ ان التجارب على ترب الرطبة وتكريت وكربلاء تشير الى ان هذه الترب تستجيب للتثبيت بالاسمنت ويمكن تثبيتها بالاسفلت كونها ترب

طينية ــ رملية[٧] ويشير الشكل رقم (٧) بان اضافة الكبريت الى الاسفلت يزيد القوة ويمكن ان يقلل كمية الاسفلت المطلوب للتثبيت • وان الترب الرملية لا تستجيب للتثبيت بالنورة بدرجات الحرارة الاعتيادية ما لم تضف ترب بوزلونية مساعدة •

٤ــ٧ ان ارتفاع درجات الحرارة يساعد على تثبيت التربة بالاسمنت والنورة ، وان درجات الحرارة في الوطن العربي عموما تؤدي الى الاستفادة من هذه الظاهرة •

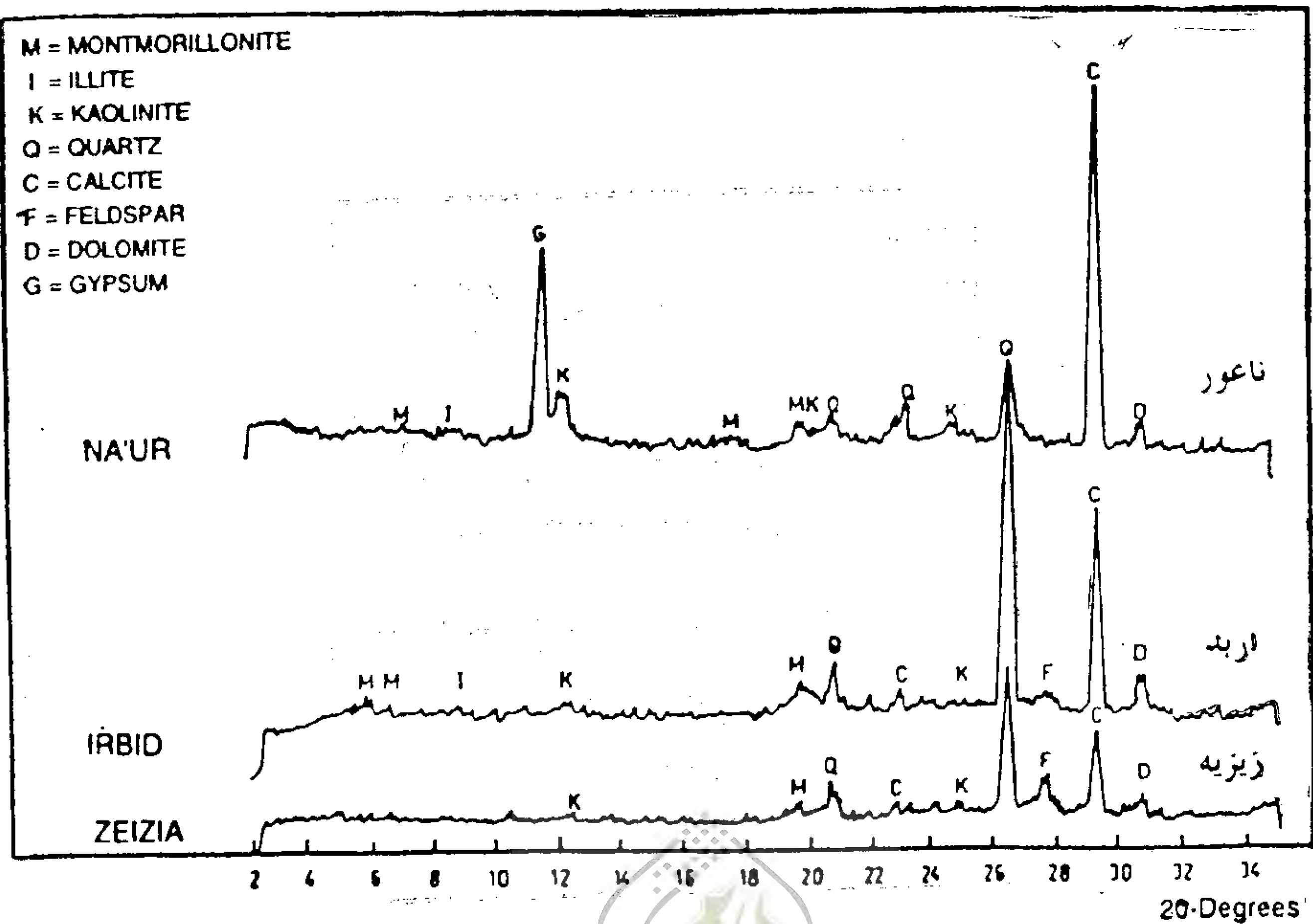
٥ ــ الخلاصة :ــ

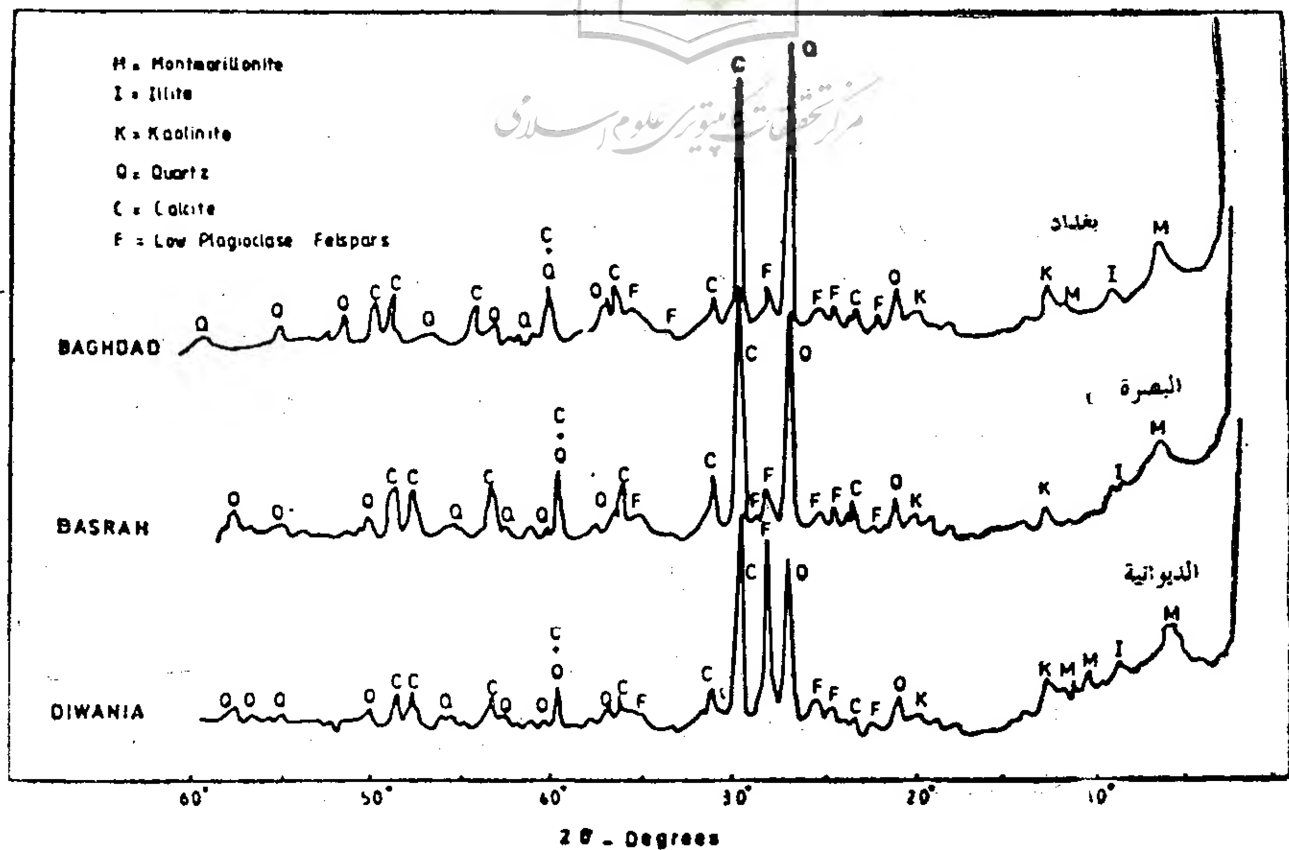
ان تثبيت التربة يمكن ان يكون وسيلة فاعلة لتعبيد الطرق قليلة التكاليف في الوطن العربي كالطرق الريفية لدعم الاقتصاد الوطني • ان ما يشجع على استخدام تكنولوجيا تثبيت التربة كون الوطن العربي يحتوي على اكبر خزين من النفط الخام في العالم وان الاسفلت الناتج العرضي من تصفية النفط يمكن ان يستخدم بكفاءة في تثبيت التربة الخشنة (الركام والتربة الرملية) • كما ان المواد الاولية لصناعة الاسمنت والنورة متوفرة في اغلب اقطار الوطن العربي مما يوفر امكانيات لتثبيت التربة الطينية المزيجية ، وان درجات الحرارة في الوطن العربي في اغلب اشهر السنة مناسبة جدا لتثبيت التربة بالاسمنت او النورة • ولا تزال هناك مجالات واسعة امام البحث العلمي للتعرف على مضافات اقتصادية متوفرة محليا لتقليل نسبة الاسمنت المطلوبة لتثبيت التربة الطينية الناعمة في الوطن العربي • ان القرار حول استخدام تثبيت التربة ونوع المثبت هو موازنة بين الهندسة والتكنولوجيا من ناحية ودراسة الجدوى الاقتصادية من ناحية اخرى •

الجدول رقم – ١ –

الخواص الفيزيائية للتربة

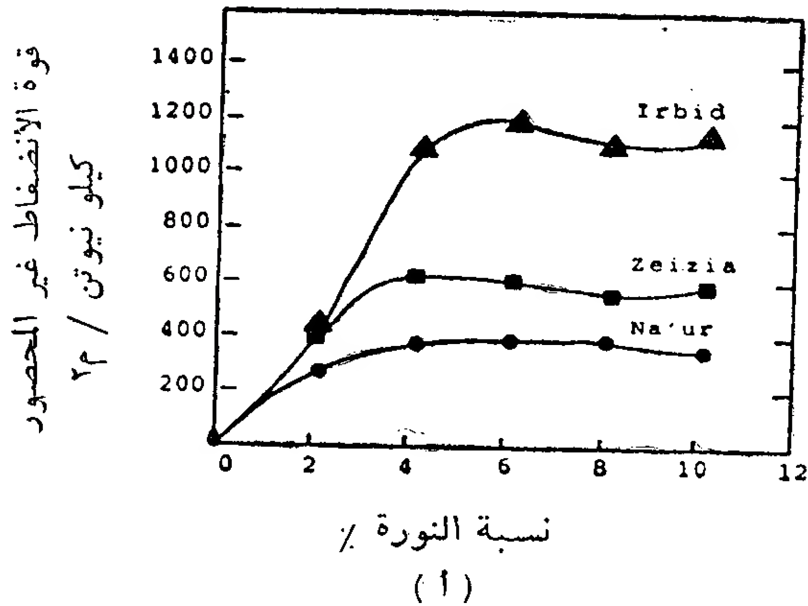
Soil Location	Irbid	Na'ur	Zeizie	Mosul	BAGHDAD	DIWANYIA	BASRAH
Specific Gravity (AASHTO T 100-86)(48)	2.70	2.75	2.75	2.71	2.70	2.70	2.70
Atterberg Limits: -Liquid limit(%) (AASHTO T 89-86)(48)	52	51	34	54	50	46	52
-Plastic limit (%) (AASHTO T 90-86)(48)	29	24	22	24	25	23	24
-Plasticity index (%) (AASHTO T 90-86)(48)	23	27	12	30	25	23	28
Grain Size Distribution (ASTM D422-63(49).. -Sand (>0.074 mm)(%)	11	3	4	10	5	7	2
-Silit (<0.074 and >0.005 mm)(%)	34	28	51	32	40	41	36
-Clay (<0.005mm)(%)	55	69	45	58	55	52	62
Standard Proctor Compaction (AASHTO T 99-86)(48) -Maximum Dry Density (kg/m3)4	1546	1674	1656	1630	1657	1670	1610
-Optimum Moistrure Content (%)	22.7	20.5	20.4	22.5	20.5	20.0	23.0
California Bearing Ratio(%) (AASHTO T193-81)(48)	3.8	2.5	9.8	——	——	——	——
Swell(%)	4.93	2.7	0.8				
AASHTO Soil Classification (M1 45-82)(48)	A-7-6 (24)	A-7-6 (29)	A - 6 (13)	A-7-6 (14)	A-7-6 (16)	A-7-6	A-7-6 (18)
Unified Soil Classification (ASTM D2487-83)(49)	CH	CH	CL	CH	CL-CH	CL	CH
Soil Description ASTM(D2488-69)(49)	Dark brown silty clay	Greenish marly silty clay	Light Brown silty clay	REDDISH BROWN SILTY CLAY	GRAYEY SILTY CLAY	BROWN SILTY CLAY	GRAYEY SILTY CLAY



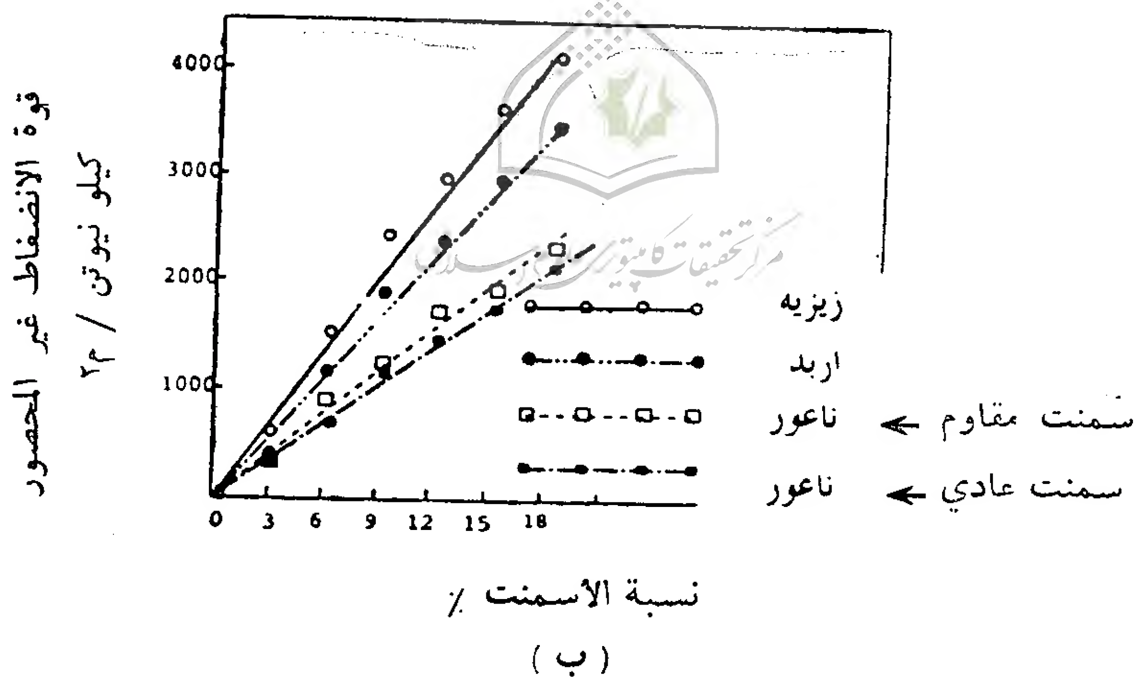


شكل رقم ــ ١ ــ

تحليل التربة بواسطة اشعة ــ اكس



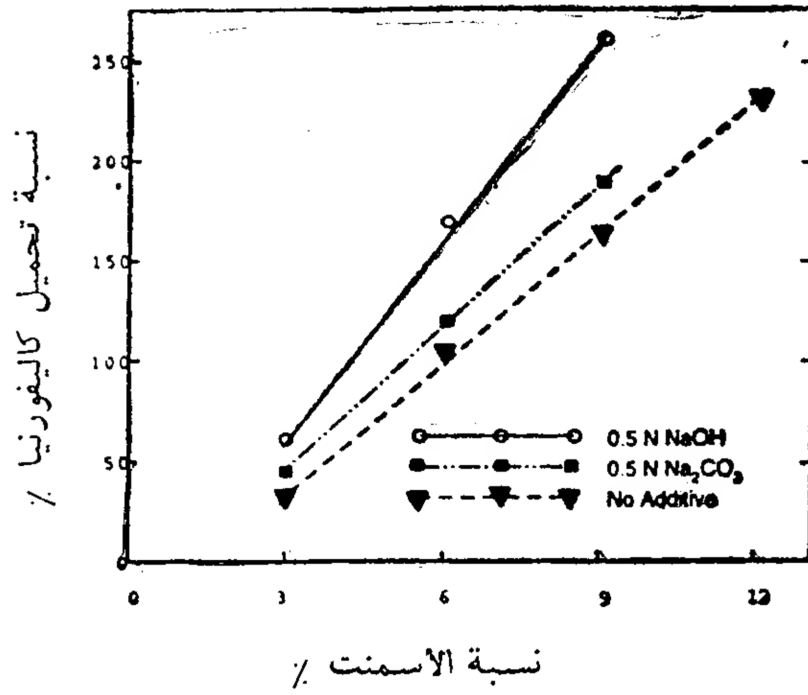
(أ)



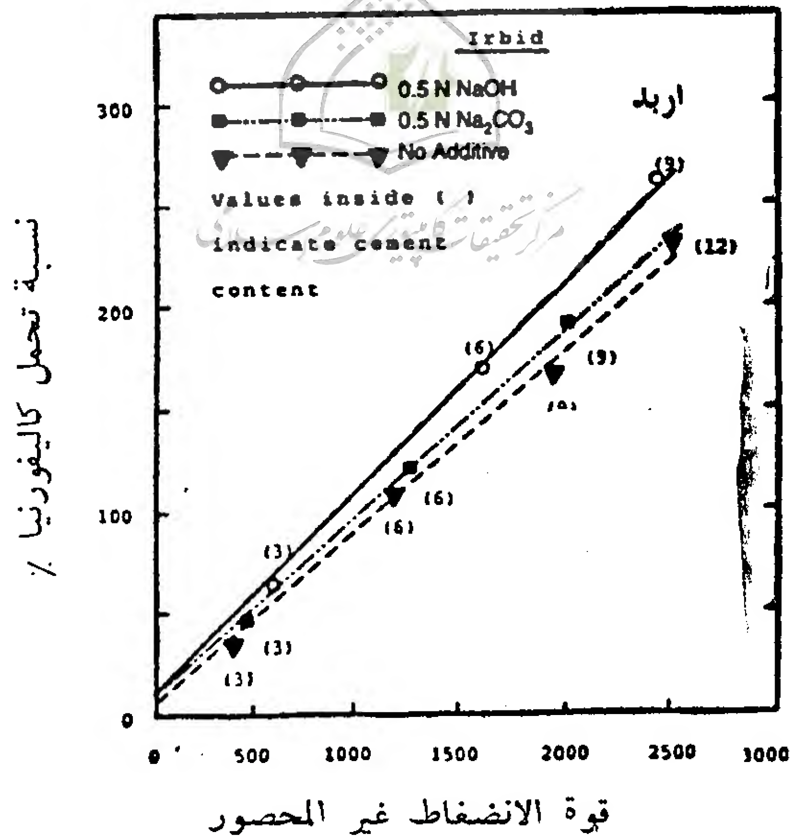
(ب)

شكل رقم ــ ٢ ــ

تأثير النورة والأسمنت على قوة تحمل التربة الأردنية المرصوصة بمحتوى الماء الأمثل وبلدة انضاج لسبعة أيام

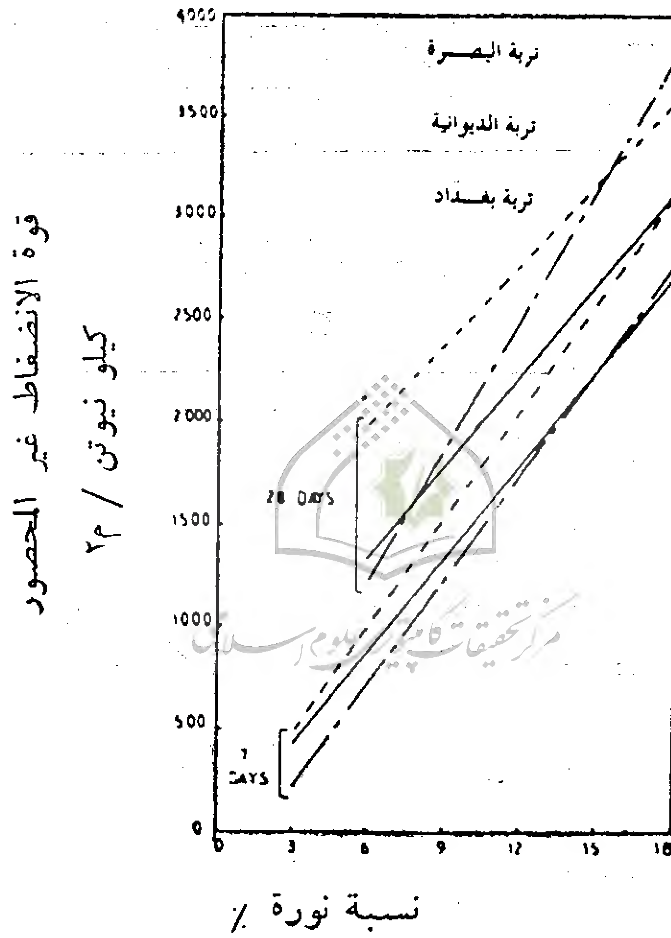


(ج)



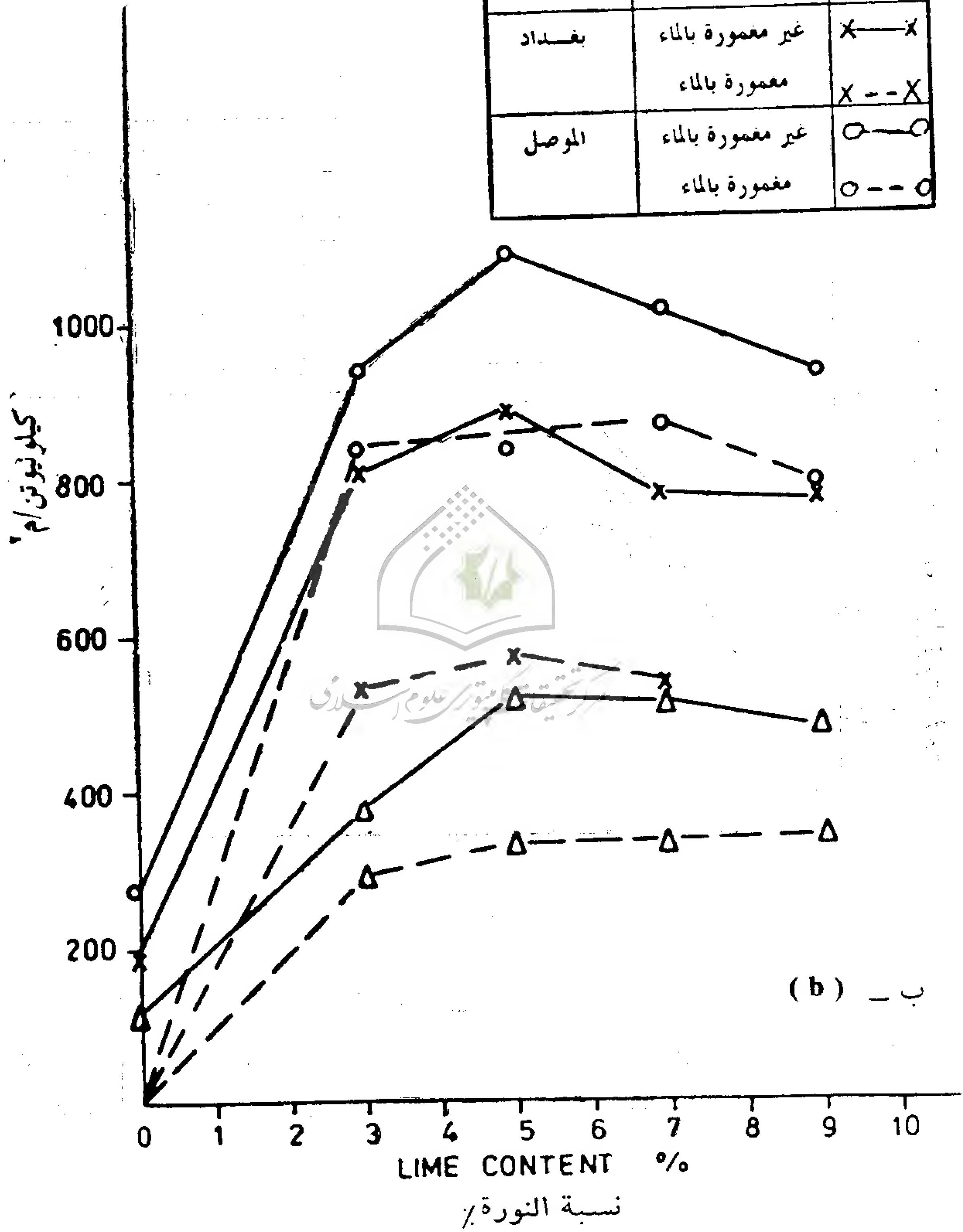
(د)

تابع شكل رقم ـــ ٢ ـــ

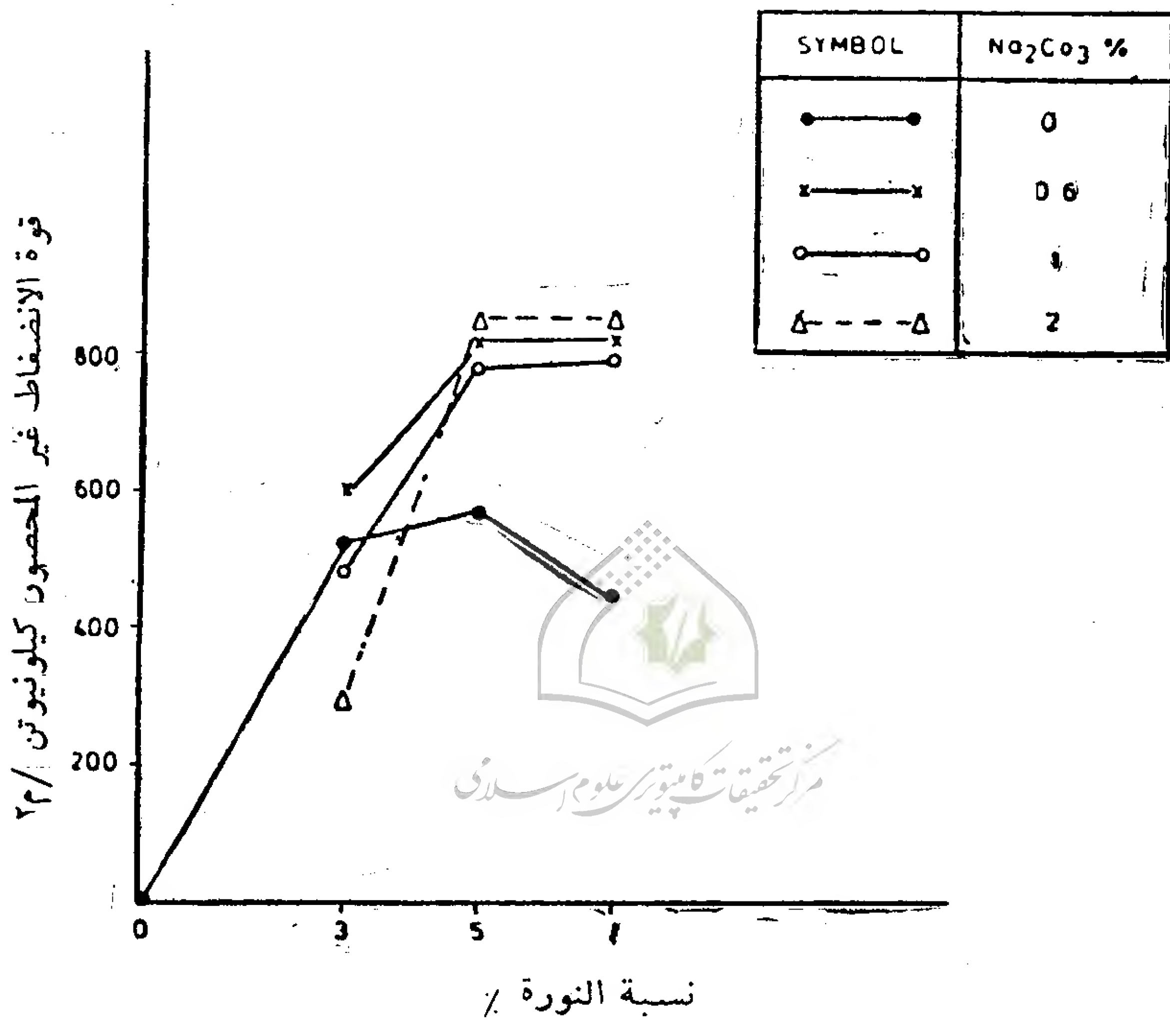


(a) ـ أ

شكل رقم ـ ٣ ـ
تأثير النورة والأسمنت على قوة التربة العراقية المرصوصة
بمحتوى الماء الأمثل وبمدة انضاج لسبعة أيام

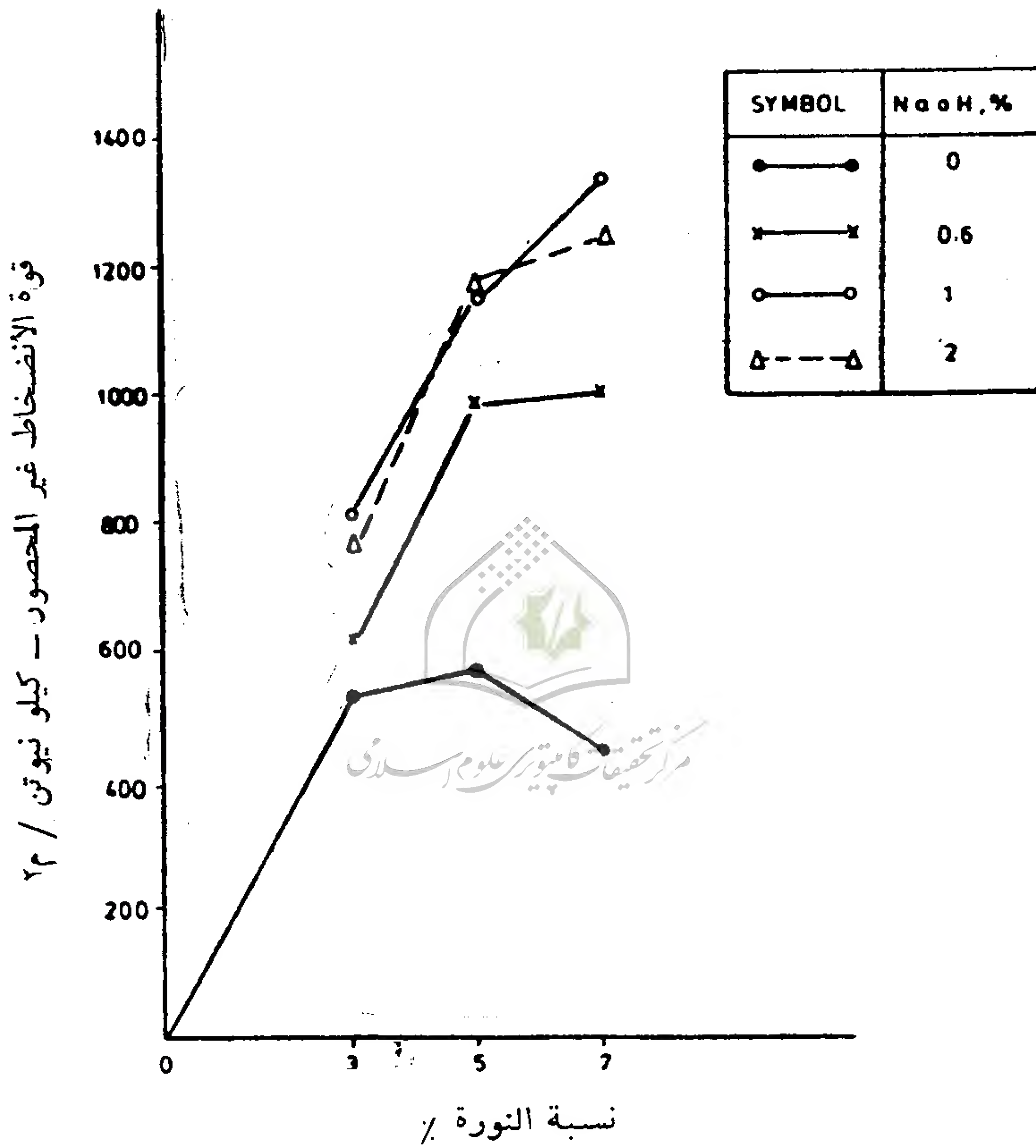


الشكل رقم ــ ٣ ــ

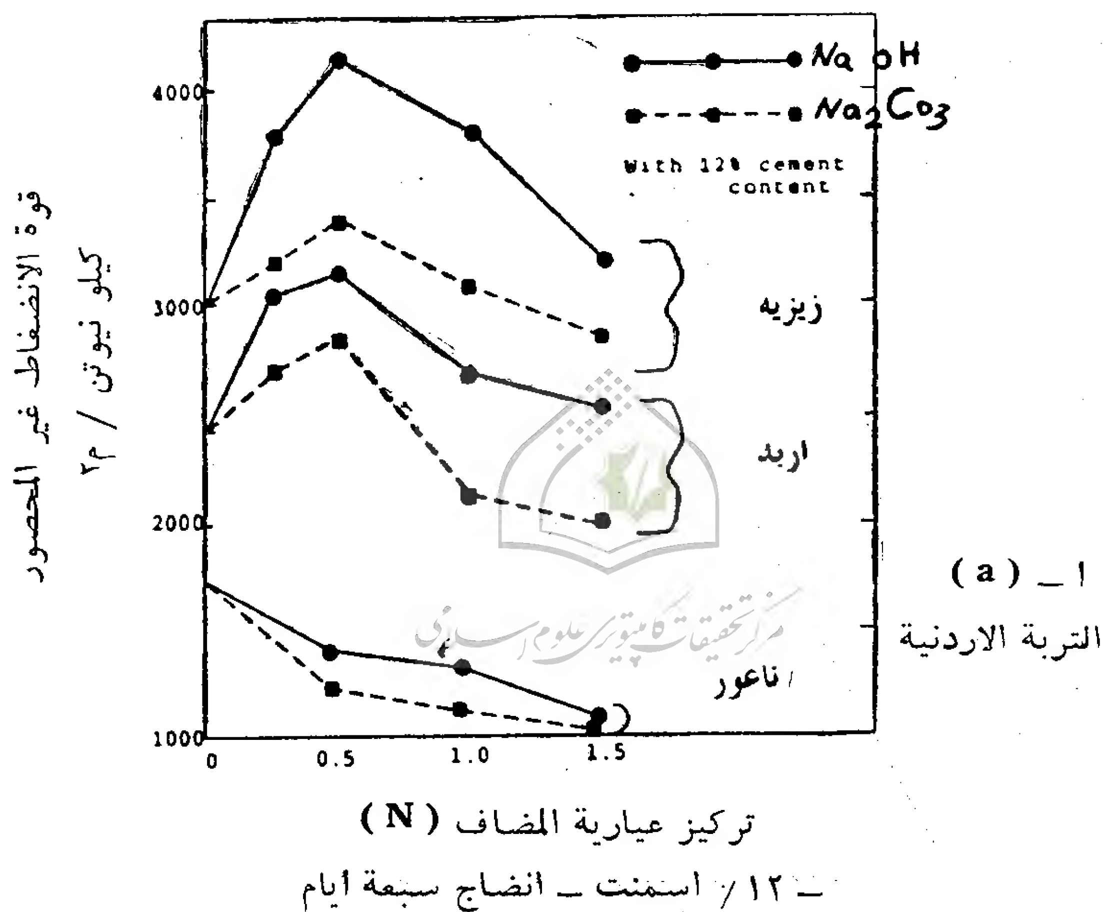


الشكل رقم ــ ٤ ــ

تأثير نسبة النورة على قوة تربة بغداد مع اضافة مواد كيميائية قلوية بتراكيز مختلفة . (الخليط مرصوص ومنضج لسبعة أيام ومغمور بالماء ليوم واحد)



تابع شكل رقم ــ ٤ ــ



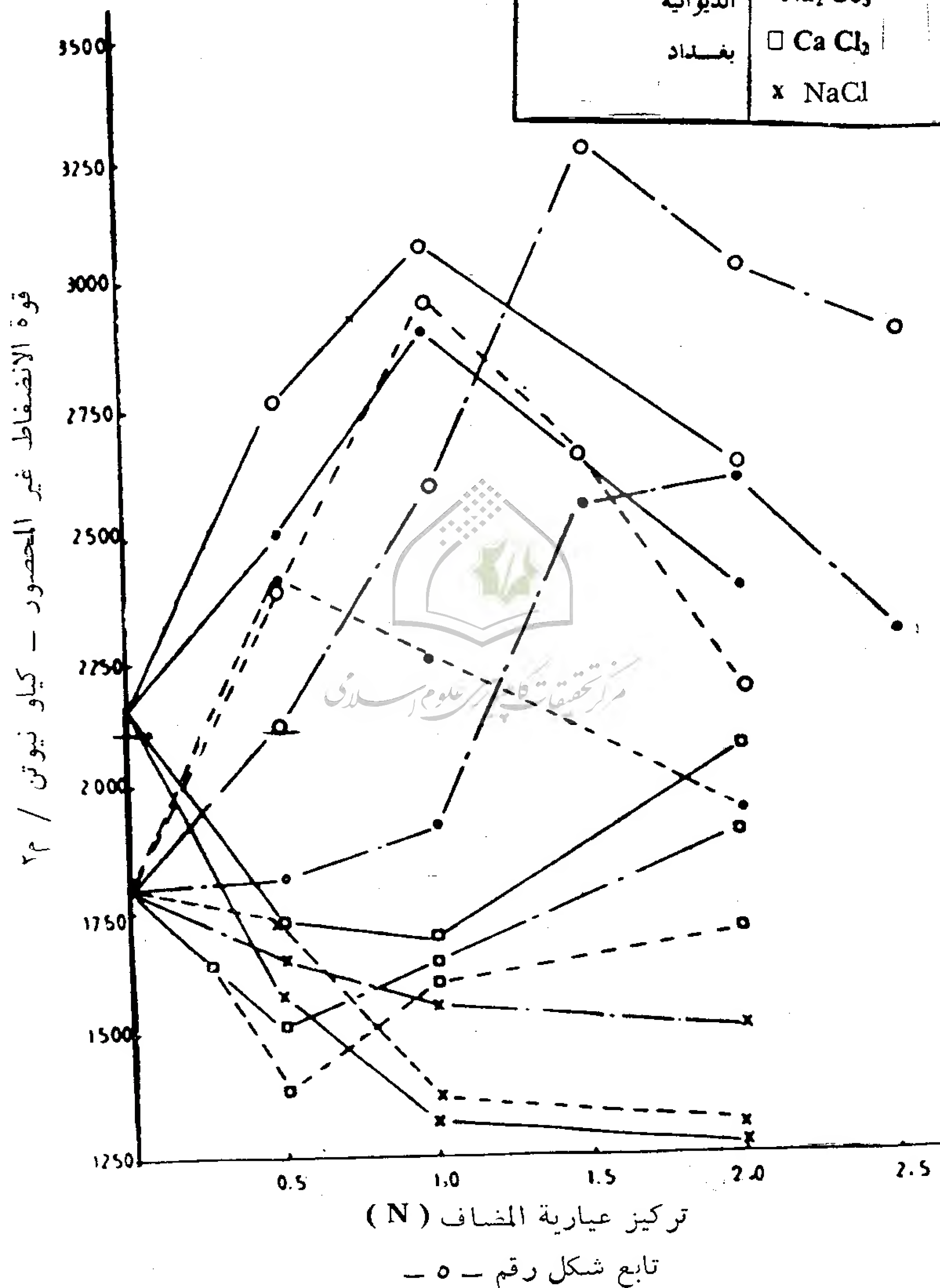
شكل رقم ـ ٥ ـ

تأثير نوع وتركيز المادة الكيميائية المضافة على قوة مزيج التربة والاسمنت

(العلامات)	
المضاف	التربة
° NA oH	البصـــرة
• $Na_2 Co_3$	الديوانية
□ $Ca Cl_2$	بغـــداد
x NaCl	

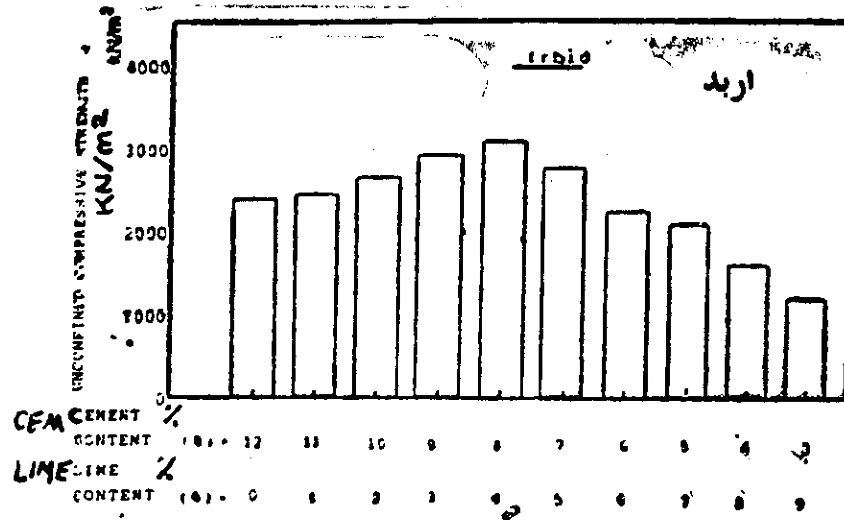
(ب) ـ التربة العراقية

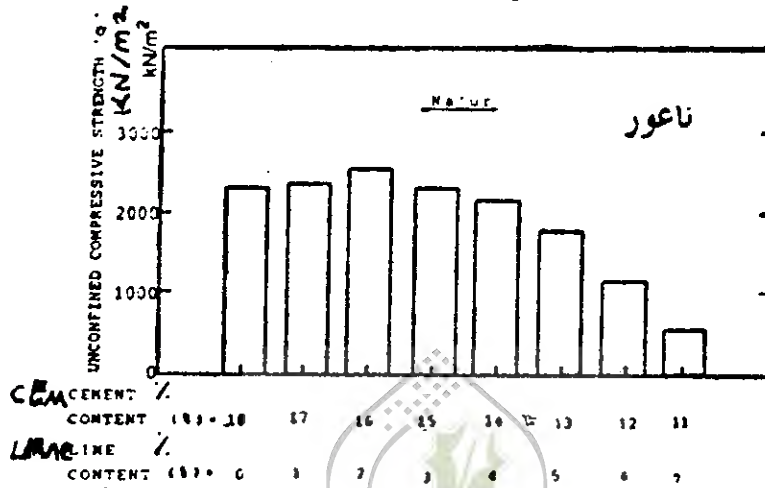
١٢٪ اسمنت

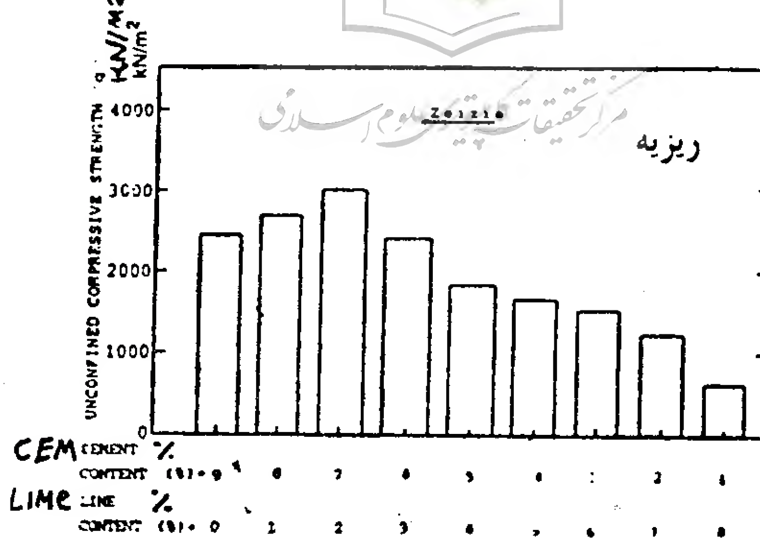


تابع شكل رقم ـ ٥ ـ

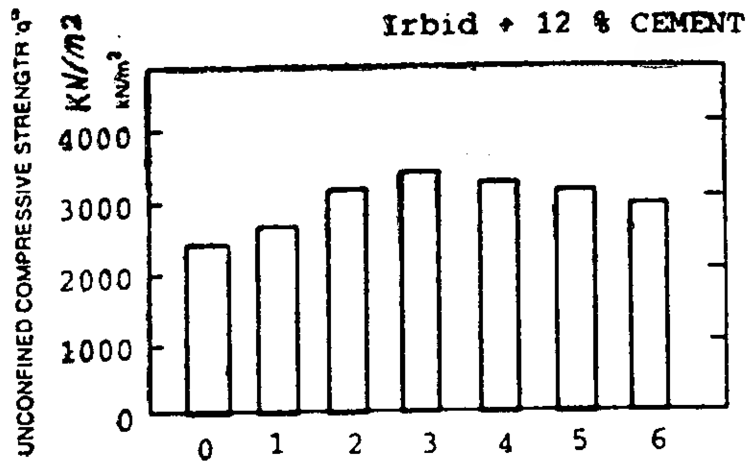
قوة الانضغاط غير المحصور – كيلو نيوتن / م٢

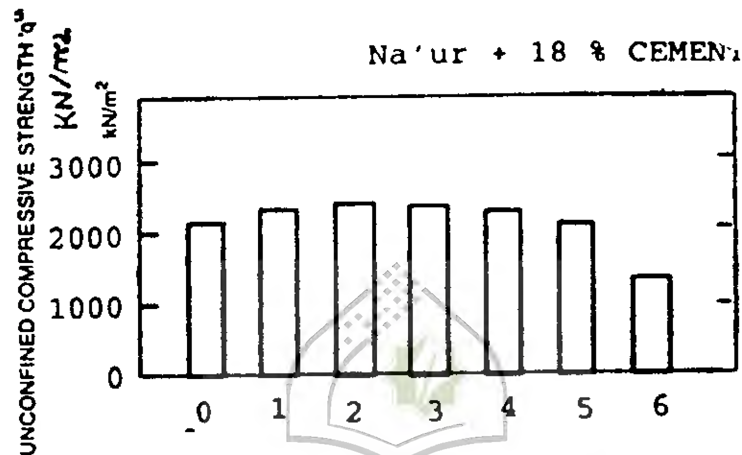


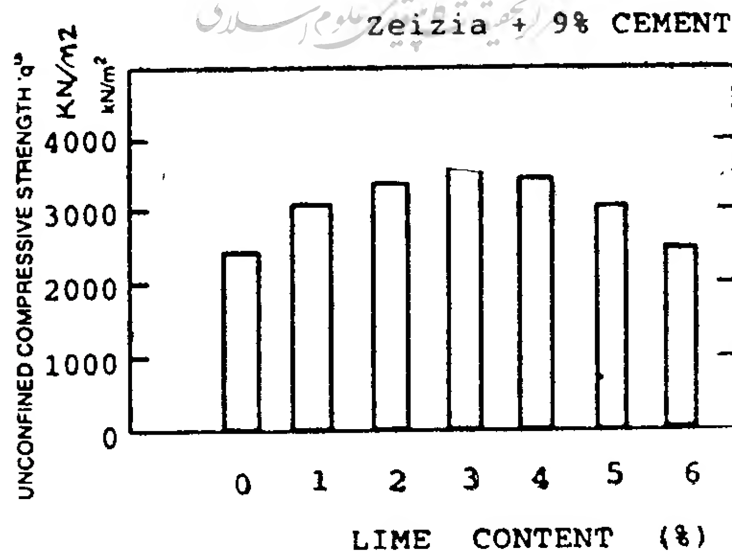




ا ـ تأثير احلال نسبة من النورة محل الاسمنت
ـ التربة مثبتة مرصوصة ومنضجة ٧ أيـام
الشكل رقـم (٦)
تأثير اضافة النورة على مزيج التربة الاردنية مع الاسمنت







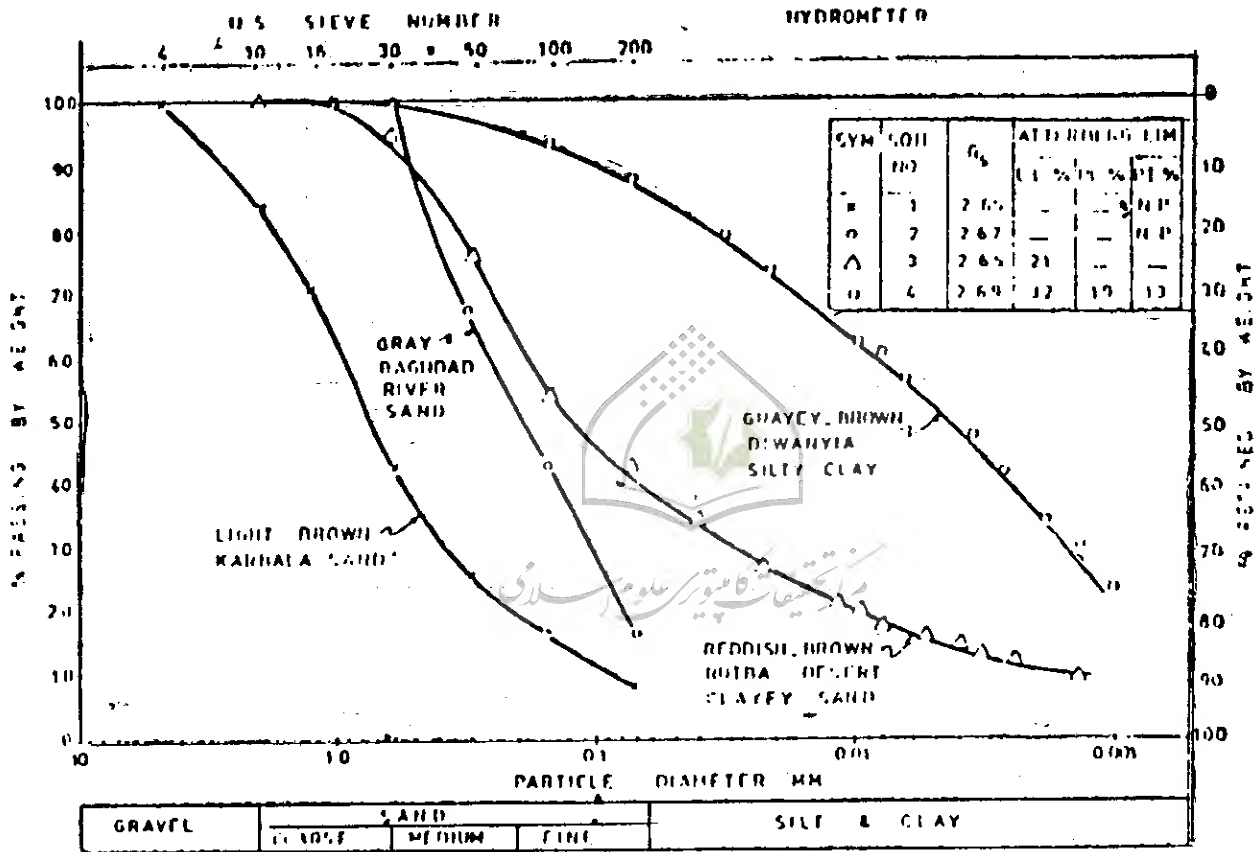
ب ــ تأثير اضافة النورة

ــ التربة مثبتة بالاسمنت مرصوصة ومنضجة ٧ ايام

تابــع شكــل رقــم (٦)

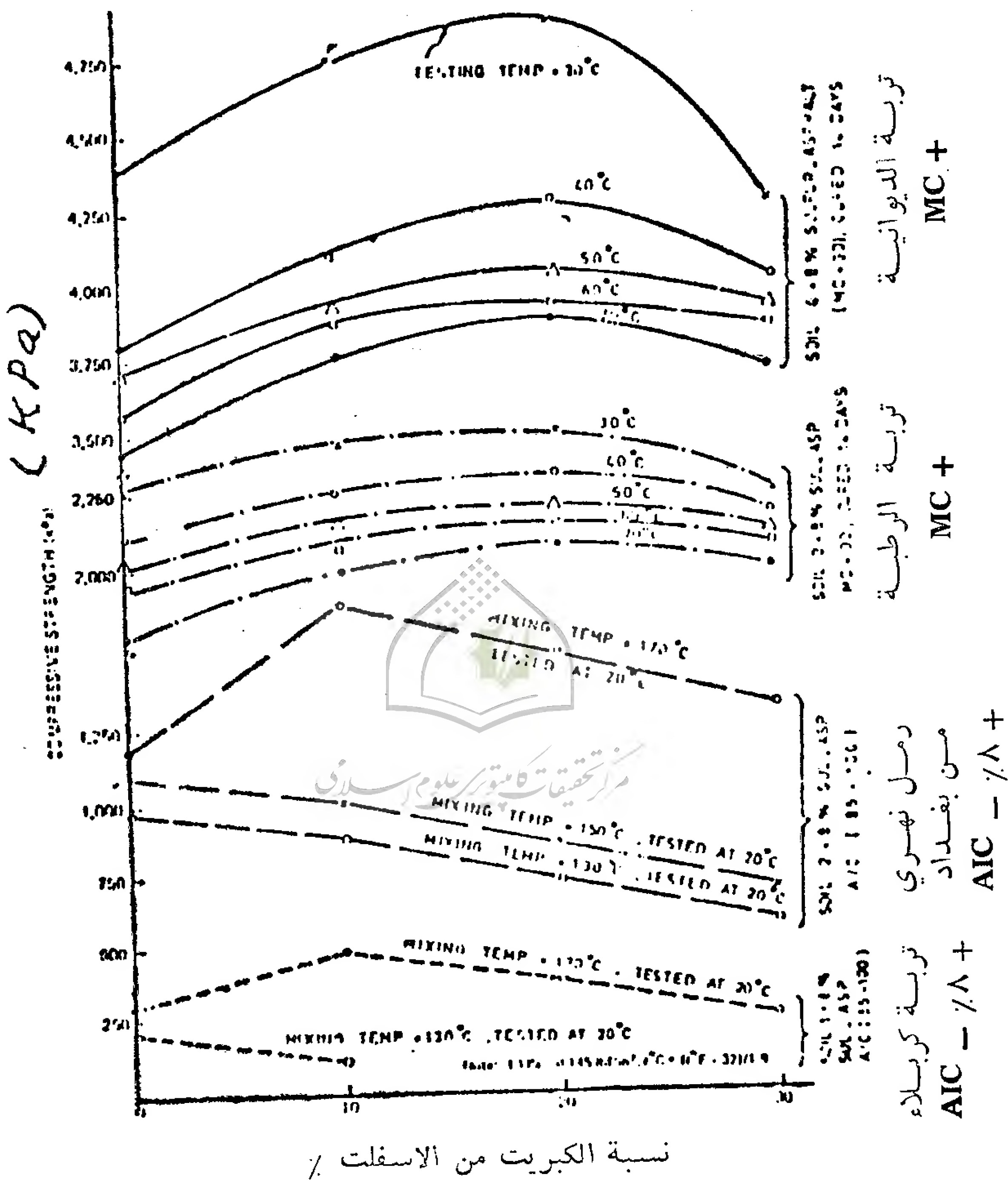
(أ)

تــدرج التربــة



الشكل رقـم (٧)

التربة المثبتة بالقار والكبريت



تابع شكل رقم (٧)

المصــــــادر

1. K. B. Woods "Highway Engineering Handbookk" Section 21 by A.W. Johnson, M. Herrin, D.T. Davidson, and R.L. Handy McGraw-Hill Book Co. Inc. 1960
2. G. A. Leonards "Foundation Engineering" Chapter 4 by T. Wiliam Lambe McGraw Hill Book Co. Inc. — 1962
3. Nagih M. El Rawi "Soil Stabilization" Unpublished Notes for the Gradute Course, College of Engineering University of Baghdad.
4. K. B. Woods "Highway Engineering Handbook" Section 18 by — W.H. Goetz and L.E. Wood, McGraw Hill Book Co. Inc. 1960
5. H. Abraham "Asphalt and Allied Substances" 5th ed. Vol 1 and 2. Van Nostrand Co. Inc., Princeton 1945.
6. Nagih M. El-Rawi "Correlation of Properties of Iraqi Limestone" Highway Research Record, 447 Highway Research Board, National Academy of Sciences, Washington D. C. 1973
7. Nagih M. El-Rawi and Hisham I. Al-Saleem "Sulfur — Asphalt as Soil Stabilizzrs" Transportation Research Record 733 Transportation Research Board, National Academy of Sciences, Washington D.C. 1979
8. R. Ashworth "Highway Engineering" Chapter 9, Heinemann Educational Book Ltd. London.
9. Nagih M. El-Rawi and Mohammad M. Al-Samadi "Optimization of Cement-Lime-Chemical Additives to Stabilize Jordanian Soils" Journal of Islamic Academy of Sciences, Vol 8, No. 4. 1997

10. Nagih M. El-Rawi and Amal Najim El-Deen "Use of PH values to Find Lime Content Required to Stabilize Iraqi Soils"
Al-Muhandis, Vol 15, No. 3, Serial 46, Baghdad Dec. 1971.

11. Nagih M. El-Rawi and M.A.H. Hadi
"Strength Improvement of Iraqi Soil-Lime Mixtures Using Chemical Additives"
Proc. 4th Scientific Conference, Scientific Research Council, Baghdad, 1986.

12. Nagih M. El-Rawi and Razik Toma "Investigation of the Effect of Some Chemical Additives on Strength of Iraqi Soil-Cement Mixtures".
Bull. of Building Research Center- Scientific Research Council, Baghdad, May 1987.

13. Nagih M. El-Rawi and Ali Aloush "Properties of Plain and Reinforced Soil-Cement Mixtures"
Journal of Islamic Academy of Siences — Vol. 8, No. 3, 1997.

من القرآن الكريم الى النصوص المسمارية
قصـــة الطـــــوفان

ا.د. عامـــر سـليمان

عضو المجمع العلمي

قسم الاثار ـ كلية الاداب

جامعة الموصل

عنوان غريب حقا ، يلفت الانتباه ، ويقدم العديد من التساؤلات ، ولا يتطابق ظاهريا والقواعد العلمية لدراسة التاريخ التي تقول ان اللاحـق ياخذ من السابق وليس العكس على النحو الذي يشير اليه العنوان • غير ان استخدام هذا العنوان هنا جاء للتذكير بان المنهج الذي يجب ان يتبع عند كتابة قصص الانبياء والرسل ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم واشير اليهم في النصوص المسمارية والنصوص القديمة الاخرى ، كالنصوص التوراتية ، يجب ان يعتمد اساسا على ما ورد في القرآن الكريم نقطة انطلاق للتعرف علـى ما طـرأ على تلـك القصص ، على نحو مـــا جاء في النصوص المسماريـة والتوراتية من تغيير وما حذف منها او زيد عليها عبر العصور الطويلة التي مرت عليها حتى وجدت طريقها الى التدوين ، فابتعدت تدريجيا عن اصولها التاريخية وجاءت وقد اكتنفها الخيال والاسطورة وتمحورت حول معتقدات القوم الدينية وقت تدوينها وكادت صلتها تنقطع عن اصولها الاولى ، في حين حفظ لنا القرآن الكريم بايجاز شديد الصورة الحقيقية لتلك القصص •

لقد اشار القرآن الكريم الى العديد من القصص والاخبار التي وقعت في عصور ما قبل الاسلام ، بل ان قسما منها حدث في عصور سحيقة في القدم

سبقت العصور التاريخية نفسها ، بيد ان القرآن ليس كتابا تاريخيا هدفه سرد القصص والاحداث وبيان تفاصيلها بل ان ما جاء فيه من اشارات موجزة عنها انما جاء للعبرة والموعظة فكان ان اشير الى القصة او الحادثة الواحدة احيانا في اكثر من مكان واكثر من مناسبة وباساليب مختلفة تنسجم وسياق الايات القرآنية والحكمة من وراء الاشارة الى القصة او الحادثة . فقد اشير الى نوح عليه السلام مثلا والى حادثة الطوفان في اكثر من اربعين موضعا ، كما اشير الى كل من ادم وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء والرسل ، عليهم السلام ، في العديد من المواضع .

ورغبة من عدد من الكتاب المسلمين والمفسرين في جمع ما ورد في القرآن الكريم من قصص واخبار تاريخية وتوحيدها وبيان تفاصيلها ، ووضعها باسلوب تأريخي متسلسل ، على غرار ما جاء في كتب التاريخ ، كان لابد لهم من جمع التفاصيل من مصادر اخرى ، وكان في مقدمة المصادر التي اعتمدوها كتاب العهد القديم[1] ، الذي يسمى جوازا ، ومن باب اطلاق اسم الجزء على الكل ، التوراة[2] . ومن المعروف ان التوراة الاصلية نزلت على موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد على النحو

(١) وهو كتاب اليهود المقدس ، ويتألف من ٣٩ سفراً حسب الترجمة البروتستانتية و ٤٦ سفرا حسب الترجمة الكاثوليكية . وتقسم الاسفار فيه عادة على ثلاثة اقسام رئيسة يؤلف القسم الاول منها ، وهي الاسفار الخمسة الاولى ، ما يظن اليهود انه بقايا التوراة الاصلية ، لذا تسمى هذه الاسفار بكتب موسى الخمسة او التوراة (ينظر سوسة ، احمد ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ، بغداد ، ط ٥ ، ١٩٨١ ، ص٣٢٩ — ٣٣٣ ؛ طنطاوي ، محمد سيد ، بنو اسرائيل في القرآن والسنة ، البصرة ، ١٩٦٨ ، ج١ ، ص٨٣-٩٣ .

(٢) وتعني كلمة توراة بالعبرية (تعاليم) او (قانون) ينظر Brown, Driver and Briggs (BDB), A He brew and English Lexicon of the Old Testament, Oxford, 1959, p. 435.

الذي يراه اكثر الباحثين[٣] ، الا انه من الثابت ايضا ان يد التحريف والتغيير والحذف والزيادة ، قد امتدت اليها عبر العصور التي تفصل بين تأريخ نزولها وتأريخ جمعها وتدوينها مع بقية اسفار العهد القديم التي وضعها احبار اليهود عن تأريخهم وعن تأريخ ملوكهم وأنبيائهم وعن علاقاتهم مع الاقوام الاخرى وذلك في حدود القرن السادس قبل الميلاد وما بعده[٤] ، لذا جاءت اسفار العهد القديم وهي تعكس اخلاق احبار اليهود وآمالهم واحلامهم وتظهر اليهود بانهم شعب الله المختار والمفضل على غيره ، كما جاءت مليئة بالاخطاء والتناقضات والتحريف والتزوير وهذا ما اشار اليه القرآن الكريم في اكثر من موضع[٥] وما انتهت اليه الدراسات الحديثة . لذلك ، لا يمكن الركون الى ما جاء في اسفار العهد القديم على النحو الذي دونه احبار اليهود بل يجب على الكاتب او المفسر الذي يروم الافادة مما ورد في قسم من الاسفار من تفاصيل واحداث ورد شيء عنها في القرآن الكريم ان يدقق فيها ويمحص ويكون حذرا اشد الحذر عند الاخذ من تلك الاسفار او الاقتباس منها متنبها الى مواضع التحريف والحذف والزيادة ، رافضا كل ما يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم وبما انه لم يكن لدى الكتّاب والمفسرين الاوائل نصوص اخرى اقدم عهدا ، من حيث تأريخ التدوين ، من النصوص التوراتية ، للتثبت بوساطتها من صحة ما ورد فيها من تفاصيل ومعرفة المزيد فيها ، فقد اعتمدوا على تلك النصوص وقبلوها على علاتها وان اشار عدد منهم الى عدم منطقية طائفة مما ورد في

(٣) سوسة : المصدر السابق ، ص ٥٥٥ ، طنطاوي ، المصور السابق ، ص٢٧ ، باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ط ٢ ، ١٩٥٥ ، ج٢ .

(٤) يرى الباحثون ان معظم اسفار العهد القديم كان قد دونها لاول مرة احبار اليهود في اثناء وجودهم اسرى في بلاد بابل في القرن السادس قبل الميلاد . سوسة ، المصدر السابق ، ص٤٠٨ ، باقر ، المصدر السابق ، ط٣ ، ص١١٠ .

(٥) سورة البقرة / ٧٥ ، النساء / ٤٥ ، المائدة / ١٤ ، ٤٤ ، الانعام / ٩١ .

اسفار العهد القديم من اخبار وعدم معقوليتها[٦] • ومنذ اواسط القرن الماضي ، زيد مصدر جديد ومهم الى مصادر معلوماتنا عن التاريخ القديم بعامة ، وما وقع فيه من احداث وساد من احكام ، تمثل بنتائج التنقيبات الاثرية التي اجريت في المدن والمواقع القديمة • وقد اسفرت تلك التنقيبات عن اكتشاف اعداد كبيرة من النصوص المسمارية المدونة باللغة السومرية او اللغة الاكدية ، او بكلتيهما معا ، تم فك رموزها وقراءة ما ضمنته من معلومات تاريخية ودينية وغيرها • وقد ترجمت تلك النصوص الى معظم اللغات الحديثة • وهكذا لم يعد كتاب العهد القديم يمثل اقدم المدونات المتيسرة ، كما لم يعد المصدر الاول الذي يعوّل عليه في دراسة تأريخ الانبياء والرسل الاوائل على الرغم من قدسيته لدى معظم الباحثين واحتوائه على كثير من التفاصيل التي اثبتت دراسة النصوص المسمارية بانها مقتبسة منها ، فتاريخ تدوين عدد من النصوص المسمارية يرقى الى اواخر الالف الثالث ، في حين دون معظمها في الالف الثاني والاول قبل الميلاد وبذلك فهي تسبق تاريخ تدوين اسفار العهد القديم بمدة طويلة • وقد تبين بان عددا من النصوص المسمارية ضم قصصا واخبارا اشير الى قسم منها في القرآن الكريم فضلا عن انها تتشابه احيانا ، وتتطابق احيانا اخرى ، مع ما ورد في اسفار العهد القديم الا انها سبقتها من حيث تأريخ التدوين •

ومن جملة تلك القصص والاخبار قصة الطوفان وجنة عدن وقصة خلق الكون وخلق الانسان والواح القدر وعدد من الاحكام والقواعد القانونية وغيرها • ولقد اثار هذا التشابه الذي وجد بين ما ورد في اسفار العهد القديم وما تضمنته النصوص المسمارية ضجة كبرى لا في الاوساط العامية فحسب بل في الاوساط الدينية وبخاصة في اوروبا ، واهتز لذلك مركز كتاب العهد القديم ، وهرع الكتّاب والباحثون ، وكثير منهم من رجال الدين ، للبحث عن سر هذا التشابه وتفسيره بما ينسجم ونظرتهم الى كتاب

---

(٦) ينظر مثلا : ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل (٧٠١-٧٧٤هـ) ، قصص الانبياء ، بغداد ، ص٨٤-٨٥ .

العهد القديم الذي يمثل القسم الاول من كتابهم المقدس ، ويحفظ مركزه الديني والتاريخي ، وتوالت البحوث ونشرت الدراسات[٧] . واذا اجملنا ما توصل اليه الباحثون الاجانب في تفسير هذا التشابه ، يمكن ان نميز بين مذهبين رئيسين ، يرى المذهب الاول « ان وجود اوجه متشابهة بين النصوص السومرية ــ البابلية والتوراة انما هو دليل على عمق الروابط بين النتاج الحضاري الرافديني . فاذا كان الاباء الاول جاؤوا فعلا من وادي الرافدين ، كما تؤكد ذلك التوراة مرارا ، فلا تتوقع منهم الا ان يكونوا على علم بنتاج موطنهم الاصلي . ولذلك فان وجود « مادة مستوردة » في سفر التكوين انما هو ، في رأيهم ، « برهان على أصالة اشتقاقها وليس على كونها سرقة نكراء »[٨] . وبعبارة اخرى ، ان التشابه انما يؤكد صحة وأصالة ما ورد في التوراة من اخبار وقصص ذكرتها النصوص المسمارية الاقدم عهدا من حيث تاريخ التدوين . اما المذهب الثاني ، فيبدي تحفظا على صحة الرواية التوراتية بان الموطن الاصلي لابراهيم الخليل كـان في اور ويتساءل عما اذا كانت المدينة المذكورة في التوراة تدل فعلا على اور في جنوبي العراق ام انها تدل على مدينة اخرى لها الاسم نفسه لكنها تقع في مكان آخر بعيدا الى الشمال ، ربما مدينة اورفا الواقعة في اعالي نهر البليخ الى الشمال من حران (داخل الاراضي التركية الان)[٩] ، يرى اصحاب هذا المذهب ان النتاج الحضاري العراقي القديم الذي نرى انعكاسه في التوراة قد انتقل الى التوراة « من خلال الصـلات التجارية والسياسية والحملات العسكريـة ، واهم من

(٧) انظر مثلا Cook, S.A The Laws of Moses and the Code of Hammurabi, London, 1903; Davies, W.W., The Codes of Hammurabi and Moses, 1905 Johnson, C.H., The Relation between the Laws of Babylonia and the Laws of the Hebrew People ... etc.

(٨) علي ، فاضل عبدالواحد ، من الواح سومر الى التوراة ، بغداد ، ١٩٨١ ، ٢٢٩ــ٢٣٠ .

(٩) المصدر نفسه ، ص٢٤٠ــ٢٤١ .

ذلك كله من خلال وجود العبرانيين انفسهم في بابل اثناء الاسر البابلي »[10]، وبعبارة اخرى ، ان التشابه الموجود بين ما ورد في النصوص المسمارية وما ذكرته اسفار العهد القديم انما هو اقتباس الاحدث من الاقدم وبخاصة وان اسفار العهد القديم كانت قد دونت اول مرة في اثناء وجود اليهود اسرى في بلاد بابل في القرن السادس قبل الميلاد بعد ان كان مدونو التوراة من احبار اليهود قد تعرفوا وبشكل مباشر على عادات البابليين وتقاليدهم وطقوسهم وقصصهم واخبارهم ذات العلاقة ، لذا فان « الديانة اليهودية كما هي معروفة قد ولدت اثناء الاسر في بلاد بابل وان الاسفار الاولى التي تبدأ بها التوراة قد اخذت شكلها الذي جاءتنا به من خلال وجود اليهود في الاسر »[11] .

ومنذ اواسط القرن الحالي بدأ عدد من المختصين بالكتابات المسمارية ولغاتها القديمة وبالتاريخ القديم بعامة من العرب ، وجلّهم من العراقيين ، يكتبون عن مضامين النصوص المسمارية ويشيرون الى التشابه الموجود بين ما وجد فيها من قصص واخبار مع ما ذكرته اسفار العهد القديم[12] . وانطلاقا من شعورهم القومي والوطني وردا على دس اليهود المستمر على العرب وعلى تأريخهم وحقدهم المتأصل وكرههم لجميع الاقوام من غير اليهود ، ولا سيما البابليين والاشوريين ، لاسباب تأريخية معروفة[13] ، فقد ذهبوا في تفسيرهم لاوجه الشبه المذهب الثاني وعدّ كل ما ورد في اسفار العهد القديم من قصص واخبار واحكام مشابهة لما ورد في النصوص المسمارية

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص٢٤٢ .

(١١) المصدر نفسه ، ص٢٤٤ .

(١٢) انظر مثلا ، باقر ، ملحمة كلكامش ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ط٤ ، ص٤٦ وص ٢٤٧ وما بعدها . علي ، فاضل عبدالواحد ، المصدر السابق ، ٢٢٩ وما بعدها . سوسة ، احمد ، المصدر السابق ص٤٣٣ وما بعدها .

(١٣) من المعروف ان الاشوريين قضوا على مملكة اسرائيل في حدود عام ٧٢١ ق.م. في حين تمكن البابليون من القضاء على مملكة يهوذا في عهد نبوخذنصر الثاني،انظر باقر ، المصدر السابق ، ص٥١٢ ، ٥٤٩ ــ ٥٥٠ .

انما هي نتيجة طبيعية « لتأثر العبرانيين بالنتاج الحضاري لبلاد وادي الرافدين وانعكاس ذلك بشكل واضح في التوراة »[١٤] وضربوا لذلك الامثلة الكثيرة مثل قصة خلق الكون وخلق الانسان وجنة عدن وقصة الطوفان وقصة ولادة موسى وغيرها[١٥] . وهناك من اشار الى اوجه الشبه فقط من دون تعليق او تفسير علمي او تأريخي او ديني . الا ان الذي يلفت الانتباه في جميع البحوث والدراسات الاجنبية والعربية ويعد نقصا علميا فيها انها لم تشر من قريب او بعيد الى حقيقة معروفة لدى الجميع وهي انه وردت في القرآن الكريم قصص واخبار واشارات مشابهة لقسم مما ورد في اسفار العهد القديم ومن ثم فهي مشابهة من حيث الجوهر والاساس لما ورد في النصوص المسمارية ايضا ، ومن هذه القصص قصة الخليقة وقصة الطوفان وقصة ايوب ومولد موسى وغيرها ، ومن المبادىء والاحكام مبدأ القصاص ومبدأ الدية واحكام الزواج والبيع وغيرها وذلك على الرغم من معرفة الجميع ان ما ورد في القرآن الكريم يمثل من دون ريب الصيغة الحقيقية المنزلة التي لم تمتد اليها يد التحريف والتغيير او تزيد عليها او تنقص منها . ان عدم الاشارة في بحوث الاجانب بعامة الى ما ذكره القرآن الكريم هو امر متوقع بيد انه غير مبرر علمياً ، فقد يفسر انه نتيجة لعدم اعتقاد الاجانب من غير المسلمين بان القرآن هو كتاب منزل، ومن ثم فهم لا يؤمنون بصحة ما ورد فيه من معلومات ودقتها ، وهذا تفسير مرفوض علميا ، فلاهم ، مثلا ، ولا نحن نؤمن او نعترف بصحة ما ورد في النصوص المسمارية من معتقدات دينية تقوم على اساس الشرك والتشبيه الا اننا مع ذلك ، نقوم بدراستها وتحليلها وتفحص ما ورد فيها ونوازنها بغيرها بهدف النفوذ من خلالها الى واقع الحياة الدينية عند العراقيين القدماء في حقبة معينة ، وما هذا البحث الا جزء من تلك الدراسات ، وان اغفالنا ما ذكرته تلك النصوص من مبادىء لا نؤمن بها يعد نقصا كبيرا يؤشر علينا في مثل هذه الحالة . لذلك

---

(١٤) علي ، المصدر السابق ، ٢٣٩-٢٤١ .
(١٥) المصدر نفسه ، ص٢٤٥-٢٩٠ .

كان اغفال ما ذكره القرآن الكريم بحجة عدم الايمان به مرفوض اساسا .
وقد يفسر هذا الاغفال بعدم اطلاع الباحثين الاجانب على ما ورد في القرآن الكريم من قصص واخبار ذات علاقة ، وان ذلك هو الاخر يعد نقصا كبيرا في امكاناتهم العلمية لاستيعاب ما ورد عن تلك القصص والاخبار ولا سيما انه قد تمت ترجمة معاني القرآن الى معظم اللغات الاجنبية وغدت في متناول ايدي الباحثين والمتتبعين . اما اذا كان الاغفال عن قصة ورغبة في التقليل من اهمية ما ورد في القرآن الكريم والظن انه اقتباس مباشر من كتاب العهد القديم ، الاقدم من حيث تأريخ التدوين ، فان ذلك يعد تحيزا واضحا لا يقبل من باحث علمي موضوعي . لذا تبقى جميع بحوث الاجانب التي تناولت الموضوع منذ مطلع القرن الحالي والى الان بحوثا ناقصة علميا على جميع المقاييس العلمية التي وضعها الاوربيون انفسهم لتقويم البحوث العلمية والتي غدت الاساس الذي نسير عليه ونقتدي به ونضمنه جميع تعليماتنا ودراساتنا وكتبنا ذات العلاقة باسلوب البحث العلمي ومنهجه .

اما بالنسبة للباحثين العرب والمسلمين عامة المطلعين بالتأكيد على ما ورد في القرآن الكريم والمؤمنين بدقته وصحته ، فان اغفالهم ذكر ما ورد في القرآن الكريم في بحوثهم العلمية ذات العلاقة لا يمكن ان يفسر ، كما نظن ، الا انه خروج عن القواعد والاسس العلمية وتقليد غير مدروس لما ذهب اليه الاجانب في دراسة تأريخنا القديم والاسلامي المتميز بالحقد والكراهية تجاه العرب والمسلمين بعامة .

ومع الاعتراف بصحة القول بان الاحداث يأخذ من الأقدم ويقتبس منه ويتأثر به اذا ما توافرت له طرق الاتصال والانتقال ، الا ان ذلك لا يعني ان جميع اوجه الشبه الموجودة بين ثقافتين هي نتيجة طبيعية لاقتباس الاحداث من الاقدم وان توافرت شروط الاقتباس إلا يصح القول عندئذ بان اوجه الشبه الكبيرة الموجودة بين اللغة الاكدية ، لغة العراقيين القدماء ، مثلا وبين

اللغة العربية والارامية هو نتيجة طبيعية لاقتباس كل من اللغتين العربية والإرامية من اللغة الاكدية ، في حين اثبتت الدراسات التاريخية واللغوية بان اوجه الشبه هذه انما ناتجة عن اشتقاق اللغات الثلاث من اصل واحد هو ما يسمى باللغة الجزرية الام ، وان الاختلافات الموجودة بينها ناتجة عن تأثر كل من اللغات الثلاث بالبيئة التي عاشت فيها والظروف التي احاطت بها واللغات التي احتكت بها عبر القرون المتتالية(١٦) • وينطبق الشيء نفسه على موضوع البحث • فهناك اوجه شبه ما من حيث الجوهر بين ما ورد في النصوص المسمارية من قصص واخبار واحكام مع ما يماثلها مما ورد في كتاب التوراة من جهة مع ما اشار اليه القرآن الكريم من جهة اخرى • وان ذلك لا يعني ان الاحدث اقتبس من الاقدم بل انه يعكس حقيقة واضحة وهي ان المصادر الثلاثة تتحدث عن القصص والاحداث نفسها ، كقصة الطوفان مثلا،الا ان الظروف التي احاطت بالروايات الشفوية حتى وجدت طريقها للتدوين من قبل الكتبة السومريين والبابليين والاحبار واليهود اثرت في تلك القصص والاخبار وغيرت من بعض تفاصيلها واضافت اليها تفاصيل جديدة في حين عكس لنا القرآن الكريم حقيقة ما وقع او حدث فعلا من دون تغيير او اضافة ، وان معظم القصص والاخبار ترتبط بالانبياء والرسل الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى تباعا الى بني البشر لهدايتهم وانذارهم كلا بلسان قومه (ابراهيم/٤) ومن الرسل من ذكر بالاسم كنوح وابراهيم عليهما السلام ومنهم من لم يذكر (النساء/١٦٣) واننا اذا ما تفحصنا النصوص المسمارية ، ولا سيما القصص والاساطير الدينية والملاحم والقوانين وعدد من النصوص الاخرى ذات العلاقة، وجدنا فيها صدى ما ذكر في القرآن الكريم عن عدد من اولئك الانبياء والرسل وعن الاحكام والمبادىء التي جاؤوا بها ، نقول صدى لان ما ذكر في النصوص المسمارية جاء مغلفا بلباس من الشرك والتشبيه ومليء بالزيادات التي تنم على معتقدات القوم وقت تدوين تلك

(١٦) عن تفصيل ذلك ينظر : سليمان ، عامر ، اللغة الاكدية ، موصل ١٩٩١ .

النصوص الى درجة ان من يقرأ تلك النصوص يبدو له وكأنها لا تمت بصلة الى ما ورد ذكره عنها في القرآن الكريم ، وهو امر طبيعي طالما ان دعوات الرسل والانبياء السابقين وتعاليمهم ، مثل نوح عليه السلام ، لم تدون وقت مجيء اولئك الرسل لتحفظ للاجيال التالية اما لان الكتابة لم تكن معروفة اصلا او لانه لم يكن يسمح بتدوين مثل هذه الدعوات المعارضة والمتقاطعة مع معتقدات القوم ، مثل دعوة ابراهيم عليه السلام الذين كان جزاؤه الحرق، كما نص على ذلك القرآن الكريم ، لانه جاء بدعوة متقاطعة ومعتقدات القوم السائدة انذاك .

اما بالنسبة لما جاء في العهد القديم من قصص واخبار ذات علاقة ، فانها قد جمعت بين جوهر ما ورد ذكره في القرآن الكريم وبين التفاصيل الكثيرة التي اكتنفت ذات القصص والاخبار في النصوص المسمارية حتى ظن بعضهم ان ما ذكرته اسفار العهد القديم من قصص مشابهة من حيث التفاصيل كقصة الطوفان مثلا ، لما ورد في النصوص المسمارية انما هو اقتباس مباشر لقصص واساطير سومرية وبابلية(١٧) ، كما سبق والمحنا ، في حين ان هذا التشابه ناتج عن اقتباس احبار اليهود للتفاصيل الكثيرة التي اكتنفت القصص والاخبار السومرية والبابلية المشابهة لما جاءت به التوراة اصلا عن ذات القصص والاخبار وذلك في اثناء وجودهم اسرى في بلاد بابل وقت تدوين اسفار العهد القديم في القرن السادس قبل الميلاد وتعرفهم على ما ورد في النصوص المسمارية .

وفي الصفحات الاتية محاولة لتحليل عناصر قصة الطوفان الرئيسة في المصادر الثلاثة القرآنية والتوراتية والمسمارية لبيان اوجه الشبه والخلاف بينها واسباب ذلك كمثل على ما ذكر اعلاه .

---

(١٧) ينظر مثلا : علي ، فاضل عبدالواحد ، المصدر السابق ، ص٢٤٣-٢٤٤ .

قصة الطوفان :

تعد قصة الطوفان اكثر القصص التاريخية المعروفة انتشارا[١٨] ، واقدمها من حيث تأريخ التدوين ، وهناك اوجه شبه بين خطوط القصة العامة وجوهرها في المصادر الثلاثة القرآنية والتوراتية والمسمارية تصل احيانا الى درجة التطابق مما يشير ويؤكد ان القصة تعكس حادثة حقيقية وقعت في عصور سحيقة في القدم سبقت العصور التاريخية نفسها ، التي تحدد عادة مع بداية الالف الثالث قبل الميلاد ، وان تلك الحادثة كانت من جسامة التأثير وفداحته انها تركت اثرا بليغا في نفوس الاجيال المتعاقبة وعقولها فتناقلتها بالروايات الشفوية وغيرت من تفاصيلها الحقيقية ونسجت حولها ما نسجت من خيال الرواة حتى وجدت الرواية طريقها الى التدوين أول مرة في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد على ايدي الكتبة السومريين ، كما يستنتج ذلك من النصوص المسمارية التي كانت قد غابت عن الانظار لالاف من السنين في بطون التلول الاثرية حتى رأت النور ثانية منذ اواسط القرن الماضي عندما اكتشفت وحلت رموزها المسمارية .

شخصية بطل الطوفان : يؤكد القرآن الكريم في اكثر من موضع ان نوحا ، وهو بطل قصة الطوفان ، كان بشرا اعتياديا وعبدا شكورا لله ، وان الله سبحانه وتعالى بعثه رسولا ونذيرا (الاعراف/٦٠ ، ٦٢ ، الشعراء/١٠٦ـ١٠٧ ، هود/٢٧ ، ٣١ ، الاسراء/٣ ، المؤمنون/٢٣) .

وفي التوراة تأكيد بشرية نوح ايضا ، اذ كان رجلا وجد نعمة في عيني الرب ، وانه كان رجلا بارا كاملا في اجياله ، وان الله باركه وبنيه (التكوين/٦ : ٨ ، ٩ ، ٩ : ١ ، ٨) .

(١٨) انتشرت قصة الطوفان في معظم انحاء العالم القديم ، فالى جانب ما ذكرته النصوص المسمارية ، وهي اقدم ما ورد عن القصة مدونا ، وأسفار العهد القديم ، وجدت القصة مقتبسة في المآثر الحثية والحورية ، واليونانية والمصرية والهندية وغيرها (ينظر ، باقر ، طه ، ملحمة جلجامش ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص٤٤ـ٤٦) .

وعدت النصوص المسمارية السومرية زيو سدرا ، وهو بطل الطوفان فيها ، ملكا او ابن ملك(١٩) واكدت القصة البابلية ان اتونبشتم ، وهو بطل الطوفان الذي يقابل زيو سدرا ونوح ، لم يكن قبل الطوفان الا بشرا(٢٠). اما انراخاسيس ، بطل الطوفان في القصة البابلية الثانية ، فقد وصف بانه كان عبدا للاله انكي(٢١) ، وتتفق القصص المسمارية الثلاث على ان بطل الطوفان رفع الى مصاف الالهة بعد ان حل الطوفان واصبح من الخالدين(٢٢) .

اي ان بطل الطوفان على وفق جميع المصادر كان من البشر ، وظل كذلك حسبما يذكر القرآن الكريم ، الا انه عاش عمرا طويلا « الف سنة الا خمسين عاما » (العنكبوت / ١٤) وفي التوراة ايضا ، ايضا عاش نوح ٩٣٠ سنة ، وهي معجزة منحها الله سبحانه وتعالى الى نوح ، رسوله الى البشر ، ولا نجد ضرورة تستوجب منا التوقف لتبرير هذه المعجزة ، فلكل نبي ورسول معجزاته . ونظرا لهذا العمر الطويل الذي عاشه نوح عليه السلام ، ظن السومريون والبابليون ومن نقل اليهم الرواية اول مرة شفويا بانه عاش الى الابد وانه اصبح من الخالدين ، وهو استنتاج مفهوم ، الا ان معتقدات

(١٩) علي ، فاضل عبدالواحد ، الطوفان في المراجع المسمارية ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص١٢١ .

(٢٠) Borger, R., Babylonisch — Assyrische Lesestucke, Roma 963, III/66

(٢١) علي ، المصدر السابق ، ص١٣٩ــ١٤٠ سطر ٣٧٢ــ٣٧٣ .

(٢٢) ورد (القصة السومرية « وركع زيو سدرا امام انو وانليل ...
اللذين وهباه حياة (ابدية) مثل الالهة ،
واللذين رفعاه الى الحياة الازلية مثل الالهة »
علي ، المصدر السابق ، ص١٢٢/سطر ٢٥٤ــ٢٥٧ . وفي القصة البابلية ذكر :
« ما كان اوتنابشتم قبل الان الا بشرا
ولكن من الان سيكون اوتنابشتم وزوجته مثلنا نحن الالهة »
(المصدر نفسه ، صفحة ١٨٤ / سطر ١٩٣ ــ ١٩٤) .

القوم انذاك وما كتب عنها لا تشير الى وجود بطل الطوفان بين مجمع الالهة السومرية والبابلية وهذا ما يتناقض وقول القصص المسمارية انه كان خالدا وانه اصبح من الالهة .

اما اسم نوح ، فقد ورد في القرآن الكريم بهذه الصيغة ، وهي الصيغة الاصلية لاسمه الحقيقي بلغة قومه التي لا نعرف عنها شيئا ، شأنه في ذلك شأن اسماء معظم الرسل والانبياء التي وردت في القرآن الكريم بصيغها الاصلية مثل ادم وادريس وابراهيم ويعقوب وغيرهم ، الا ان المعاجم العربية عدت اسم نوح مشتقا من الجذر الثلاثي نوح ومنه ناح ينوح نوحا[٢٣] ، اما التوراة التي ذكرت الاسم بصيغة مقاربة ، فقدت عدت الاسم مشتقا من الجذر العبري الثلاثي نوخ بمعنى ارتاح او استقر[٢٤] .

وفي النصوص المسمارية يبدو ان الاسم الاصلي الذي يفترض ان يكون مشابها للصيغة القرآنية ، قد سقط كليا واشير الى بطل الطوفان بدلا من ذلك ببعض صفاته التي تنم شخصيته ، كطول العمر والحكمة . فالاسم السومري زيو سورا يعني « الذي اطال الحياة »[٢٥] ، في حين تعني الصيغة الاكدية المرادفة للاسم ، وهي اتو نبشتم ، « وجدت الحياة » كناية عن حصول بطل الطوفان الخلود[٢٦] . اما الصيغة البابلية الثانية ، وهي انراخاسس فيشير الى سعة فهم بطل الطوفان وحكمته حيث تعنى (الواسع في الحكمة)[٢٧] ، وهذا ما تؤكده القصة البابلية عند قولها بانه الرجل الذي استمع الى وحي اله الحكمة ايا[٢٨] .

(٢٣) ينظر مثلا ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ص٤٦٦–٤٦٨ .

(٢٤) ينظر : BDB, op, cit., Pp. 628—629.

(٢٥) علي ، فاضل علي ، المصدر السابق ، ص٣٥ ملاحظة : ٢٥ .

(٢٦) Oppenheim., L., The Assyrian Dictionary, Chicago, (CAD), Vol. N, p. 296, Vol. I, P. 518; Thompsen, The Epic of Gilgamish. P. 83.

(٢٧) CAD, Vol. H, P. 122

(٢٨) علي ، المصدر السابق ، ص٣٨ .

ويبدو لنا ان الصيغتين العربية والعبرية للاسم تؤكد ان الاسم ينتمي الى لغة جزرية شبيهة بالعربية تعتمد الجـذر الثلاثي الا انها لم تحفظ للاجيال التالية نظرا لان الكتابة لم تكن معروفة انذاك فاندثرت ولم يبق منها شيء ، وهذا ما حدث لجميع لغـات البشر السابقة لعهـد التدوين ، الا ان الكتـب المنزلة حفظت لنا عددا من اسماء الانبياء والرسل •

ولم يشر القرآن الكريم الى نسب نوح بل اشير الى والديه مرة واحدة فقط عندما استغفر لهما نوح وقال«ربّ اغفر لي والوالدي وللمؤمنين والمؤمنات» (نوح/٢٨) ، وان ما ذكر في كتب قصص الانبياء والتفاسير من اسـماء ذكرت على انها اسماء اباء واجداد نوح حتى آدم فهي مقتبسة كليا مـن التوراة[٢٩] اذ تذكر التوراة في الاصحاح الخامس من سفر التكوين مواليد آدم الى انه ولـد نوح وذكـر ان المـدة التي تفصل بين خلـق آدم وولادة نوح كانت ١٠٥٦ سنة فقط وان كان هناك اختلاف في تحديد اعمار مواليد ادم حسب التراجم المختلفـة • ويـرد في التوارة ذكر اسماء ثمانية من آبـاء واجداد نوح وهم ، بدءا من بعد آدم ، كل من شيت وانوش وقينان ومهائيل ويارد واخنـوخ ومتوشالح ولامل • واذا ما حسبت اعمـار اجداد نـوح حسبما وردت في التوراة يتبين ان آدم مات قبل ولادة نوح بمائة وست وعشرين سنة فقط • ومن الواضح ان السنوات التي خصصتها التـوراة للمدة بين خلق آدم وولادة نوح قصـيرة جدا ولا تتفق وما هـو متوافر الان من معلومات وادلة اثارية عن عمر الانسان[٣٠] • اما النصوص المسمارية ، فلم تذكر سوى ان بطل الطوفان كان ابنا لملك[٣١] في حين تذكر جداول الملوك

---

(٢٩) النجار ، عبدالوهاب ، قصص الانبياء ، بيروت ، ص٣٠ .

(٣٠) انظر مثلا : الدباغ ، تقي ، الوطن العربي في العصور الحجرية ، بغداد ، ١٩٨٨ ، علي ، عبدالقادر حسن ، انسان الكهوف في حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص٧٣ـ٩٨ ، باقر ، طه ، مقـدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ط٣ ، ص١٦٣ـ٢٠٣ .

(٣١) See, Jacobsen, Th., The Sumerian King List, Chicago, 1939, P. 74 n. 32; Lambert, W.G., Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960, P. 92—93. Jacobsen, op. cit., pp. 70—127.

السومريين ، التي عدت الطوفان حدا فاصلا بين ملوك ما قبل الطوفان وملوك ما بعد الطوفان ، اسماء ثمانية من الملوك الذين حكموا قبل الطوفان استغرق حكمهم مدة ٢٠٠ ــ ٢٤١ سنة ثم جاء الطوفان(٣٢) • ان اية مقارنة بسيطة بين ما ورد في التوراة وما ذكر في جداول الملوك السومريين يشير الى مدى تأثر احبار اليهود بالاسلوب الذي اتبعته جداول الملوك السومريين ولعل في مقدمة ذلك عدد الذين سبقوا نوحاً ، وهم ثمانية ملوك في جداول الملوك وثمانية اجداد في التوراة ، وعلى عكس ما ورد في جداول الملوك من ذكر مدد طويلة جدا لحكم كل ملك من ملوك ما قبل الطوفان ، ذكر مدونو التوراة مددا قصيرة جدا نسبيا لتغطية المدة من ادم وحتى ولادة نوح ، كما المحنا ، وواضح ان كلا المصدرين بعيدان عن الواقع وعن المنطق المقبول •

وما ذكر عن نسب نوح ينطبق على ذكر أهله وذريته • فمع ان القرآن الكريم قد اشار الى اهل نوح وذريته في اكثر من موضع الا انه لم يذكر اسم اي منهم ، حسب اسلوبه العام ، طالما لم يكن ذكر تلك الاسماء يحقق هدفا معينا (الانبياء/٧٦ ، الصافات/٧٥ــ٧٦) بل ان الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا للذين كفروا امرأة نوح(التحريم/١٠) وابن نوح (هود/٤٢)دون ذكر اسميهما • وبالمقابل ، فصلت التوراة في ذكر مواليد ابناء نوح واسمائهم وذرياتهم حتى عهد الانبياء المتأخرين (التكوين/٥ : ٣٢ ، ٦ : ١٠ ، ٩ : ١٨ــ١٩) وخصصت مدة ٨٩٠ سنة فقط للفترة بين ولادة نوح وولادة حفيده ابراهيم ، عليهما السلام • وبما ان نوحا عاش ٩٣٠ سنة ، كما نص على ذلك سفر التكوين ، فان ذلك يعني ان نوحا عاصر حفيده ابراهيم في السنوات الاربعين الاخيرة من عمره(٣٣) ويظهر دور احبار اليهود ومدوني

---

(٣٢) حول ترجمة الجداول ينظر : باقر ، طه ، المصدر السابق ، ص٢٩٠ وما بعدها .

(٣٣) النجار ، المصدر السابق ، ص٧٣ ، سوسة ، احمد ، المصدر السابق ، ص٥٠٦ وما بعدها .

التوراة في تلفيق الاحداث وتزويرها ونسبة احداث معينة الى شخصيات معينة لتحقيق اهداف اليهود عند دراسة وتحليل ما ذكره سفر التكوين عن اولاد نوح وذرياتهم . فقد ذكرت التوراة اسماء ابناء نوح الثلاثة ، سام وحام ويافث الذين انتشروا في الارض من بعد الطوفان وذكرت نسل كل من هؤلاء الابناء وعدت ساما الابن الرئيس الذي تفرعت عنه معظم اقوام الشرق الادنى القديم الذين عاشوا في بلاد الشام ووادي الرافدين . ولو اننا فرضنا جدلا صحة ما ذهبت اليه التوراة من تفاصيل ، وان لم يكن هناك ما يؤيد او يثبت ذلك بل ان المكتشفات الحديثة تثبت عكس ما ذهبت اليه التوراة ، فان دور احبار اليهود يظهر في اقصاء اسماء معينة او اضافة اسماء اخرى لنسل سام او حام بمايتفق وينسجم مع اهداف اليهود واحلامهم . فقد اقصت التوراة كنعان من نسل سام وعدته من نسل حام ، وكنعان ، كما يفترض ، هو جد الكنعانيين الذين عرفت البلاد باسمهم ، وهي ارض كنعان ، كما ورد ذلك في التوراة نفسها ، وهي الارض التي سميت فيما بعد بفلسطين[٣٤] . وان اسم ارض كنعان وحده يثبت بان الكنعانيين كانوا اول من سكنوا هذه البلاد واسسوا مدنها الرئيسة مثل اريحا وبيسان ومجدو واورشليم التي تشير اسماؤها هي الاخرى الى الحقيقة نفسها[٣٥] . وقد اثبتت الدراسات اللغوية الحديثة ان اللغة الكنعانية بفروعها المعروفة تمثل

(٣٤) عرفت فلسطين بهذا الاسم منذ هجرة الفلستيين اليها ، والفلستينيون جماعة من الاقوام الايجية فرت من وجه الهجرات اليونانية وهاجر قسم منهم الى سورية بعد اخفاقهم في النزوح الى مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد واستولت على الساحل السوري الجنوبي وكان يمتد من غزة الى جنوبي يافا ، وكان الكرمل يؤلف الحد الفاصل بينهم وبين الفينقيين الى الشمال (انظر باقر ، طه ، المقدمة ، ط٢ ، ج٢ ، ص٢٨٦–٢٨٧) .

(٣٥) انظر ، باقر ، المصدر السابق ، ص٢٤١ ، سوسة ، احمد ، المصدر السابق ، ص٣٢٣ .

فرعا رئيسا من فروع اللغات الجزرية[٣٦] انتشر المتكلمون بها في انحاء بلاد الشام وانهم كانوا على صلة وثيقة بالاقوام الاخرى التي تكلمت باللغات الجزرية الاخرى التي انتشرت في بلاد الشام ووادي الرافدين كالاراميين والاموريين في بلاد الشام والبابليين والاشوريين في وادي الرافدين • من جهة اخرى ، اضافت التوراة اسماء بعض الاقوام التي لا علاقة لها بالاقوام التي افترضت بانها من نسل سام الى نسل سام كالاقوام العيلامية والاقوام الليدية[٣٧] • كما نسبت التوراة الى كنعان قصة لا اساس لها من الصحة تسيء الى سلوكه مع ابيه الى درجة دفعت اباه ، حسبما تذكر التوراة ، الى استنزال اللعنات والدعاء بان يكون كنعان عبدا لاخوته • (تكوين / ٩ : ٢٠ـ٢٨) •

وتخلو النصوص المسمارية من اي ذكر لاهل نوح وذريته وتكتفي بان عدت بطل الطوفان وزوجته من الالهة بعد حادثة الطوفان •

ويبدو ان الاسلوب الذي اتبعه مدونو التوراة من احبار اليهود في ذكر الانساب والمواليد كان اسلوبا شائعا بين الاقوام الجزرية ومرغوبا فيه فوجد استحسانا وقبولا عند قراء التوراة من اليهود وغيرهم واكتسبت المعلومات الواردة فيها قدسية خاصة الى درجة اخذ عنها الكتاب المسلمون الذين تطرقوا الى ذكر قصص الانبياء الكثير من التفاصيل فضمنوها كتاباتهم وغدت تلك التفاصيل المقتبسة جزءا من القصص لا يفطن الى حقيقة اقتباسها وعدم دقتها الا المختصون •

---

(٣٦) انظر : الاحمد ، سامي سعيد ، المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ١٩ ــ ٢٥ . وقد استخدمنا هنا مصطلح اللغات الجزرية بديلا عن المصطلح القديم السامية ، الذي يرى معظم الباحثين العرب ، وبخاصة العراقيين منهم ، عدم دقته من الناحيتين التاريخية واللغوية . انظر باقر ، المصدر السابق ، ط٣ ، ص٦٧ـ٦٨ ، الاحمد ، المصدر السابق ، ص٣ ، سليمان ، عامر ، المصدر السابق ، ٦٤ .

(٣٧) انظر : سليمان ، المصدر نفسه ، ص٦٤ـ٦٥ .

واذا انتقلنا الى الاسباب الكامنة وراء حدوث الطوفان وجدنا تشابها واضحا في جوهر تلك الاسباب في المصادر الثلاثة وان اختلفت التفاصيل . فقد نص القرآن الكريم على ان الله سبحانه وتعالى ارسل نوحا ليدعو قومه الى عبادة الله الواحد الاحد وينذرهم من عذابه ان هم ظلوا يعبدون سواه (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين ، ان لا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم) (هود/٢٥-٢٦) ، الا انهم رفضوا دعوته وتمادوا في غيهم وضلالهم ولم يؤمن بدعوته الا نفر قليل « قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهارا ، فلم يزدهم دعائي الا فرارا واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في اذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا ، ثم اني دعوتهم جهارا ، ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا ، (نوح/٥-٩) ، ولما يئس نوح من هداية قومه على الرغم مما بشرهم به من المغفرة والنعم الكثيرة التي سينعم بها الله تعالى عليهم (نوح/١٠-١٣) ، دعا ربه ان يقضي ما هو قاض ولا يذر على الارض من الكافرين ديارا : « قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » (نوح/٢٦-٢٧) ، وكان جواب ربه ان اوحى اليه « واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون » ، (هود/٣٧) ، وهكذا بعث الله الطوفان جزاء وفاقا للذين ظلموا انفسهم وابتعدوا عن عبادة الله ورفضوا دعوة رسوله واصروا على عبادة غيره من الاوثان والاصنام (هود/٢٥-٢٦) .

وتتحدث التوراة عن اسباب الطوفان في الاصحاح السادس من سفر التكوين حيث تذكر « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الارض... اذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم اولادا . هؤلاء الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر على الارض وان كل شر تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم . فقال الرب امحوا عن وجه الارض الانسان الذي خلقته . الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لاني حزنت اني عملتهم . واما نوح فوجد نعمة في عيني الرب ....

فقال الله لنوح نهاية كل البشر قد اتت امامي لان الارض امتلأت ظلما منهم • فها انا مهلكهم مع الارض ، أصنـع لنفسك فلكا فها انا آت بطوفـان الماء على الارض لاهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء • كل ما في الارض يموت ولكن اقيم عهـدي معـك ، (تكوين/٦ : ١ــ١٣ ، ١٧ ــ ١٨) •

فالسبب الرئيس للطوفان اذن هو فساد البشر وظلمهم وطغيانهم وتزايد شرورهم ، وهذا ما يتفق مع ما ورد في القرآن الكريـم ، الا ان مدوني التوراة اقتبسـوا من النصوص المسمارية التفاصيل التي اكتنفت القصة كتزايد عدد البشر ووصف الرب بصفات لا يجوز نسبتها اليه حيث انها ذكرت بانه (حزن وتأسف على خلق الانسان وتعليمه) •

اما النصوص المسمارية السومرية والاكدية ، فاذا جردناها مما زيـد عليها من تفاصيل اضافها الرواة او ما لحق بها من زيادات تنسجم مع معتقدات القوم وقت تدوينها اول مرة ، وجدنا انها تشير باسلوبها الخاص الى ان سبب الطوفان كان للتخلص من البشر بعد ان تكاثر الناس وزاد ضجيجهم وصخبهم مما ازعج الاله حيث ذكرت تلك النصوص انه :

« لم تمض بعد الف ومئتي سنة
حتى توسعت البلاد وتكاثر الناس
واصبحت البلاد تخور مثل الثور
فانزعج الاله (انليل) من ضجيجهم
اجل لقد سمع انليل صخبهم
فقال مخاطبا الالهة العظام
لقد اصبح صخب البشر شديدا عليّ
وقد حرمني ضجيجهم من النوم
فلنأمر بالوباء ينتشر بين الناس »(٣٨)

---

(٣٨) علي ، فاضل عبدالواحد ، الطوفان ، ص٥٦ .

وهكذا امر الاله ارسال الاوبئة والامراض والاوجاع والجفاف لافناء البشر ، وعندمـا أخفقت تلك الوسائل بسبب وقـوف الاله ايـا ، كما تذكر النصوص المسمارية ، الى جانب البشر وتخليصهم كل مرة مما ارسل عليهم الاله انليل ، قرر الالـه انليل ان يبعث الطوفان لافناء البشـر على ان يؤدي جميع الالهة ، بما فيهم الاله ايـا ، القسم على ذلك :

« هيا نؤدي القسم لاحداث الطوفان »[٣٩]

وهكذا كان الطوفان بسبب ما اثاره البشر من صخب وضجيج ازعج الاله انليل ، الاله الرئيس •

وهكذا تقرر احداث الطوفان بعـد الغضب الالهي من البشر على وفـق المصادر الثلاثة •

« وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلـون • واصنع الفلك باعيننا ووحينـا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقـون » (هود/٣٧ـ٣٨) • ولما اتم نوح صنع السفينة وجاء الموعد ورأى الامارة على ابتداء الطوفان ، وهو ان يفور التنور ، حمل في السفينة ، كما امره الله تعالى اهله ومن آمن معه : « حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معـه إلا قليل » (هـود/٤١) وكـان الطوفان ، « ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر • وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر » (القمر/١٢ـ١٣) • وطافت السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال ، (هود/٤٢) ، واغرق من كان خارج السفينة ، ثم كانت نهاية الطوفان ، « وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » (هود/٤٥) •

---

(٣٩) المصدر نفسه ، ص٦٤ •

وتفصل التوراة في وصف السفينة التي اوحي الى نوح صنعها فتذكر نوع الخشب والقار ومقاسات السفينة وبابها « اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر . تجعل الفلك مساكن . وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه : ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا ارتفاعه . وتصنع كوى الفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق . وتصنع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله » (تكوين/٦ : ١٣ — ١٦) ثم تفصل في ذكر الداخلين الى السفينة من اهل نوح واسمائهم ومن الحيوانات واجناسهم : « في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث . بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم الى الفلك . هم وكل الوحوش كاجناسها وكل البهائم كاجناسها وكل الدبابات التي تدب على الارض كاجناسها ، وكل الطيور كاجناسها ، كل عصفور ، كل ذي جناح . ودخلت الى نوح ، الى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة . والداخلات دخلت ذكرا وانثى . من كل ذي جسد . كما امره الله . واغلق الرب عليه» (تكوين/٧ : ١٣—١٦) .

ثم كان الطوفان ، كما قال الرب ، بعد سبعة ايام . وقد حددت التوراة وقت حدوث الطوفان بالسنة والشهر واليوم من عمر نوح وذكرت بان الطوفان دام اربعين يوما حيث «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء » (تكوين ٧/١٠—١١) وتكاثرت المياه وارتفعت وغطت كل شيء حتى الجبال الشامخة (ومات كل ذي جسد كان يدب على الارض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزاحفات التي كانت تزحف على الارض وجميع الناس ، وتعاظمت المياه على الارض مئة وخمسين يوما » (تكوين/ ٧ : ٢٤) .

ثم هدأت المياه ، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء واستقر الفلك على جبال اراراط . وتحدد التوراة يوم استقرار الفلك بدقة وانه بعد اربعين يوما من تاريخ استقرارها بدأ نوح بارسال الغراب ومن ثم الحمامة مرة ومرتين للتأكد من انحسار المياه ، وفي يوم محدد خرج نوح ومن معه من

الفلك وقدم القرابين ، وتذكر التوارة كيف ان الله تعالى عقد ميثاقاً مع نوح وبنيه بان لا يحدث طوفانا آخر وان علامة ذلك الميثاق القوس الذي يظهر في السحاب (تكوين ٩/ : ١٢ـ١٤)

ويستنتج مما ورد في النصوص المسمارية ، ان الطوفان كان مخططا له ان يأتي على البشرية برمتها ، الا ان الاله ايا ، صديق البشر حسب معتقدات القوم انذاك ، حذر احد البشر فاوحى اليه من خلال مخاطبة الكوخ والجدار بان يبني له سفينة للخلاص من الخطر المحدق بالبشر :

« يا كوخ ! يا كوخ ! يا جدار ! ، يا جدار ! .

اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط
ايها الرجل « الشروباكي » يا ابن « اوبار ـ توتو »
قوض البيت وابن لك فلكا (سفينة)
تخل عن مالك وانشد النجاة
انبذ الملك وخلص حياتك »(٤٠)

وصدع الرجل لتنفيذ الامر وبدأ ببناء السفينة حسب المواصفات التي اوحي بها اليه ، وقد فصلت المصادر المسمارية بوصف السفينة وصناعتها ويفهم من ملحمة جلجامش انها بنيت من الخشب واستعمل القير لطلائها وغرزت مسامير من الخشب في الثقوب لمنع تسرب المياه اليها اي انها كانت « ذات الواح ودسر » في حين اشارت قصة اخرى الى استخدام القصب في بناء السفينة . وتفصل الملحمة في مقاسات السفينة وشكلها العام ويبدو مما ذكر من قياسات واوصاف انها كانت على شكل مكعب منتظم طول ضلعه ١٢٠ ذراعا (٦٠ مترا) وارتفاعه ١٢٠ ذراعا وانها كانت تتكون من

(٤٠) باقر ، طه ، ملحمة جلجامش ، المصدر السابق ، ص ١٥١ . شروباك هي آخر مدينة كانت فيها الملكية قبل الطوفان ، حسبما جاء ذلك في جداول الملوك السومريين ، و اوبال ـ توتو هو اخر الملوك الذين حكموا فيها .

سبعة طوابق وان ارتفاع كل طابق ٢٠ذراعا . ومن المحتمل ان الطوابق السبعة كانت مدرجة من حيث المساحة بحيث ان اوسعها يمثل الطابق الاسفل ، اي ١٢٠×١٢٠ ذراعا ، ثم تتناقص مساحة الطابق الثاني والثالث وهكذا حتى الطابق السابع ، وبعبارة اخرى ، ان السفينة كانت ، حسب هذا الاستنتاج ، اشبه بزقورة عائمة على سطح الماء(٤١) وبعد ان انتهى صنع السفينة واقيمت الاحتفالات اللازمة لذلك ، هرع رجل الطوفان الى تنفيذ امر الاله ايا الذي يقول :

« واحمل في السفينة بذرة كل المخلوقات الحية »(٤٢)

ثم يقول الاله ايا مخاطبا رجل الطوفان :

« ترقب الوقت المحدد الذي سوف اخبرك عنه
ثم ادخل السفينة واغلق بابها
احمل فيها شعيرك وامتعتك واموالك
وزوجتك وصاحبك وقريبك والعمال الماهرين
واني سارسل اليك حيوان السهل وكل حيوان وحشي
يأكل العشب في السهل
وانها سوف تنتظر عند بابك »(٤٣)

وبعد ان انتهى رجل الطوفان من بناء السفينة وتحميلها ، دخل فيها وغلق بابها منتظرا الساعة المحددة لبدء الطوفان ، وكان ذلك في الليلة السابعة. وقد وصفت لنا القصص المسمارية هول الطوفان الذي استمر سبعة ايام وسبع ليالٍ وقضى على كل شيء في الارض باستثناء من كان في الفلك

---

(٤١) انظر تفاصيل ذلك ، باقر ، المصدر نفسه ، ١٥٣-١٥٤ ، علي ، فاضل عبدالواحد ، المصدر السابق ، ٧٧ - ٨١ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ٧٧ .

(٤٣) علي ، فاضل عبدالواحد ، المصدر السابق ، ص٨١-٨٢ .

المشحون ، ظلام دامس ، ورعد يشق عنان السماء واعاصير مدمرة ورياح عاتية ومياه كسرت السدود واغرقت كل شيء •

وكان التدمير والهلاك الذي حل بالارض مدعاة ندم وحزن عدد من الالهة التي عرفت بحبها للبشر ، على وفق معتقدات القوم اناذاك ، مثل الاله انكي والالهة ننتو (عشتار) ،، وقد وصفت لنا القصص المسمارية ما حل بتلك الالهة من حزن وندم باسلوب ادبي رائع •

وبعد ان هدأت السماء وخفت وطأة الرياح وسكنت العواصف وانتهى الطوفان واستقرت السفينة على جبل نيسير ، عندها اطلق رجل الطوفان الحمامة ليرى فيما اذا كانت المياه قد انحسرت عن الارض ام لا وبعد ان رجعت الحمامة اطلق السنونو واخيرا اطلق الغراب الذي لم يعد لانه وجد ارضا يابسة ، عندئذ خرج رجل الطوفان ومن معه من السفينة واقام الاحتفال وقدم القرابين الى الالهة وبعد ان اجتمعت الالهة حول القرابين وجرت مناقشة حادة حول الطوفان واسبابه ونتائجه انتهت الى منح رجل الطوفان وزوجته الخلود فصاروا مثل الالهة •

ان اية مقارنة بسيطة للتفاصيل الدقيقة التي اوردتها التوراة عن السفينة وقياساتها واسلوب بنائها وعن الطوفان وموعده وعن هوله والمدة التي استغرقها وعن نهايته وعلامة ذلك لا تدع مجالا للشك بان مدوني التوراة قد اقتبسوا معظم تلك التفاصيل من القصص المسمارية واضافوها الى قصة الطوفان الاصلية التي يفترض ان ضمتها التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام • من جانب آخر يبدو واضحا من دراسة وتحليل القصة التوراتية ومقارنتها مع القصة المسمارية ان احبار اليهود اضافوا الى القصة كذلك زيادات معينة تخدم اهدافهم وتحقق احلامهم ولا سيما فيما له علاقة باولاد نوح ونسلهم الى عهد انبيائهم المتأخرين ، كما سبق المحنا ، لتثبيت حقوق مزعومة في ارض فلسطين •

ومن المهم الاشارة الى انه وعلى الرغم من تعدد قصص الطوفان في النصوص المسمارية وتفصيلها في النصوص التوراتية ومع كثرة المكتشفات الاثريةفي منطقةالشرق الادنى القديمالا انه لم يظهر حتىالان ما يناقض ما ورد في القرآن الكريم عن الطـوفان ، فجوهر القصة التي وردت في جميـع النصوص الاخرى مشابهة لما ورد في القرآن الكريم ، اما التفاصيل الكثيرة التي اكتنفت القصة في النصوص المسمارية وانتقلت الى النصوص التوراتية وكذلك التفاصيل التي اضافها احبار اليهـود عند تدوينهم اسفار التوراة اول مرة ، فانهـا لا تقـوى على المناقشة العلميـة بـل ان المكتشفات الاثريـة والاستنتاجات العلمية والمنطقية قد اثبتت بطلانها وبعدهـا عن الحقائق ، مما يشير ويؤكد ضرورة الاعتماد اولا وقبل كل شيء على ما ذكره القرآن الكريم من اخبار وقصص ورد ما يشابهها في النصوص التوراتية والمسمارية بوصفها الاخبار والقصص الصحيحة من دون زيـادة او نقصـان عندها يسهل تجريد النصوص الاخرى من الزيادات والاضافات والتحوير والتغيير احيانا والتزوير احيانا اخرى وصولا الى الحقيقة . ولسنا هنا في مجال التفصيل في اخبار الطوفان كما ورد ذلك في النصوص المسمارية اذ تمت ترجمة تلك النصوص الى معظم اللغات الحديثة ، ومنها الى اللغة العربية ، ترجمة دقيقة ومفيدة ، الا اننا اردنا الاشـارة الى التشابه الموجـود بين جوهر القصة في المصـادر الثلاث واسباب ذلك والى اوجـه الخلاف واسباب مؤكديـن دقـة ما ورد في القرآن الكريم وصحته .

وسائل وضع المصطلح العلمي في العربية

أ.د. محمد ضاري حمادي
عضو المجمع العلمي ــ بغداد
جامعة بغداد ــ كلية الآداب

من المقرر أن ترقي الانسان في درجات العلم يوصله الى مالم يكن له به من عهد سابق ، وأن هذا الجديد يفرض عليه أن يضع له ما يناسبه من التسمية . وهكذا يضع الواضع الاول ــ وهو من يصل الى الجديد ــ التسمية من لغته هو ، أما من يضع التسمية ، بعد الواضع الاول ، في لغـــة أخرى فهو الواضع الثاني . وهنا يلزم أن يجد الواضع الثاني تسمية من لغته لا من لغة الواضــع الاول ، فإن تعذر عليه الامر اضطرّ الى اقتــراض تسمية الواضـــع الاول ، وإدخالها في متن لغته ، بمقتضى لوازم الاقتراض اللغوي وشرائطه . على أن مما يلزم التنبّه عليه أن مصطلح الواضع الاول لا يوجب بالضرورة أن يكون وافيا بالمراد ، فقد يخطىء الدلالة على ما يراد الدلالة عليه ، فلا يجد الواضع الثاني مندوحة من التعويل على حقيقة المسمّى ، لا أن يشغله النظر في معنـــى مصطلح الواضع الاول عن تلك الحقيقة . يقول الدكتور جميل الملائكـــة في هذا الصدد ما نصّه : « يلزم في جميع الاحوال الاهتمام عند وضع المصطلحات بالمعنى قبل اللفظ ، مع ملاحظة أن المصطلح الاجنبي قد لا يكون في كـــل الحالات موفقا كل التوفيق في تأدية المعنى المراد به ، وقد يكون مغلوطـــا أصـــلا . »(١)

ولئن كان الاهتمام بالمفهوم أمرا جوهريا ، لقد كان الاهتمام بالتخصيص أمرا جوهريا آخر يستلزمه استقرار المصطلح واستمراره ؛ وذلك أن يكـــون لكل مفهوم مصطلح مخصوص به ، وأن يكون لكل مصطلح مفهوم مخصوص به . وقد وضع مجمـــع اللغة العربية بالقاهـــرة القرار الآتي : « الاصطلاحات

العلميّة والفنيّة والصناعيّة يجب أن يقتصر فيها على اسـم واحد خاص لكل معنى . »[٢] وأقرّ المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط في ندوته التي أقامها في شباط سنة ١٩٨١م هذا المبدأ ؛ فنصّت الفقرة الثانيـة من مقررات الندوة على ما يأتي : « وضع مصطلح واحد للمفهوم الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد »[٣] ، ونصّت الفقرة الثالثة من تلـك المقررات على ما يأتي : « تجنب تعدد الدلالات للمصطلح الواحـد في الحقل الواحد ، وتفضيل اللفظ المختص على اللفظ المشترك »[٤] . أمـا في الترادف فينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل لفظة ،، وتفضيل اللفظة التي يوحي جذرها بالمفهوم الاصلي اوضح من غيرها ، وذلك ما أقرته الندوة المذكورة.[٥]

لقد اتخذت اللغة العربية وسائل تضع بها المصطلح العلمي ، أشـهرهـا ما يأتي :

الوسيلة الاولى : النقل الدلالي : وهو وسيلة يلجأ اليها الواضع حـين لا يجد اللفظ الدال دلالة مباشرة على المعنى المقصود فلابدّ قبل اللجوء الـى النقل الدلالـي من البحث عن اللفظ العربـي المعبّر تعبيراً مباشـرا عن المراد بالمصطلح العلمي ، فاذا لم يتيسر العثور على ذلك اللفظ تولى الواضع نقـل المعنى اللغوي للفظ من الالفاظ الى المعنى العلمـي المطلـوب ؛ إذ يسـتعمل الواضع عندئذ ذلك اللفظ في غير دلالته الاصلية ؛ أي في دلالة اخرى جديدة على أن تكون بين الدلالتين علاقة ، مع قرينة تمنع من ارادة الدلالة الاصلية.

لقد أفاض علماء العربية في بيان العلاقة بين الدلالتين الاصلية والجديدة، وفصلوا القول في أوضاعها ، وبيّنوا أن تلك العلاقة إما أن تكـون المشابهة فالمجاز هنا « استعارة » وإما أن تكون غير المشابهة فالمجاز هنا « مرسـل » ويستطيع المعنيّ بوضع المصطلح العلمي في العربية الوقوف على تفصـيلات تلك العلاقة وألوانها في مظانهـّا القديمة والحديثة ولاسيما في علم البيان مـن علوم البلاغة العربية ، وفي علم الوضع من علـوم الكلمة العـربية . ومـن المناسب الاشارة هنا الى أن العلاقة إن لم تكن المشابهة (المجاز بالاستعارة) ،

فإنها تنطوي على أنواع وألوان مختلفة (المجاز المرسل) منها السببيّة والمسببيّة والكلية والجزئية ، والآليـة والمحلية ، واللازمية والملزومية والبدلية والمبدلية ، والدلالية والمدلولية والمظهرية والضدية، وغير ذلك من العلاقات.[٦]

إنّ تحقق أيّ من، العلاقات بين الدّلالتين كاف للاصطلاح وعلى هذا سجلت ندوة الرباط المشار اليها آنفا « ضرورة وجود مناسبة او مشاركة او مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي ، ولا يشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي • »[٧]

إن النقل الدلالي وسيلة وضعية حققت للعربية قديما وحديثا ثـروة هائلة من المصطلحات العلمية ، وقد أقبـل واضعو المصطلحات العلمية العربية على هذه الوسيلة فأغنتهم بما عبّروا به عن مفاهيم العلم وثمار الحضارة ، ومن ذلك آلات ظهرت في العصـر الحديث كالسيارة والقطـار والهاتف والطيارة والدبابة والغواصة والباخرة والحافلة والشاحنة والمطبعة •• وغيرها الكثـير الكثير • ولم يكن هذا النقل ليتم لو لم تتحقق العلاقة بين الدلالة الوضـعية لكل من هذه الالفاظ والدلالة الاصطلاحية لها • فالدلالة الوضعية للقطـار مثلا هي مشهد الابل حين يسير بعضها خلف بعض على نسق واحد • جـاء في معجم « لسان العرب » لابن منظور (٧١١هـ) ما نصه : « القطار : أن تقطـر الابلُ بعضها الى بعض على نسق واحد • »[٨] ولذا صحّ في العصر الحديث إطلاق « القطار » على الآلة الحديثة للعلاقة القائمة بين الدلالتين (الاصـلية والجديدة) وهي الشبه في الصورة المتمثلة بالتتابع على نسق واحـد ، وفي الغرض المتمثل بما تؤديه مجموعة الابـل تلك وما تؤديه الآلـة الحديثة ••• وهكذا لابد من تحقق العلاقة في كل لفظ نقله واضع المصطلح العلمي العربي من دلالته الاولى الى دلالته الجديدة ؛ سواء أكانت تلك العلاقة المشـابهة (المجاز بالاستعارة) أم احدى علاقات المجاز المرسل •

الوسيلة الثانية : الاشتقاق : وهو أخذ كلمة من اخرى ؛ فهو وسيلة في توليد الجديد من الكلمات • وقد عرفت العربية بأنها لغة اشتقاقية ، ومـن

هنا بذل علماء هذه اللغة عنايتهم البالغة في استقراء أقيستها . وقد وجدوا أن من تلك الأقيسة ما يطرد ولا ينقطع ، وأن منها ما ينقطع ولا يطرد . وهكذا غدا التوليد بالقياس الذي يطرد ولا ينقطع سبيلا واسعا الى ابتكار الجديد من الالفاظ . فبمقتضى خضوع الحالة لهذا القياس ـ الذي يطرد ولا ينقطع ـ نستطيع استنباط مصدر الفعل ، وفعل المصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، وأسماء التفضيل ، والزمان ، والمكان ، والآلة . ومن هنا أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارا بتكملة فروع المادة اللغوية التي لم تذكر المعجمات الا بعض ألفاظها كالمصدر ، أو الفعل ، أو أحد المشتقات الاخرى .(٩)

إنّ تسخير الأوزان القياسية في توليد المصطلحات العلمية في القديم ، وفي الحديث ، قد أثمر الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية ، عبر التاريخ حتى الوقت الحاضر ، كتلك التي ظهرت في العصر الحديث من مثل : المِحْصَد ، والمِبْذَر ، والمُتْحَف ، والمَصرِف ، والمِذْياع ، والمِنْظار ، وغيرها الكثير ... وقد يكون هناك اكثر من وزن في الباب الاشتقاقي الواحد كما هو الحال في اسم الآلة مثلا ، إذ إن أوزانه من الفعل الثلاثي هي : « مِفْعَل » و «مِفْعَلة» ، و «مِفْعال» . وقد أقرّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن هذه الأوزان الثلاثة قياسية ، فنصّ قراره على أنه «يصاغ قياسا من الفعل الثلاثي على وزن«مِفْعَل»، و«مِفْعَلة»، و«ومِفْعال»، للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء .»(١٠)، وأوصى المجمع أن يكون ذلك عند غياب المسموع من أسماء الآلات ، وهذا نصّه : « ويوصي المجمع باتباع صيغ المسموع من اسماء الآلات فاذا لم يسمع وزن منها لفعل جاز أن يصاغ من أي وزن من الاوزان الثلاثة المتقدمة »(١١) . والحق أن أوزان المسموع من أسماء الآلة والاداة كثيرة ، وقد استقرى الاستاذ محمد بهجة الاثري ذلك ، وبيّن أن تلك الاوزان لا تنحصر في الثلاثة المذكورة ، إذ منها : « فاعِل » ، و « فاعِلة » ،

و « فَعول » ، و« فَعيل » ، و« فعيلة » ، و« فاعـول » ، و« فعّالـة » ، وغيرها[١٢] ، كما بيَّن أن العرب اشتقت اسماءً للآلة والاداة من الفعل المتعدي واللازم ، والثلاثي وغيره ، ومن المصدر ومن اسم العين .[١٣]

ومن الممكن الانتفاع من هذه الظاهرة في العربية ، وذلك في تحقيق التمييز الدقيق بين مصطلح علمي وآخر في الحقل العلمي الواحد . وقد أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارا في هذا المجال ، وهو التمييز بين المصطلحات العلمية بتخصيص كل وزن من اوزان الآلة الثلاثة بحالة معينة ، وهذا نصه : « تلتزم صيغة واحدة تجري عليها كلمات الجنس الواحد ، فما يراد به الكشف وضعنا له صيغة « مِفعال » Scope ، وما يراد به القياس وضعنا له صيغة « مِفْعَل » Meter وما يراد به الرسم وضعنا له صيغة « مِفْعَلة » Graph » .[١٤] ومن الباحثين من يرى في هذا المنحى تقييدا ثقيلا لواضع المصطلح ، فقال مصطفى الشهابي : « وأعتقد أن هذا القرار يقيد المجمع ولجانه وسائر واضعي المصطلحات بقيد ثقيل . ومع هذا قرأت اخيرا مقالا لاحد اعضاء المجمع يقول فيه إن المجمع عدل عن قائمة المصطلحات التي كان وضعها على أساس هذه القواعد الثلاث . »[١٥]. والذي يراه هذا البحث هنا أن هذا القرار قد رسم القواعد بوضوح لا لبس معه ولا صعوبة ، فما يراد به الكشف فله صيغة ، وما يراد به القياس فله صيغة أخرى ، وما يراد به الرسم فله صيغة ثالثة ؛ فالأمر ميسور ، والطريق محدد . أما فائدة ذلك فهو التخصيص المميِّز ، وهو ما اتفق واضعوا المصطلحات العلمية ومستعملوها على أهميته والحاجة اليه .

ومن الباحثين من يعد النحت ـ وهو توليد كلمة من كلمتين او اكثر ، بعد تهذيب فيهما وتشذيب ـ مسلكا من مسالك الاشتقاق المفضي الى توليد الالفاظ الجديدة على نحو ما قال الاقدمون « عبشميّ » نسبة الى « عبد شمس » . وقد أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارين في شأنه الاول مقتضب والثاني فيه تفصيل ، ونصّ الاول هو : « يجوز النحت عندما تلجىء

اليه الضرورة العلمية »[16] أما نص الثاني فهو : « النحت ظاهرة لغوية احتاجت اليها اللغة قديما وحديثا • ولم يُلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات وقد وردت من هذا النوع كثرة تجيز قياسيته ، ومن ثم يجوز أن ينحت من كلمتين او اكثر اسم أو فعل عند الحاجة على ان يراعى ما أمكن استخدام الاصلي من الحروف دون الزوائد • فإن كان المنحوت اسماً اشترط أن يكون على وزن عربي ، والوصف منه باضافة ياء النسب ، وان كان فعلا كان على وزن « فَعْلَلَ» أو « تَفَعْلَلَ » ، الا اذا اقتضت غير ذلك الضرورة ،وذلك جريا على ما ورد من الكلمات المنحوتة • »[17]

والذي يراه هذا البحث أن النحت وسيلة يلجأ اليها واضع المصطلح العلمي في العربية اذا تعذر عليه الوضع بالوسائل اللغوية العربية وهي : أولا ــ الترجمة المباشرة • ثانيا ــ الترجمة المجازية (النقل الدلالي) •وقد مرّ بنا آنفا الكلام على هذين الامرين في فقرة واحدة هي « النقل الدلالي » ؛ لان النقل هذا لا يُلجأ اليه الا اذا تعذرت الترجمة المباشرة • ثالثا ــ الاشتقاق القياسي الذي مضى عرضه في هذا البحث • وعليه ، كان يلزم فيما يرى هذا البحث أن يشار في قراري مجمع اللغة العربية بالقاهرة المذكورين الى مرتبة النحت في وسائل وضع المصطلح العلمي في العربية ، وأنه يشغل هذه المرتبة المتأخرة ؛ فلا يجوز اللجوء اليه قبل الترجمة (بنوعيها المباشر والمجازي) ، والاشتقاق • هذا الى ان امرا آخر كان يلزم الاشارة اليه في موضوع النحت في العربية ، وهو موافقة الكلمة المولدة بطريقة النحت للذوق العربي ، ولجرس الكلمة العربية ونسيجها الصوتي • ولقد قلت في بحثي « النحت في العربية واستخدامه في المصطلحات العلمية » المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨٠ م ما نصه : « ولا جدال في لزوم أن يكون النحت على وفق ما عرفته اللغة العربية في الماضي من مراعاة اوزان الكلمة ، وحسن نسيجها الصوتي ،

وموافقتها الذوق وحظوتها عند الناس ، بالاستساغة والقبول .» [١٨] . ذلك أن النحت إلصاق ، وأن العربية لغة اشتقاقية ؛ فلابد من تحقق الشروط المذكورة في الكلمة المنحوتة ، ومن الاولى أن نعبّر عن المصطلح المطلوب بأكثر من كلمة واحدة على ان نعبّر عنه بكلمة منحوتة تفتقر الى أي شرط مما تقدم من تلك الشروط .

إن الاشتقاق مسلك لغوي دقيق يقتضي التأني والإتقان ، وان ما مضى من الكلام فيه إنما يخص ذلك الاشتقاق الذي يطرد قياسه ولا ينقطع ؛ فهو السبيل الى التوليد الصحيح للكلمة السليمة مبنى ومعنى . أما الاشتقاق الذي لا يطّرد قياسه بل ينقطع فلا يصح أن يكون قاعدة تسلك في ذلك التوليد ، وإلا ظهرت كلمات غريبة على الذوق ، غريبة على السمع والنطق .

الوسيلة الثالثة : الاقتراض اللغوي : وهو أن تأخذ لغة من لغة اخرى ، وذلك عام في اللغات . قال الدكتور علي القاسمي في كتابه : « مقدمة في علم المصطلح » : « وهي عملية عرفتها اللغات عموما حينما يعمد الناطقون بلغة ما الى استعارة ألفاظ من لغة اخرى عندما تدعو الحاجة الى ذلك . » [١٩] ومن الحق القول بأن فتح هذا الباب على مصراعيه من دون شرط أو ضابط يفضي في آخر المطاف الى إغراق اللغة المقترضة في بحر الدخيل . وقد استنبط علماء اللغة العربية مما فعله الفصحاء ضوابط في هذا الباب ، أظهرها أن الاقتراض إنما يكون عند الضرورة الملجئة ؛ وهي ألا يعثر من يروم وضع المصطلح العلمي على ما يؤديه من الكلمات العربية ، ثم يتعذر عليه توليد الكلمة العربية بالنقل الدلالي ، أو بالاشتقاق القياسي ، او بالنحت ، بمقتضى ما مرّ في هذا البحث من لوازم هذه الوسائل وشروطها ، فعند ذلك يلجأ الى الاقتراض اللغوي ؛ حتى اذا تقرر ذلك لزم إخضاع اللفظة المقترضة لمنهج التعريب . وبهذا نصّ قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو : « يجيز المجمع أن يستعمل بعض الالفاظ الاعجمية — عند الضرورة — على طريقة العرب في تعريبهم . » [٢٠] . فما منهج التعريب الذي اختطّه الفصحاء ، والذي يلزم أن نسير عليه ؟ إن ذلك

المنهج يقوم على أمرين جوهريين اولهما واجب ملزم ، والثاني جائز لا واجب . أما الاول فيخص الصوت وأما الثاني فيخص البناء ؛ وعلى النحو الاتي بيانه :

الاول ــ ما يخصّ الصوت : إن الكلمة الاجنبية التي يراد اقتراضها وإدخالها متن اللغة العربية عند الضرورة الملجئة التي أشير اليها آنفا ، إمّا أن تكون حروفها من حروف العربية نفسها ؛ أي ليس فيها صوت من غير اصوات العربية ، وإما أن تكون حروفها من غير حروف العربية ، وإما أن تشتمل على النوعين معا . وخلاصة هذا ان الكلمة الاجنبية إما أن تشتمل على صوت لا وجود له في العربية ، وإما ألاّ تشتمل على ذلك . فان هي اشتملت على ذلك الصوت الاجنبي كان الواجب هنا تغيير ذلك الصوت الى صوت عربي ، وهذا أمر واجب نصّ على ذلك علماء اللغة العربية في القديم . جاء في كتاب سيبويه ما نصه : « إعلم أنهم يغيّرون من الحروف الاعجمية ماليس من حروفهم البتة »[21] . وفيه أيضا : « فالبدل مطّرد في كل حرف ليس من حروفهم ؛ يبدل منه ما قرب منه من حروف الاعجمية»[22] . وهكذا ، كان الفصحاء يغيّرون أي صوت غير عربي الى صوت عربي ؛ فلزم الاقتداء بهم والاخذ بمنهجهم . قال الجواليقي : « والابدال لازم ؛ لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم »[23] . وعلى هذا يكون ما قرره مجمع اللغة العربية بالقاهرة من كتابة الاعلام الاجنبية بحسب نطقها في لغاتها الاصلية إدخالا للاصوات غير العربية في اللغة العربية[24] ، وذلك مناقض لمنهج الفصحاء في التعريب ، على ما تقدم بيانه آنفاً مع أن المجمع نفسه قد نصّ في قراره في التعريب على أن اللفظ الاجنبي الذي يجيزه المجمع عند الضرورة يستعمل « على طريقة العرب في تعريبهم » ، على ما تقدم .[25]

وقد تشتمل الكلمة الاجنبية على صوت عربي ؛ فاذا أدخلت في العربية غيّر ذلك الصوت العربي الى صوت عربي آخر . قال الجواليقي : « وليس في كلامهم زاي بعد دال إلا دخيل . من ذلك الهنداز ، والمهندز . وأبدلوا

الزاي سينا ، فقالوا : (المهندس)[٢٦] • على ان ذلك لا يتحتم في كل حال ؛ ومثاله انه « ليس في أصول أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء ؛ فاذا مرّ بك ذلك فاعلم أن ذلك الاسم معرّب ؛ نحو : نرجس ، ونرس ••• » [٢٧] وهكذا تركها الفصحاء على حالها ، فلم يبدلوا صوتا من صوت • يقول سيبويه في هذا : « وأما مالا يطّرد فيه البدل فالحرف الذي هو من حروف العرب »[٣٨]

يتضح ، إذن ، أن الابدال الصوتي في هذا الباب على نوعين ؛ أحدهما مطّرد ، وهو الذي يخص ما تخلو منه العربية من الاصوات التي في اللغات الأخرى • والاخر غير مطّرد ، وهو الذي يخص ما في العربية من الاصوات التي في اللغات الأخرى • يقول الخفاجي : « والحروف المبدلة عشرة : خمسة يطّرد إبدالها وهي الكاف والجيم والقاف والباء والفاء مما ليس في كلامهم ، وهي المخلوطة • وخمسة لا تطّرد وهي السين والشين والعين واللام والراء ، وكل حرف وافق الحروف العربية • والحاء قد تبدل من الخاء كما في حبّ ، وخبّ ، وهذا كله أغلبيّ • »[٢٩] •

الثاني ــ ما يخص البناء : من الكلمات الاجنبية ما يوافق بناؤه بناء الكلمة العربية ، ومنها مالا يوافق • اما الاول فلا إشكال فيه ؛ إذ هو باق على بنائه ، وأما الثاني فان الفصحاء قد يخضعونه لبناء الكلمة العربية ، وقد لا يخضعونه • قال سيبويه : « فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه • »[٣٠] • وواضح أن هذا الالحاق يقتضي تغييرا في البنية اللغوية ، من الزيادة والحذف وغيرهما ، ولكن الفصحاء قد يفعلون ذلك فيما لم يلحقوه ببناء كلامهم ايضا • وقد يتركون الكلمة الاجنبية على حالها ، سواء أعلى بنائهم كانت أم لم تكن ؛ وذلك اذا كانت تلك الكلمة ذات حروف من حروفهم •[٣١]

وقد بيّن سيبويه أن الفصحاء حين يُلحقون إنما يفعلون ذلك على غرار إلحاقهم كلمة عربية ببناء كلمة عربية أخرى ، على ماهو معروف في علم

الصرف العربي ، فقال : « لمّا ارادوا ان يعرّبوه ألحقوه ببناء كلامهم ، كما يلحقون الحروف بالحروف العربية . »[٣٢] وعليه ، يحاول المعرّب إلحاق الكلمة الاجنبية ببناء الكلمة العربية ، فان تعذر ذلك حاول جعلها على بناء يقارب بناء الكلمة العربية ، فان تعذر ذلك تركها على هيئتها الاصلية .[٣٣]

لقد واجهت العربية قضية المصطلح العلمي ، عبر التاريخ ، مواجهة برهنت فيها على قدرتها العالية في توليد الالفاظ المعبرة عن المعاني الجديدة وفي نقل دلالات الالفاظ الى ما يبتغيه المصطلح العلمي ، وفي اعتماد منهج علمي دقيق في الاقتراض اللغوي . وقد شهد العصر الحديث وضع ثروة هائلة من المصطلحات العلمية العربية بالوسائل نفسها ؛ تلك التي وضع بها علماؤنا الماضون مصطلحات العلوم والفنون والآداب .

إن اللغة العربية مستمرة بهذه المواجهة وسط موجات المصطلح العلمي الحديث ، وسيوله الدّفّاقة ؛ ذلك أن للعربية مناهجها الراسخة ، وقدراتها الكاملة ، وطاقاتها الكامنة ، التي تجعلها وافية بما يراد منها ، معبّرة ، مصوّرة في العصر الحديث ، وفي العصور اللاحقة .

* * *

الهوامش والمصادر

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي : مج (٢٤) ـ ص (١٠) .

(٢) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث (مجموعة القرارات العلمية من الدورة الاولى الى الدورة الثامنة والعشرين) : اخراج : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد شوقي أمين [القاهرة (مجمع اللغة العربية) ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م] : ص (١٤١) .

(٣) ، (٤) : مقدمة في علم المصطلح : د. علي القاسمي . [بغداد (دار الحرية للطباعة) ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م (نشرته « الموسوعة الصغيرة » الصادرة عن دار الشؤون الثقافية والنشر) .] : ص (١٠٨) .

(٥) مقدمة في علم المصطلح : ص (١١٠ـ١١١) في الفقرتين : (١٣) ، و(١٥) .

(٦) ينظر : مفتاح العلوم : السكاكي [القاهرة (مطبعة مصطفى البابي الحلبي] ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م ـ ط (١)] : ص (١٦٨ ـ فما بعدها) ، وشرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان : السيوطي [القاهرة (دار احياء الكتب العربية) د.ت] : ص (٩١ ـ فما بعدها) .

(٧) مقدمة في علم المصطلح : ص (١٠٧) .

(٨) لسان العرب : ابن منظور [بيروت (دار صادر) ١٣٧٥ ـ ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦م] : مادة « ق ط ر » .

(٩) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث : ص (١٨ ـ ٢٠) .
أشار المجمع في ختام قراره الى انه ان سمع عن العرب ما يخالف هذا القياس « عملنا بالمسموع فقط ، أو عملنا بالمسموع او القياس » . ونرى ، في هذه الحالة ، الاخذ بالمسموع فقط ؛ لان السماع اذا ورد يبطل القياس .
ينظر : حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث : د. محمد ضاري حمادي) [بغداد (دار الرشيد ـ بوزارة الثقافة والاعلام) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م] : ص (٢٧٥) .

(١٠) ، (١١) : مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث : ص (٣٤) .

(١٢) ، (١٣) : ينظر : حركة التعريب في العراق : د. احمد مطلوب [بغداد (معهد البحوث والدراسات العربية ـ بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م] : ص (١٧٩ـ١٨٢) .

(١٤) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث : ص (٧٠) .

(١٥) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث : مصطفى الشهابي [دمشق (مطبعة الترقي) ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م ـ ط٢]: ص (٧٦) .

(١٦) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث : ص (٩) .

(١٧) كتاب في اصول اللغة : اخراج : محمد خلف الله احمد ، ومحمد شوقي امين [القاهرة (مجمع اللغة العربية) ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م] : ص (٤٩) .

(١٨) مجلة المجمع العلمي العراقي : مج (٣١) ـ ج (٢) ـ ص (١٨٧) .

(١٩) مقدمة في علم المصطلح : ص (١٠٠) .

(٢٠) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث : ص (٨٣).

(٢١) ، (٢٢) : كتاب سيبويه [تحـ : عبدالسلام محمد هارون . القاهرة (الهيئة العامة المصرية للكتاب) ١٣٨٥ـ١٣٩٧هـ/١٩٦٦ـ١٩٧٧م] : ٣٠٣/٤ ، ٣٠٦/٤ .

(٢٣) المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم : الجواليقي [تحـ : احمد محمد شاكر . القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ـ ط ٢] : ص (٥٤) .

(٢٤) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : القسم الثالث : ص (٩٥ ـ فما بعدها) .

(٢٥) ينظر : الهامش العشرون .

(٢٦) ، (٢٧) : المعرب : ص (٥٩) .

(٢٨) كتاب سيبويه : ٣٠٦/٤ .

(٢٩) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من المعرب والدخيل : الخفاجي [تحـ : محمد عبدالمنعم خفاجي . القاهرة (المطبعة المنيرية) ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ـ ط١] : ص (٢٥) .

(٣٠) ، (٣١) ، (٣٢) : كتاب سيبويه : ٣٠٣/٤ ، ٣٠٤/٤ ، ٣٠٤/٤ .

(٣٣) اصطلح مجمع اللغة العربية بالقاهرة على ما جاء من المعرب في معجمه الوسيط بالرمز (مع) ، ويدل على « اللفظ الاجنبي الذي غيره العرب بالنقص ، او الزيادة ، او القلب » واصطلح على ما جاء من الدخيل في المعجم المذكور بالرمز (د) ، ويدل على « اللفظ الاجنبي الذي دخل العربية دون تغيير » . ينظر : المعجم الوسيط : اخراج : أبراهيم مصطفى واخرين . [القاهرة (مجمع اللغة العربية) ١٣٨٠ـ١٣٨١هـ/١٩٦٠ ـ ١٩٦١م] : ص (١٤) من التقديم .

القـرآن الـكريم مفتـاح للبحث العلمي لعـلم العمـارة ونظرياتها

حفصة رمـزي العمـري
المدرسة في كلية الهندسة
جامعة بغـداد

المقـــدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين الذي لا اله الا هو والصلاة والسلام على محمد رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وعلى اله وصحبه •

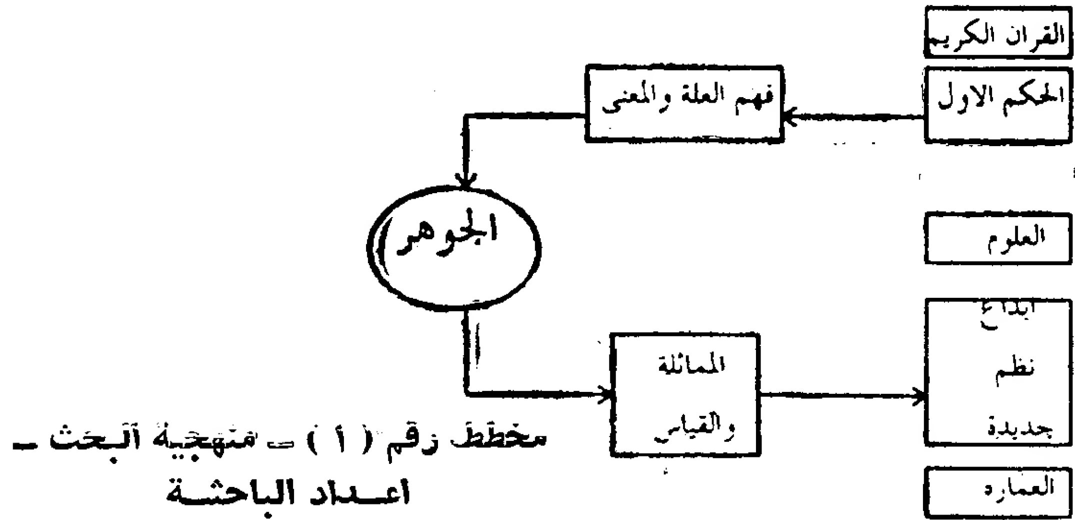
ان لكل حضارة من الحضارات تصوراً وفكراً سائداً يفهم على وفقه له كل شيء وهو الذي يحدد معالم هذه الحضارة ويملي منهجيتها والذي تعبر عنه نتاجات الانسان المتنوعة ومنها العمارة التي تفهم كاحدى مواضيع المعرفة الانسانية وكظاهرة حضارية تتكون من حقل نظري متأت من تطور الفكر البشري الذي تكون فيه العمارة موضوعا تجري معرفته وتطـوره الـذاتي بالفكر ، وحقـلا عمليا يمثل تطبيقـات لهذا الفكر وانتقالاً من المجـرد الى العيني ، وهنالك دائما وحدة بين الفكر والتطبيق وكلاهما يدعم الآخر •

ولقد تميزت العمارة الاسلامية بخصائص اعطتها هوية ميزتها عن باقي الحضارات وان تحقيق الهوية والخصوصية يتطلب الموائمة بين عدة بنيات (بنية الوجود الانساني ، بنية الوجود المكاني ، واخيرا تأثير عامل الزمان) وهي عملية تواصل مستمرة بين الماضي والحاضر والمستقبل حيث ذهب اليه كثير من منظري العمارة الى اعتبارها احدى الظواهر الحضـارية المتسـمة بالشمولية • ومما لاشك فيه ان الفكر والفلسفة والمعتقد هي احدى العوامل

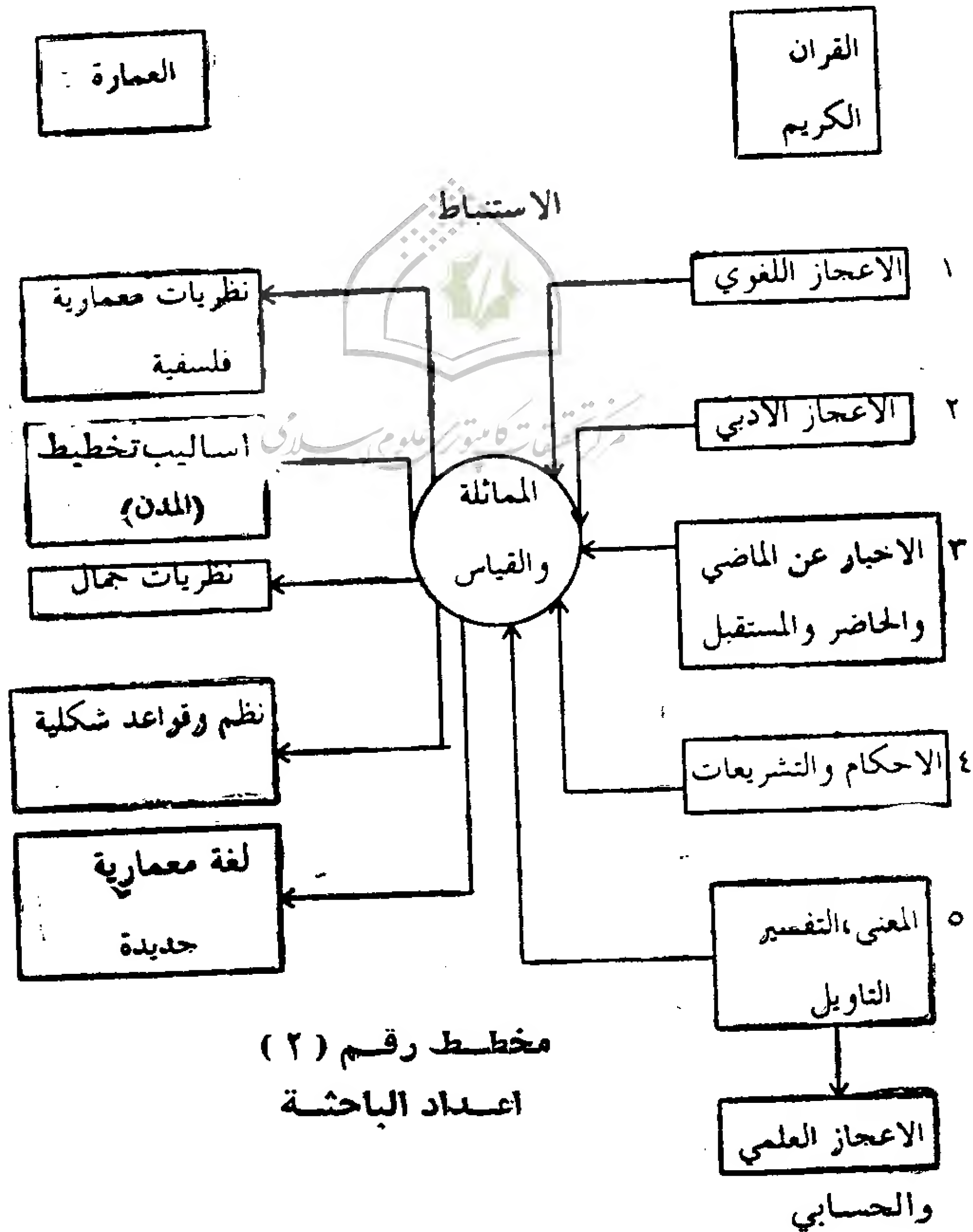
المهمة والاساسية التي اسهمت في تحقيق هوية مشتركة للعمارة الاسلامية على الرغم من امتدادها على ارض شاسعة لهـا ظروف بيئية وطبيعية وثقافيـة وحضارية مختلفة ولفترات زمنية طويلة .

ان تحقيق الهوية كان ولا يزال احد المحددات الاساسية التي تشغل فكر كل معماري عربي ومسلم وايمانا باهمية الموضوع الذي يحتاج الى المزيد من البحوث فاننا في هذا البحث تتناول احد المحددات المهمة لتحقيق الهوية وهو الفكر الاسلامي ومما لاشك فيه ان القرآن الكريم هو المنبع الاصيل للفكر الاسلامي ، وهو البحر المحيط الذي تتشبع منه علوم الاولين والاخرين كما ذهب الى ذلك العديد من العلمـاء امثال الكندي والتوحيدي والغزالي والرازي وغيرهم من علماء المسلمين الاوائل والمتأخرين فقد قـال الزركشي « كل من كان حظه في العـلوم اوفر كان نصيبه في علم القـرآن أكثر » . وتستند فرضية البحث الى ان القرآن الكريم وأعجازه مفتـاح للبحث العلمي لعلم العمارة ونظرياتها . ويهدف البحث الى ايضاح سبل المماثلة بين علوم القرآن واعجازه وبين العمارة والذي يعـين في استنباط نظـريات معمارية فلسفية وعلمية تحقق السبق العلمي وتؤكد الاعجاز القرآني وتذكر بعظمة الله ونعمه على عباده المؤمنين . قال تعالى « سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » (فصلت ٥٣) . وبذلك يستند المنهج الى مفهوم المماثلة والقياس بين العمارة وعلوم القرآن الـكريم (مخطط رقم ١) .

ونظراً لان موضوع الاعجاز القرآني قد يكون بعيداً عن تصور العديد من المعماريين فقد قسم البحث الى بابين اساسيين الباب الاول يضم المدخل والتعريف بالاعجاز القرآني ثم انواع الاعجاز القرآني . ويضم الباب الثاني المماثلة والقياس والعمارة وسبل الاستنباط والاستدلال من القرآن الكريم .



مخطط رقم (أ) – منهجية البحث –
اعـداد الباحثـة



مخطـط رقـم (٢)
اعـداد الباحثـة

ونعتذر من الاطالة في الباب الاول حيث نعتقد بأهميته ولا سيما بعد كثرة دراسة المناهج الفلسفية الغربية في اقسام العمارة في الجامعات والتأثر بها من غير العودة الى المنهج الفكري الذي خص به الله عز وجل العرب والمسلمين ليكونوا خير امة اخرجت للناس والتي تحميهم من التخبط بالمناهج والسبل •

فان وفقت لذلك فأجره على الله تعالى وحده ، وان اخطأت فأسال الله تعالى التوبة والمغفرة والحمد لله كثيرا •

البـاب الاول

١ ـ المدخــــــل :

ان القرآن الكريم هو مشكاة الهداية ومركز الاشعاع الذي يفيض بالنور على وجه الزمن ويهدي الى ما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ، لم يترك ناحية من نواحي الحياة الانسانية دينية كانت ام دنيوية الا أنار فيها السبيل وارشد فيها ، الى اقوم الطرق واحسن المناهج ، قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (النحل ٨٩) « وانزلنا اليكم نوراً مبيناً » (النساء ١٧٤)[٢] •

ولقد ترك الله عز وجل اكتشاف اعجاز القرآن في شتى النواحي للازمان والقرون مصداق ذلك قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » • فان حرف السين في لفظ سنريهم تفيد المستقبل والمستقبل يستمر ، كلما أنقرض جيل يأتي جيل بعده ، وهكذا الى قيام الساعة فيكون عطاء القرآن متجدداً[٣]• قال عز وجل « بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد باياتنا الا الظالمون » (العنكبوت ٤٩) ، والاية هي العلامة والحجة وقد تكون الاية برهاناً علمياً يعجز المبطلون عن معارضته وقد تكون برهاناً روحياً يعجزون عن مقاومته وقد تكون برهانا مادياً يبهت الحواس قبل العقول والارواح

مثل عصا موسى عليه السلام ، ولحكمة ربانية سمي كل مقطع في القرآن الكريم بآية • ونلحظ ان القرآن الكريم استعمل لفظ (آية) ، غير ان اصطلاح المتكلمين المسلمين جرى على لفظ (المعجزة) • ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانية لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن(٤) •

٢ ـ اعجاز القرآن الكريم :

تبين لنا مما سبق ان القرآن الكريم يتسم بالشمولية ، وهي من اعجازه ، وقد تناول اعجاز القرآن الكريم العديد من العلماء والمفسرين والفقهاء واللغويين والعلماء وتنوعت وجهاتهم • فقد قال السيوطي في اعجاز القرآن (المعجزة امر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة ، وهي اما حسية واما عقلية • واكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم • واكثر معجزات هذه الامة عقلية لفرط ذكائهم وكمال افهامهم• ولان هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذو البصائر(٥) •

واورد الحداد في كتابه (نظم القرآن الكريم ، الجزء الاول « اعجاز القرآن ») العديد من الاوجه التي توصل اليها العلماء والمفسرون والتي اخذ بها من كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي(٦) • ويمكننا ان نقول في مسائل الاعجاز القرآني (بما له علاقة بموضوع البحث) ما يأتي :

١ ـ الاعجاز اللغوي (البلاغة ، الفصاحة ، البيان ، البديع ، ••••) •

٢ ـ الاعجاز الادبي (النظم ، الاسلوب ومخاطبة النفس البشرية) •

٣ ـ الاعجاز في الاخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل (التنبوء) •

٤ ـ الاعجاز في الاحكام والتشريع •

٥ ـ الاعجاز في المعنى (التفسير والتأويل والاستنباط) • والذي يمكن ان نقول فيه :

٥ـ١ الاعجاز العلمي والحسابي .

ولا نقول ذلك حصرا وانما قد يتم التوصل الى كثير من المسائل الحديثة والمستقبلية والمواكبة لكل زمان ... (والله اعلم) .

٣ ـ انواع الاعجاز القرآني :

٣ ـ ١ ـ الاعجاز اللغوي :

لقد توجه علماء العرب القدامى مثل عبدالقاهر الجرجاني ويحيى بن حمزة وغيرهم من الكتاب والبلاغيين والنقاد لدراسة الاعجاز اللغوي ، فقد وجدوا في القرآن وما لم يجدوه في كلام العرب ..[٧] .

وقد اورد كثير من العلماء المسلمين عددا من الاعجازات اللغوية للقرآن الكريم ونرى هنا انه من الفائدة ذكر بعضها والتي تفيد المعماري في القياس عليها ، (كما سيتم توضيحه) ، ونورد منها :

٣ ـ ١ ـ ١ ـ البيان :

يضم البيان المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض والحصر والاختصاص والايجاز والاطناب وغيرها من الوجوه . ويعد المجاز أصل البيان والبديع والبلاغة ، حيث لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن وهو كل لفظ بقي على موضوعه وهو اكثر الكلام اما المجاز فهو ابلغ من الحقيقة كقوله تعالى: « كلا انها لظى نزاعة للشوى تدعو .. » فالدعاء من النار مجاز . أما التشبيه فهو اخراج الاغمض الى الاظهر ، والغرض منه تأنيس النفس باخراجها من خفي الى جلي . أما الاستعارة فهي مجاز علاقته المشابهة وقيل هي مجاز عقلي ، وحكمة الاستعارة اظهار الخفي ، وايضاح الذي ليس بجلي وهو انواع مثل : « وفجرنا الارض عيوناً » وهي المبالغة .

٣ ـ ١ ـ ٢ ـ البديع في القرآن :

البديع علم وفن في محسنات الكلام اللفظية والمعنوية لذلك فهو يشترك في الكثير من اشكاله مع فن البيان ويقتصرون في البيان على اوجه المجاز

والاستعارة والتشبيه ، ويتركون سائر الوجوه عادة للمحسنات اللفظية في البديع ، ذكر منها الحداد ١٦٨ نوعا ، نورد منها : التجريد ، والانسجام ، والائتلاف ، والاستثناء ، والابدال ، والتعديد ، والجمع ، والمؤتلف والمختلف ، والمبالغة ، والافراط ، والطباق ، والمقابلة ، والبراعة في الاستهلاك وائتلاف الفاصلة مع الآية ، والتكرار والاتساع والمقارنة والمناقضة والانفصال وحسن الختام[٨] •

٣ ـ ٢ ـ الاعجاز الادبي :

شكل الاعجاز اللغوي بداية التوجه الحديث نحو الاعجاز الادبي الا ان بداياته الاولى كانت في العديد من الكتب القديمة ولعل الزمخشري من أشهر المفسرين اهتماما بالبلاغة والتفسير الادبي ويكاد كشافه يكون عمدة هذا الاتجاه والذي يعني بايصال كلمات القرآن وعباراته الى القلوب قبل ايصالها الى الآذان وفي هذا خير عظيم لايعرفه الا من تذوق القرآن وأدرك ما فيه من حكمة بالغة وقول فصل •

وقد ذكر الدكتور أحمد مطلوب كثيرا من المفسرين المتوجهين بهذا الاتجاه ، منهم قول الاستاذ محمد الذهبي بأن التفسير في هذا العصر يتلون باللون الادبي الاجتماعي[٩] • ويرى سيد قطب في كتابه التصوير الفني للقرآن ، ان المفسرين الاوائل لم يبحثوا الجمال الفني في القرآن وتناسقه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال فخرجوا في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وتاريخية وأسطورية وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهيئة للمفسرين لرسم صور واضحة للجمال الفني للقرآن • ويفسر كثيرا من آيات القرآن الكريم على وفق هذا التصور بشكل رائع • وهو بهذا يعالج النواحي الحسية والنفسية والفنية والذوقية الجمالية للقرآن[١٠] •

٣ ـ ٣ ـ الاعجاز بالاخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل : (الغيوب)

(وهي من معجزات القرآن العظيم • ما تضمنه من اخبار عن قصص

الاولين حكاية من شهدها وحضرها • وما فيه من الاخبار عن الغيوب المستقبلية التي وقع بعضها في زمن الرسول (ص) • ولا يزال الكثير منها مستمر بالاخبار عن المستقبل) حيث يقول الدكتور عمادالدين خليل ، في القرآن تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل وهو امتداد وجداني لمساحة واسعة[11] • وقد أورد بعض العلماء العلوم الكونية والطبيعية ضمن هذا الباب ، فضلا عن الاحداث والاخبار •

٣ ـ ٤ ـ الاعجاز في الاحكام والتشريع :

جاء القرآن كتاب هداية لانقاذ البشر من الضلال حيث يتناول بتفصيل معجز علاقة الانسان بربه وعلاقة الانسان بالانسان ويتجه الاسلام الى الواقعية المثالية ليحقق مجتمعا علميا متطورا ومثاليا في منهجه واخلاقه •

وقد حمل القرآن الكريم والدين الاسلامي اتجاهين رئيسين :

٣ـ٤ـ١ـ الاتجاه الاول المتضمن لعقيدة التوحيد وعبادة الله عز وجل وتحديد العلاقة بين الانسان والخالق • وقد اعتبر سيد قطب التوحيد المفهوم الاول للتصور الاسلامي ، ان التصور الاسلامي هو الوحيد الذي بقي قائما على اساس التوحيد الكامل الخالص خلافا عن باقي الاديان والعقائد • فالله سبحانه وتعالى واحد في ذاته متفرد في خصائصه « ليس كمثله شيء » (الشورى ١١) ، « فلا تضربوا لله الامثال » (النحل ٧٤) انه تحرير الانسان من العبودية للعباد يحقق الثبات والتوازن في حياة المسلم يمنعه من التخبط في الافكار « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (الروم ٣٠) حيث يجد المسلم العديد من صور التوازن ، بين عالم المادة وعالم الروح ، بين فاعلية الانسان وفاعلية الكون • محققا الايجابية والواقعية فالدين الاسلامي دين ايجابي يدعو الى العلم والعمل فوجود الانسان على الارض يقتضيه حركة وعمل في ذات نفسه وفي الآخرين من حوله فهو دين للحياة والواقع •

٣ـ٤ـ٢ـ الاتجاه الثاني : وقوف التصور الاسلامي على قاعدة التوحيد فالله هو الخالق المبدع المهيمن المدبر والكون والانسان من ابداع الله وبينهما تفاعل وتناسق ، والانسان مسلط على المادة يبدع فيها ينشيء ويطور ويغير ويظهر اسرارها • وان خلافة الانسان في الارض استلزمت الاحكام والتشريعات الموجهة لسلوكه فردا وجماعة مما تمكنه من اقامة حضارة تكرم الانسان وتوحد الله وتعم فيها المثالية والقيم الاخلاقية التي تحدد طبيعة العلاقات الانسانية ، المسلمين مع غيرهم ، المسلمين فيما بينهم ، فسادت بذلك كثير من المفاهيم والمضامين الاجتماعية التي أدت دورا مهما وأساسيا في تخطيط المدينة الاسلامية والعمارة الاسلامية وتصميمها منها :

١ ـ مفهوم الوسطية : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (البقرة ١٤٣) وعن الرسول (ص) « خير الامور اوسطها » •

٢ ـ المساواة : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » (النساء ١٣٥) • وعن الرسول (ص) « المسلمون سواسية كأسنان المشط » •

٣ ـ البساطة : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا أخذ ايسرهما ما لم يكن اثما » •

٤ ـ التواضع : « والله لا يحب كل مختال فخور » (الحديد ٢٣) •

٥ ـ عدم الاسراف : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين » • مع اظهار النعمة •

٦ ـ الاحساس بالجمال : « من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الاعراف ٣٢) •

٧ ـ التكافل الاجتماعي : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (الحشر ٩) • والمثالية في الاخلاق •

٨ ـ الخصوصية (العزل البصري) •

٩ ـ التجريد وكراهية التصوير •

١٠ ـ الحقوق الاجتماعية : حق الطريق ، حق الجيرة ، حق الماء ، وسلامة البيئة ، وسيادة مبدأ « لا ضرر ولا ضرار » •

٣ ـ ٥ ـ الاعجاز في المعنى (التفسير والتأويل والاستنباط) :

ان أصل الوقوف على معاني القرآن هو التفكر والتدبر ويتوقف على معرفة تفسيره وتأويله ومعناه • قال ابن فارس : معاني العبارات التي يعبر بها عن الاشياء ترجع الى ثلاثة ، المعنى والتفسير والتأويل ، فأما المعنى فهو القصد والمراد ، والتفسير هو الاظهار والكشف ، أما التأويل فأصله من المآل وهو العاقبة والمصير ، فكان التأويل صرف الاية الى ما تحمله من المعاني[١٢] •

ويقول الزركشي بأن الاعجاز يكون في اللفظ والمعنى والملاءمة (النظم والتأليف) • وان في القرآن علم الاولين والآخرين وما من شيء الا ويمكن استخراجه منه[١٣] • وقد أوضح الامام الغزالي في كتابه « جواهر القرآن » أهمية التفسير والتأويل حيث بين بأن جواهر القرآن لها أصداف والصدف هو أول ما يظهر ، فصدف القرآن وكسوته اللغة العربية وعلومها والتي تراد للتفسير ، وينهي بعلم أصول الفقه وهو ضبط قوانين الاستدلال بالآيات والاخبار على احكام الشريعة[١٤] •

ان توجه العلماء الى التفسير والتأويل والاستنباط والاستدلال من آيات وسور القرآن الكريم هي التي قادت الى أظهار الاعجاز العلمي والاعجاز الحسابي للقرآن الكريم التي ستظهر المزيد من العلوم والمعارف بأذن الله ••• •

٣ ـ ٥ ـ ١ ـ الاعجاز العلمي :

لقد حث الله عز وجل على العلم والتعلم وبين أهمية العلماء وتفضيل آدم على الملائكة بالعلم وأستحباب الرحلة لطلب العلم ، كما حث على تعلم عدد السنين والحساب[١٥] . ومشروعية الاستنباط « ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .. » (النساء ٨٣) .

بين كثير من العلماء القدامى بأن القرآن الكريم حوى مفاتيح كل علوم الدنيا والدين وكان منهما وما يكون الى يوم القيامة ، وكان من أبرزهم الامام الغزالي الذي أكد في كتابه « احياء علوم الدين » : بل كل ما اشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ، وفي القرآن اليه رموز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها » ثم يمضي في كتابه « جواهر القرآن » فيقرر هذا الرأي حيث يعقد الفصل الخامس منه بكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن .

ثم يأتي جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ، ويقرر في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » وفي كتابه « الاكليل في استنباط التنزيل » ما قدره الغزالي ، من ان القرآن قد حوى كل علوم الاولين والآخرين ، (وهو ما ايده الزركشي) كما بينا ، ويسوق من الادلة على ذلك قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (الانعام ٣٨) وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (النحل ٨٩) ثم تكلم عن العلوم التي تفرعت عن القرآن من علم القراءات ..... الى علم الهندسة والجبر وغيرها ...) وفيه أصول الصنائع وأسماء الالات[١٦] . ويؤيد ذلك الرازي في اهتمامه بالمسائل العلمية والظواهر الفلكية فيوسع معاني الاستدلالات القرآنية[١٧] .

ومعنى الاعجاز العلمي كما قرره الشيخ عبدالمجيد الزنداني في كتابه « تأصيل الاعجاز في القرآن والسنة » بأنه « اخبار القرآن الكريم بحقيقة علمية اثبتتها العلم التجريبي وثبت عدم امكانية ادراكها بالوسائل البشرية في

زمن الرسول (ص) »[١٨] • وقد أورد مؤلفا كتاب الموضوعات الطبية في القرآن الكريم المقاصد الاتية من استدلال القرآن الكريم بالموضوعات الطبيعية :ـ

١ ـ اظهار قدرة الخالق عز وجل والتفكير بعظمته سبحانه وتعالى وبيان نعمه الكثيرة على عباده •

٢ ـ تنبيه العقول للتفكر والتدبر والنظر والاستنباط (البحث والسبق العلمي) • وبالاسلوب الذي يلائم جميع الاجيال وحسب المستوى العلمي لكل جيل ، وبيان الاعجاز العلمي وتعزيز معاني واركان الآيات (كالايمان بالله واليوم الآخر) •

ونجد ان القرآن الكريم سبق عصر العلم والعلماء باعجازه العلمي بأربعة عشر قرنا من الزمان ، في خلق الانسان والطبيعة والكون ، وكلما وصل العلم الى حقيقة مستقبلا •• وجد ان القرآن سبقه اليها وسبق قوله بها[١٩] • ولقد أنكشفت للمسلم آفاق جديدة في اعجاز القرآن الكريم وهي الاعجاز العددي الحسابي في الرسم العثماني حيث اتجهت كثير من البحوث الحديثة نحو هذا الباب الجديد الذي يفتح آفاقا جديدة مواكبة لعصر الاتصالات والحسابات (الكومبيوتر)[٢٠]•

الباب الثاني

١ ـ المماثلة والقياس والعمارة :

ان الله هو الخالق البارىء المصور وهو الذي يستطيع الايجاد من العدم• أما الانسان فأنه لا يبدع من غير مادة وجودية ، التي هي الاساس التي يستند اليها فعل الانسان وعليه يجري عملياته الذهنية ، من تركيب وتفكيك وهي عامة في كل الفعل الانساني ، الا أن الفعل الابداعي يتميز بالقدرة على المماثلة ، حيث يقول ابن تيمية « ان أصل العلوم العقلية والنظرية اعتبار

الشـيء بمثلـه »[٢١] . واسـاس انـواع المماثلـة هـو المجـاز ، اي الاستعمال المجازي للافكار ، والمجاز يقوم بربط شيئين مختلفين او حتى غير مترابطين . او قد تكون المماثلة تشبيه ، ويقول الجرجاني « الاستعارة ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل » . ويقول الجابري « بنية التشبيه (المماثلة) هي نفسها بنية القياس »[٢٢] .

القياس في اللغة هو تقدير شيء على مثال شيء آخـر وتسويتـه به (١٧ — ص ١٣٧) . وهو اساس الفعل العقلي والذهني ، وهو استخراج لعلاقات موجودة اصلا بصورة كامنة ولذلك يطلـق عليـه بالاستنباط او الاستدراج ، اي استخراج المعرفة من الاصل ، فالقياس اذن اظهار لعـلاقة وليس ايجادها من العدم ، وهو تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به . واركان القياس في التشريع الاسلامي اربعة هي الاصل والفرع والعـلة والحـكم .

فمثلا في قياس التمثيل نقول بين رأس الانسـان وجسده (الاصل) مفصل (رقبة) والعلة كونهما جزءين مختلفين ، لذلك فأن الحكم وجـود (مفصل) ينقل الى الفرع (بدن العمود والجسر)[٢٣] .

والقياس هو اساس كل ابداع علمي وفني ويقوم على اساس الجمع بين المتشابهات والتفريق بين المختلفات والمبنيات على وجود علة مشتركة بين الاصل والفرع . والقياس الاسلامي ينتقل الى القياس والمماثلة المعمارية .

ونورد رأي الفاروقي الذي يرى أن القرآن الكريم مصـدر اساسي للتأثير على تكون الفنون الاسلامية حيث يرى بأن تأثير القرآن الكريم على الفنون يكون من خلال ثلاثة مستويات .

المستوى الاول : القرآن مصدر للتوحيـد ، وان الرسالـة الاسلامية تعبر عن التوحيد ، واشار الى ان صفات التعبير الجمالي عن التوحيد هي

اللانهائية والكمال وتم هذا في الفن من خلال التجريد والبنية القياسية والربط المتتابع والتكرار والحركة الدايناميكية (مفهوم الزمان والمكان في الفن) واخيرا التعقيد .

المستوى الثاني : ان شكل القرآن الكريم هو شكل فنـي ، مكـون من السور والآيـات ، يعبـر عن اللانهائية في النسق للفن الاسلامي والذي يعبر عنها الاعجاز القرآني في اللفظ والتشكيل وطرح المعاني والقيم والقصص معبرا عن الخصائص الستة السابقة :

اما المستوى الثالث : فهـو كـون القرآن مثل فن ايقونـي ، حيث لم يعط الفن العقائدية (الايديولوجية) والمحتوى والشكل فقط وانما اعطاها المادة فأصبح هو المادة المستخدمة في فن جديد وهو فن الكتابة الاسلامية المميز للعمارة الاسلامية(٢٤) .

ونعتقد ان كل اوجه الاعجاز القرآني السابقة الذكر تمثل اوجها للمماثلة والقياس مع العمارة وتمكن من استنباط نظريات وعلوم معمارية حديثة . حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبـار قصمه الله تعالى . ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله . وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم . وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة السرد ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولم نشرك بربنا احدا » . ومن قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعى اليه هدى الى صراط مستقيم) . رواه وصححه الترمذي عن الحارث الاعـور عـن علي رضي الله عنه .

٢ ـ المماثلة بين الاعجاز اللغوي والعمارة :

تمثل اللغة احدى الحقول الخصبة التي اثرت على العمارة ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين وبعد انتشار الفلسفة البنيوية والعلوم السيمائية والمتمثلة بدراسات الفيلسوفين بيرس ودي سوسور ، التي انعكست على العمارة بمحاولات كثير من المعماريين بالمماثلة بين العمارة واللغة من خلال ثلاثة مستويات اشار اليها جارلس مورس[٢٥] وهي :

٢ ـ ١ ـ المستوى البراغماتي (العملي) : وهو المستوى الذي يتعامل مع الاصول والاستعمالات واثر العلامات على اولئك الذين يستعملونها ، والتي قادت الى مجال الدراسات التقنية والبيئية في العمارة والتي اشار اليها شولز في كتابه Intentions in Architechre والتي تشمل كل العوامل النفسية والاجتماعية التي تشارك كاهداف ومقاصد مبتغاة[٢٦] .

ومما لا شك فيه ان اللغة وسلوك الانسان والنواحي النفسية كلها تمثل مواضيع يمكن دراستها من خلال اللغة والنظم والمعنى في القرآن الكريم حيث يتضمن القرآن الكريم ما يقارب الـ (١٧٣) آية في الطب النفسي وطب المجتمع[٢٧] .

٢ ـ ٢ ـ المستوى التركيبي للغة (اللفظ) : وهي القواعد الهيكلية للغة تكون الكلمات والالفاظ من الاحرف ومن ثم تركيب الجمل . وهو ما اهتم به جومسكي وعمل كثير من المعماريين على المماثلة بين نظم اللغة التركيبية ونظم العمارة امثال برودبنت[٢٨] حيث توصل الى فهم العمارة من خلال هذه المماثلة مع البنية العميقة Deep Structure التي افترضها جومسكي على اعتبار ان لكل انسان مقدرة فطرية على توليد الجمل فنحن نتلك فهماً معينا للعالم .

ثم عن طريق المماثلة حاول دراسة الغرائز غير التعليمية التي تحفز على تكوين العمارة مثل الجوع ، الامان ، الراحة والتنفس ... فاستخرج اربع بنيات عميقة متجذرة في العمارة هي :ـ

١ ـ العمارة كحاوي	Container
٢ ـ العمارة كمعدل	Modifier
٣ ـ العمارة كرمز	Symbol
٤ ـ العمارة كمستهلك	Consumer

ومن خلال عملية التحويل والمطابقة توصل الى اربعة اساليب تصميم :

اشكال لغوية (سوسير)	مماثلة	اساليب تصميم
١ ـ Phonetic		١ ـ Pragmatic Design
٢ ـ Analogical		٢ ـ Typolic Design
٣ ـ Folk entymology		٣ ـ Analogic Design
٤ ـ Agglutination		٤ ـ Canonic Design

كما استخدم المعماري بيتر ايزمن اسلوب المماثلة مع نموذج جومسكي لغرض انشاء قواعد ولغة جديدة(٢٩) ونجد هنا ـ أيضا ـ ان قواعد تركيب اللغة والنواحي الغرائزية والفطرية عند الانسان تمثل مواضيع لها اصول واضحة في القرآن الكريم تعطي تفسيرات اكثر صدق وعلمية من تفسيرات الانسان .

٢ ـ ٣ ـ المستوى الدلالـي :

بما ان الاساس هو التعبير عن معان من خلال الالفاظ فان الالفاظ وحدها غير قادرة على نقل المعنى ، وانما يكون عند الضم وتكوين علاقات وهو ما

اهتـم به علماء الدلالـة امثال دي سوسير حيث اعتبـر اللغـة دالـة على مدلـول •

وان الانتقال من نظام اللفظ الى نظام المعنى انما يتم عن طريق الاستدلال والطابع الاستدلالي هو ما يميز الاساليب البلاغية في اللغة وهي اللغة المجازية ثم الاستعارة والكناية والتمثيل •

ولقد استعملت الاستعارة في مجال العمارة في مختلف الازمان مثل مبنى TWA في نيويورك المصمم من قبل المعماري ايروسارنين وهي استعارة من شكل الطير والطائرة والطيران وهي استعارة تعتمد على تشبيهات مباشرة •

وهناك نوع آخر يؤدي الى المشاركة العقلية للمتلقي مثل كنيسة رون شام للمعمار لوكوربوزيه حيث قورنت باشكال متعددة مثل البطة السفينة واليد و•••• ولكن لوكوربوزيه اوضح بأنها استعارة من شكل الصدفة[٣٠] •

واستخدام المجاز المرسـل في مسجد جامعة بغداد فالقبة جزء من المسجد في العمارة التقليدية ، ولكونها جزءا مهما منه فقد استعيض بها عن المسجد واستخدام الكناية في باب الفتوح في القاهرة في مصر تعبير عـن القـوة والمنعـة •

ويتبين مما سبق ان الاستفادة من انواع البديع والبيان المذكـورة سابقا في القياس والمماثلة في العمارة تهيىء كثيرا من الابواب المفتوحة للباحثين المعماريين المسلمين لتحقيق الابداع والسبق العلمي والنظري •

٣ ـ المماثلة بين الاعجاز الادبي للقرآن والعمارة :

لقد اتجه كثير من المعماريين الى دراسة اثر النواحي الحسية والروحية على العمارة من خلال الرؤىء الشعرية عند الفرد والجماعة امثال لويس كان وشولز متأثرين بفلسفة هايدكر الظاهرية باعتبار الشعر يعبر عن حقيقة الوجود الانسـاني ، الا ان هـذه التوجهـات بقيت غير واضحة وتتسم بالغموض والذاتية ، وهنا ممكن ان تضع الدراسات القرآنية اطراً اكثر علمية وموضوعية

بهذا الخصوص . يقول الاستاذ عبدالكريم الخطيب رحمه الله « والصدق الذي نزل به القرآن صدق مطلق تناول الحقائق كلها من جميع جهاتها . الحقائق الكونية والحقائق الدينية والحقائق الدنيوية جميعاً . فكل مقررات القرآن الكريم عن السنن الكونية وعن الوجود الانساني ... قائمة على الحق المطلق الذي لا يتغير ولا يتبدل . وليس كذلك الحقائق التي يتصورها الناس ، لن تخلو من شوائب الضعف البشري ولن تصفو ابداً من كدر الطبيعة البشرية[٣١] .

والاعجاز الادبي هو المتمم للاعجاز اللغوي الا انه يتناول الاحاسيس والمشاعر والنوازع الفنية والجمالية للانسان ، وبذلك فانه يكون نظام فني وجمالي متكامل يمكن ان يستخلصه المعماري لابداع نظام جمالي حيث نجد في التصوير الفني للقرآن امكانية الابداع واسعة فوصف الصورة والحركة والايقاع الموسيقي واللون والظل والتكرار والتوازن والتناسق والاتساق والتماثل والوحدات ، كلها تكون نظاماً فنياً وقواعد للتصوير المعماري ممكن استخدامها في استقلالية الشكل وتلقائية العمارة Autonomous Architecture والانماط الشكلية وبذلك تحقق العمارة النواحي الحسية والجمالية . وبما يوافق فطرة الانسان ويحقق الذوق السليم . حيث يحقق الوحدة والتوازن والنظام والتكرار الا اننا نجد التنوع في الوقت نفسه ، حيث نلاحظ التنوع في العرض بالوصف ، مثل النخيل والاعناب والزيتون الذي يحوي تنوعا في اللون والمشاهد وهناك التنوع في التعبير والالفاظ ، ويتم التناسق والتناسب من خلال نظام صحيح ، سرد عذب ، معنى مترابط ، نسق متسلسل ، تعبير مصور ، موسيقى منظمة ، وبهذا كله يتم الابداع[٣٢] .

٤ ــ المماثلة بين الاعجاز في الاخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل والعمارة :

احدى مقاصد الاخبار والقصص عن الماضي هي العبر والاستنباط من الاحداث والاحكام ، وقد استنبط د. عبدالعزيز ابو الخيل من قصة ذي

القرنين في القرآن الكريم في سورة الكهف استخدام الحديد المسلح في البناء وهو ما تم ابداعه بعد الثورة الصناعية(٣٣) حيث اشارت الاية الكريمة الى استخدام ذي القرنين للحديد في البناء في بناء السد الذي حجز ياجوج وماجوج وبذلك يتبين لنا ان هناك المزيد من امكانية الاستنباط والسبق العلمي في القرآن الكريم •

٥ ـ المماثلة والقياس بين اعجاز القرآن في التشريع والعمارة :

مما لا شك فيه ان للاحكام والتشريع الاسلامي اثراً اساسياً في تخطيط المدنية والعمارة الاسلامية وتشكيلها ، حيث امتازت العمارة الاسلامية باهتمامها بالنواحي المادية والروحية لتشكل كياناً موحداً بين الوظيفة والجمال •

يعد العامل الروحي الثقافي من اهم العوامل التي تحدد شخصية المدنية العربية المتميزة • فالاسلام طبع جميع المدن العربية بطابع الاخلاق التي فرضتها الشريعة • وتوحدت العقليات والعواطف بتأثير الثقافة الاسلامية التي انتشرت عن طريق المسجد اولا والمدارس فيما بعد •

ويمكن تحديد اثر الدين الاسلامي ومفاهيمه الاجتماعية والثقافية بما يأتي :

٥ ـ ١ ـ على مستوى تخطيط المدينة :

أ ـ مكونات المدينة :

١ ـ المسجد : احتل المسجد مركز المدينة ، معبراً عن المركز الروحي والديني والسياسي والاجتماعي والعلمي والاقتصادي حيث ارتبط به كل من :

ـ دار الامارة (مركز الحكم) •

ـ بيت المال •

٢ ـ نمو الاسواق التجارية على خطوط المركز الرئيسة بشكل عضوي حيث تتركز فيها جميع تشاطات المدنية الاقتصادية والمعبرة عن سعي المسلمين للعمل والاعمار .

٣ ـ نمو القطاعات السكنية بشكل عضوي تراكمي حول نواة المدينة « المسجد الجامع » ، والتفاف كل قطاع سكني حول المسجد المحلي معبرة عن ارتباط السكان بعقيدتهم ومركزها المسجد لاداء الصلاة والاستماع الى الخطبة والوعظ والدرس ، وقراءة القرآن والتعلم حيث تميزت بكونها بناء متراصاً ومتلاصقاً ، فكل مسكن معبر عن المؤمن الساكن داخلة معبرة عن الحديث النبوي الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وشبك اصابعه » .

٤ ـ الاسوار والحصون : لتأمين الامن والاستقرار .

٥ ـ ٢ ـ المفهوم الفضائي (العام الخاص) في المدينة الاسلامية :

ان مفهوم الفضاء في المدينة الاسلامية يختلف بشكل اساسي عن مفهوم الفضاء في المدن الاوربية ويأتي ذلك جراء اختلاف المفاهيم الاجتماعية والعام والخاص ذلك انطلاقا من تأثير الفكر الاسلامي .

أ ـ وجود تدرج واضح من العام الى الخاص : الفضاءات العامة الرئيسة لم توجد بشكل ساحات كبيرة خارجية قرب المسجد مثلا كما في التخطيط الاوربي وانما ضمن المباني العامة فهي عامة ضمن المفهوم الخاص ومحكومة بقوانين المبنى العام الذي تنتمي اليه ، فالصحن يخضع لقانون المسجد من الحركة والهدوء والنظافة ... وفضاء المدرسة ضمن نظام ومحددات المدرسة وهكذا ...

ـ الشوارع الرئيسة عامة ولكنها ليست ثابتة وانما فضاء متحرك .

ـ الشوارع الثانوية اقل عمومية ... وهكذا وصولا الى الفضاء الخاص في المحلة واخيراً بالفناء الموجود في المسكن .

ب ـ مفهوم الاتجاهية (المحورية) في فضاء المدينة •

تعتبر المحورية احدى العوامل الحسية والبصرية المهمة التي اثرت على فضاء المدينة الاسلامية والتي تأثرت بدورها بشكل واضح بالدين الاسلامي فالاتجاه الروحي للمسلمين نحو الكعبة المكرمة(٣٤) قال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام • وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجه • الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولاتم نعمتي عليكم لعلكم تهتدون » (البقرة ١٠) فادى ذلك الى :

١ ـ اتجاهيه المسجد نحو الكعبة •

٢ ـ اتجاهية النسيج الحضري نحو المسجد •

٣ ـ اتجاهية الطرق والازقة نحو المسجد •

٤ ـ اتجاهية المساكن نحو الكعبة • قال تعالى في سورة يونس « واجعلوا بيوتكم قبلة » •

ج ـ افقية التخطيط واحترام المقياس الانساني وارتفاع المآذن فقط في خط افق المدينة معبرة عن اهمية المساجد •

٥ ـ ٣ ـ العمارة والمباني :

لقد اثر التشريع الاسلامي على تشكيل العمارة والمباني الاسلامية والمتسمة بما يأتي :

٥ـ٣ـ١ـ سيادة النوع المفتوح نحو الداخل والمغلق من الخارج كنوع اولي في العمارة الاسلامية وذلك بفعل استجابته لمتطلبات البيئة الثقافية والاجتماعية والدينية وتحقيقا للخصوصية وحرمة الفضاء •

٥ـ٣ـ٢ـ التنوع ضمن وحدة النوع بما يحقق تنوع الوظائف واختلاف البيئة المحلية والاقليمية والمناخية والجغرافية والقومية وغيرها من العوامل الخاصة بكل موقع ومنطقة •

٥ـ٣ـ٣ـ تميز العديد من الخصائص التي انعكست من الدين الاسلامي :

١ ـ البساطة والتواضع وعدم التطاول بالبنيان . حيث كان المسكن متواضعا في خارجه بل متقشفا .

٢ ـ احترام المقياس الانساني .

٣ ـ الوحدة والتنوع .

٤ ـ خدمة الانسان وحاجياته .

٥ ـ الاهتمام بلنواحي الحسية الجمالية والتعبيرية .

٦ ـ المحورية والتماثل .

٧ ـ الهندسية والتناسب الهندسي مع العضوية .

٨ ـ انفتاح المبنى نحو السماء من خلال الفناء الداخلي معبراً عن راحة النفس عن طريق الخلود لمناجاة الله[٣٥] .

٩ ـ الالتحام بين المباني للتعبير عن التوحيد والوحدة في الفكر وعدم ادراك المباني ككتل منفصلة كما في المدن الاوربية .

١٠ ـ تأثير عنصر الظل والضوء .

١١ ـ التوحيد بين الجمال والوظيفية والجمال والتقنية[٣٦] .

ان المظهر التخطيطي للمدينة يتأثر الى جانب العوامل الاجتماعية بالظروف المناخية وعوامل الامن والدفاع ثم بمدى ارتباط السكان فيما بينهم . ومن هذه العوامل ما يوضح الاسباب التي جعلت عرض الشارع يقل كثيراً عن ارتفاع المباني على جانبيه لتوفير اكبر قدر من الظلال للمارة فيه وقد يتطور الامر الى تسقيف هذه الشوارع[٣٧] . لقد كانت العوامل الطبيعية المناخية والجغرافية والصحية احدى العوامل الاساسية في اختيار موقع المدينة الاسلامية[٣٨] .

ان تطور المدن الاسلامية اقترن بالاحكام والتشريعات وقوانين البناء التي حددها الفقه الاسلامي فقد عمل الكثيرين من الفقهاء على الاستنباط والقياس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في تحديد الخصائص والاسس والارتفاعات والعلاقات بين الابنية والتخطيط والتشكيل لمحددات الابعاد والارتفاعات والعلاقات بين الابنية والتخطيط والتشكيل لمحددات الشرع الاسلامي(٣٩) .

ولا ننكر هنا تأثر المسلمين في تخطيط وتصميم مدنهم وعمائرهم بالحضارات السابقة لهم حيث ان طبيعة الاسلام في الرغبة بالتطور والتقدم العلمي جعلته يستفيد من تلك الحضارات ويعيد تشكيلها بما يلائم الدين الاسلامي .

٦ ـ الاعجاز العلمي والعمارة :

ـ المماثلة مع الطبيعة والانسان .

ويمثل اتجاه حديث يؤدي الى ابداع نظريات معمارية حديثة ومهمة وذلك من خلال التفكر والتدبر بخلق الله في الارض والسماء والنبات والحيوان والانسان . حيث توجهت كثير من الابحاث المعمارية الحديثة نحو محاولة المماثلة بين الانسان وبين العمارة وذلك من خلال عدة محاور ...(٤٠) .

أ ـ النظام الشكلي ... التماثل ...

ب ـ النظام الخدمي ، اوعية الانسان ... والاحشاء الداخلية .

ج ـ نظام العزل البيئي ... بشرة الجلد .. ومحافظة الانسان على درجة الحرارة .

د ـ محاولة الربط بين الفلك والعمارة وحركة الكواكب والسماء وما فيها وهي محاولات بدأها علماء المسلمين امثال الكندي والرازي وغيرهم ... وتتطلب حديثا المزيد من البحث لاستنباط نظم ونظريات معمارية حديثة .

وفي القرآن الكريم مفاتيح تلك العلوم التي تحتاج الى التفسير والتأويل وفهم المعنى والتي يمكن ان توصل الباحث الى الجوهر في المعنى . حيث يمثل المعنى روح القرآن ولا شك في ان الروح اهم من الجسد . والذي قد يأخذ عدة اتجاهات من خلال التفكر في معاني الالفاظ والعبارات .

ـ وينبه الغزالي الى اهمية التفكر والتدبر بخاق الله ، حيث ينبه الى النحل وعجائبها وهندستها في بناء بيتها فانها تبني على شكل المسدس كيلا يضيق المكان على رفقائها لانها تزدحم في موضع واحد على كثرتها ولو بنت البيوت المستديرة لبقي خارج المستديرات فرج ضائعة فان الدوائر لاتتراص وكذلك سائر الاشكال ـ واما المربعات فتتراص ولكن شكل النحل يميل الى الاستدارة فيبقى داخل البيت زوايا ضائعة كما يبقى في المستدير خاج البيت فرج ضائعة فلا شكل من الاشكال يقرب من المستدير بالتراص مثل المسدس وذلك يعرف بالبرهان الهندسي(٤١) .

الاستنتاجات والتوصيات :

١ ـ ان معجزة القرآن العظيم باقية في كل مكان وزمان وان مصدر قوة القرآن وروحانيته وسلطانه وعلمه هو علو الجهة التي صدر منها وهو الله عز وجل وان القرآن الكريم بحر لا ينفذ ماؤه وعلمه وان المماثلة بين القرآن ومجمل العلوم ومنها العلوم المعمارية سوف تقود الى التقدم والسبق العلمي .

٢ ـ ان المماثلة بين انواع الاعجاز القرآني السابقة الذكر والعمارة تقود الى تحقيق نظريات فلسفية معمارية ، وأساليب تخطيط ونظريات جمال ، ونظم وقواعد شكلية وتركيبية ولغة معمارية جديدة (مخطط رقم (٢) .

٣ ـ ان تفكر المعماري بجانب المعنى والتفسير والتأويل في الالفاظ والعبارات مثل (مفهوم العمارة والاعمار والسكن والدار والبيت) تمكنه من

فهم جوهر العمارة والعمران (وهو هدف سعى اليه كثير من الفلاسفة امثال هايدكر وغيره مع فهم الانسان وطبائعه وغرائزه ونفسيته (وهو ما اهتم به كثير من العلماء كل ذلك يمكن المعماري من انشاء فلسفة علمية في تحقيق عمارة انسانية تخدم الانسان وتحقق اعمار الارض بما يرضي الله والفطرة السليمة للانسان •

٤ ــ ان الغيوب والعلوم التي أشار اليها القرآن كالعلوم الطبيعية والكونية مهمة وحيث اننا في عصر استخدام هذه العلوم فينبغي تسخيرها لخدمة الاسلام وقد تحقق للمسلمين معجزات كبيرة اذا تفرغت طائفة للتفقه في الآيات المتعلقة بهذه العلوم •

٥ ــ يمثل الاعجاز الحسابي في القرآن الكريم احد التوجهات التي تهم المهندسين والتي يمكن من تحقيق بحوث علمية جديدة ومهمة وخاصة عند ربطها بالعلوم الكونية والطبيعية وجانب للمعنى •

٦ ــ اننا نحتاج الى ان تتعامل مع القرآن على انه معجزة تحقق منها المعجزات (كما تحقق ذلك للمسلمين الاولين الذين تحولوا من مجرد قبائل متناثرة الى امة قوية امتدت على ارض شاسعة ولفترة زمنية طويلة محدثة حضارة فاقت حضارات الامم في وقتها) • وذلك ان الله تعالى يعطي الناس على قدر نيتهم •

وان كل ما سبق يتطلب من المعمار المسلم المزيد من التفكر والتدبر والعلم والعمل ••••



المصـــادر والمراجـــع :

١ ــ القرآن الكريم •

٢ ــ محمد مصطفى محمد ، (الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم) ، التقديم للكتاب من قبل د• محمد السيد ندا المعمار من جامعة الازهر لكلية الامام الاعظم ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية سلسلة الكتب الحديثة ، ١٩٨١ •

٣ ــ العمري والحبال ، د• وميض بن رمزي ومحمد جميل ، (الموضوعات الطبية في القرآن الكريم) ، جامعة الموصل ، دار الكتب للطباعةوالنشر ١٩٩٥ ، ص١١ •

٤ ــ الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله ، (البرهان في علوم القرآن) ، الجزء الثاني ، عيسى البابي وشركاه ، ١٩٧٢ ، ص٩ •

٥ ــ السيوطي ، (الاتقان في علــوم القرآن) ، (٧ ــ ص١٢٩ ، جـ٤ ص٣) مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ١٩٦٧ •

٦ ــ الاستاذ الحداد ، نظم القرآن والكتاب ، (الكتاب الاول اعجاز القرآن) (ص١٧٧ ــ ١٩١)

٧ ــ د• احمد مطاوب ، (الرسالة الاسلامية) ٢٨ــ١١/١٦٦٩ ، (ص١٠ــ٢٥)

٨ ــ الاستاذ الحداد ، نظم القرآن والكتاب ، المصدر السابق •

٩ ــ د• أحمد مطلوب ، الرسالة الاسلامية ، المصدر السابق •

١٠ ــ سيد قطب ، (التصوير الفني في القرآن) ، دار المعارف ١٩٦٣ •

١١ ــ د• عمــاد الدين خايل ، حــوار في المعمار الكوني وقضايــا اسلامية معاصرة ، الدوحة ، دولة قطر ، ١٩٨٧ ص١١٤ •

١٢ ــ الزركشي ، بدرالدين محمد بن عبدالله ، البرهان في علوم القرآن نفس المصدر السابق ، ص١٤٦ ــ ١٤٨ •

١٣ ــ الزركشي نفس المصدر السابق ص١٦١ ــ ١٨١ •

١٤ ــ الغزالي ، ابو حامد ، (جواهــر القــرآن) ، منشورات دار الافــاق الجديدة بيروت ، ١٩٧٨، ص١٩ •
١٥ ــ محمد مصطفى محمد ، (الفهرس الموضوعي لآيــات القرآن الكريم) ، مصدر سابق ، (ص٢٦٦ ــ ص٢٧٢) •
١٦ ــ الذهبي ، (القــرآن والعلم وآراء المتطرفين والغلاة) ، ١٢ حزيــران ، ١٩٧٢ ، ص١٦ •
١٧ ــ د• محسن عبدالحميد ، (الــرازي ومنهجــه في التفســير) ، الرسالة الاسلامية ، ١٢٩ ، ١٩٧٩ ، ص٤٦ •
١٨ ــ د• وميض بن رمزي ومحمد جميــل ، العمري والحبال ، نفس المصدر السابق ، ص٢٩ •
١٩ ــ عبدالرزاق نوفل ، (معجزة الارقام والترقيم في القرآن الكريم) ، دار الكتب العربي ، بيروت ١٩٨٣م ، ص٣٦ ــ ص٤٧ •
٢٠ ــ بشار نهاد حــداد ، (اعجاز الرقم ١٩ في القرآن الكريم) ، مقدمــات تنظر النتائج ، المؤسسة الاسلامية بيروت ، لبنان ١٩٩٤ •
٢١ ــ ابن تيمية ، (النبوات) دار العلم ، بيروت ، لبنان ، ص٣٣٢ •
٢٢ ــ الجابري ، محمد عابد ، (بنية العقل العربي) ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ، ١٩٨٧ ، ص٢٤٣ •
٢٣ ــ احمد عبدالجبار جودت ، بنية الصورة المعمارية في ضوء نظرية المعرفة الاسلامية اطروحة ماجستير غير منشورة ، ١٩٩٥ ، ص٨١ •
24. Al-Faruqi, Ismail R., and Al-Faruqi, Lois (The Culture Atlas of Islam 1986), p 112.
25. Broadbent, Bunta, Jencks eds, (Sign, Symbole, and Architecture), John Wiley & Sons, 1980.
26. Schulz, C.W., (Intensions In Architecture), M I T press Cambridge 1977. p. 60.
٢٧ ــ العمري والحبال ، د• وميض بن رمزي ومحمد جميل ، نفس المصــدر السابق ص ٨٧ــ٩٣ •

28. Broadbent, G., (The Deep Structure of Architecture) in Broadbent, Bunta & Jencks, eds, (Sign, Symbole, Architecture). John Wiley & Sons, 1980.
29. Mario Grandelsonas (from Strucure to Subject), the Formation of Architectural language, Opptions M I T press.
30. Broadbent, G. J. (Building design as an Iconic Sign System) in (Sign, Symbole, Architecture), John Wiley & Sons, 1980.

٣١ ــ الخطيب ، عبدالكريم ، (اعجاز القرآن) الجزء الثاني، ص١٩٤ ــ ١٩٩٠

٣٢ ــ العمري ، حفصة رمزي ، (أثــر الدين الاسلامي على تكويــن مفهوم الجمالية لفن الزخرفة في العمارة الاسلامية) المؤتمر الهندسي الرابــع ١١/١٩٩٧ ، مجلة الهندسة ٠

٣٣ ــ عبدالعزيز ابا الخيل ، (الكتاب والسنة اساس تأويل العمارة الاسلامية)، الجزء الاول ، ١٩٨٩ ٠

٣٤ ــ العمــري ، حفصة رمــزي ، (عمــارة المساجد الحديثة في العراق) ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، ١٩٨٩ ٠

٣٥ ــ د٠ عفيف بهنسي ، (العمارة العربيــة الجماليــة والوحدة والتنوع) ، المجلس القومي للثقافة العربية ، ص٣٧ ٠

٣٦ ــ العمري ، حفصة العمري ، (اثر الدين الاسلامي على تكوين مفهــوم الجمالية لفن الزخرفة في العمارة الاسلامية) نفس المصدر السابق ٠

٣٧ ــ د٠ عبدالباقي ابراهيم ، (تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة العربية الاسـلامية المعاصــرة) ، مركــز الدراســات التخطيطية والمعمارية ، القاهرة ، ص٤٠ ٠

٣٨ ــ د٠ طاهر مظفر ، (تخطيط المدن العربية الاسلامية) ١٩٨٦ ٠

39. Besim Selim Hakim, (Arabic Islamic Cities) KPI, London England. 1986.
40. Architectural Design, 1996, London W2 34N.

٤١ ــ الغزالــي ، ابو حامــد ، (جواهر القرآن) نفس المصــدر السابــق ص ٤٠ــ٤١ ٠

القرآن الكريم مفتاح للبحث العلمي لعلم العمارة ونظرياتها

حفصة رمزي العمري
المدرسة في كلية الهندسة
جامعة بغداد

المقـــــدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين الذي لا اله الا هو والصلاة والسلام على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اله وصحبه •

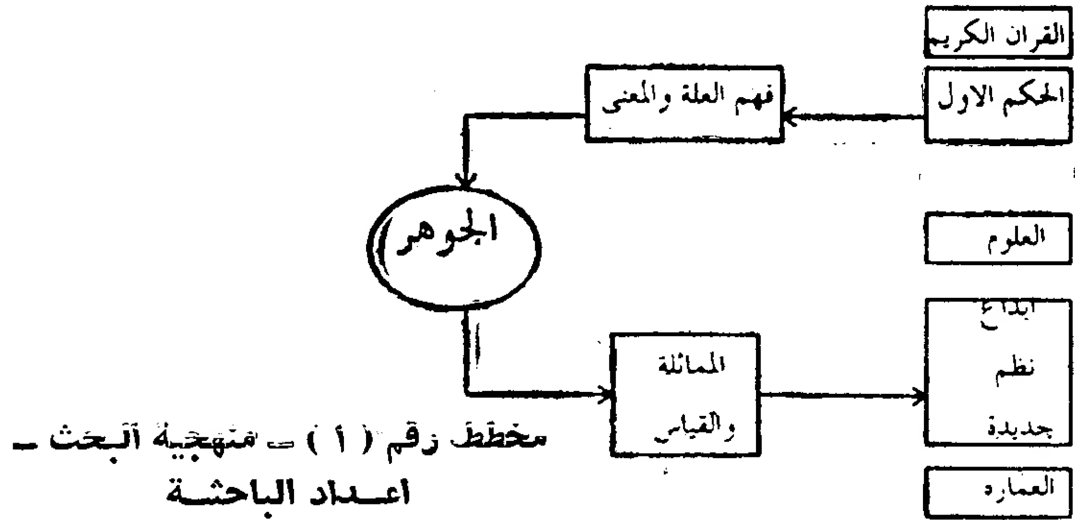
ان لكل حضارة من الحضارات تصوراً وفكراً سائداً يفهم على وفقه له كل شيء وهو الذي يحدد معالم هذه الحضارة ويملي منهجيتها والذي تعبر عنه نتاجات الانسان المتنوعة ومنها العمارة التي تفهم كاحدى مواضيع المعرفة الانسانية وكظاهرة حضارية تتكون من حقل نظري متأت من تطور الفكر البشري الذي تكون فيه العمارة موضوعا تجري معرفته وتطوره الذاتي بالفكر ، وحقلا عمليا يمثل تطبيقات لهذا الفكر وانتقالاً من المجرد الى العيني ، وهنالك دائما وحدة بين الفكر والتطبيق وكلاهما يدعم الآخر •

ولقد تميزت العمارة الاسلامية بخصائص اعطتها هوية ميزتها عن باقي الحضارات وان تحقيق الهوية والخصوصية يتطلب الموائمة بين عدة بنيات (بنية الوجود الانساني ، بنية الوجود المكاني ، واخيرا تأثير عامل الزمان) وهي عملية تواصل مستمرة بين الماضي والحاضر والمستقبل حيث ذهب اليه كثير من منظري العمارة الى اعتبارها احدى الظواهر الحضارية المتسمة بالشمولية • ومما لاشك فيه ان الفكر والفلسفة والمعتقد هي احدى العوامل

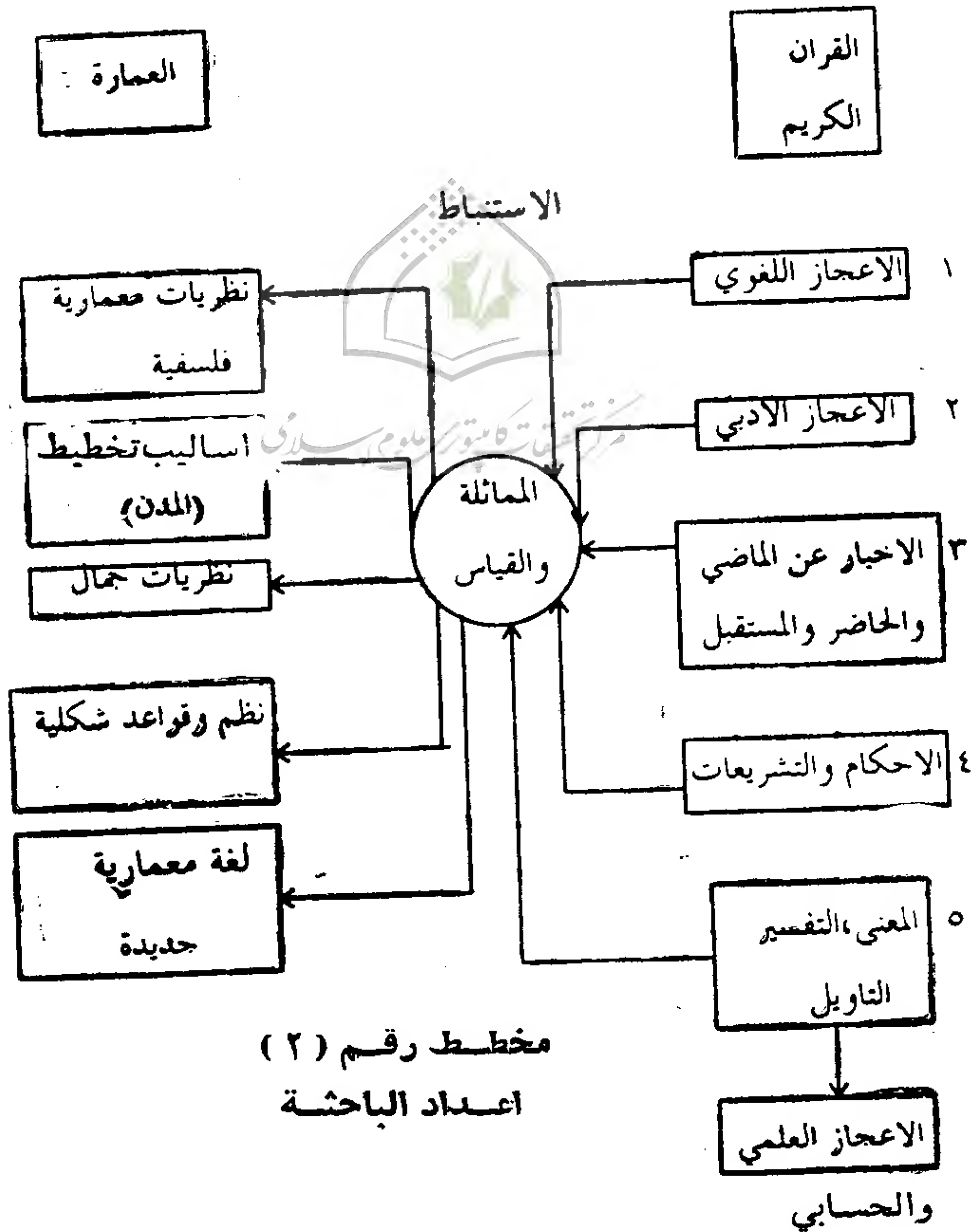
المهمة والاساسية التي اسهمت في تحقيق هوية مشتركة للعمارة الاسلامية على الرغم من امتدادها على ارض شاسعة لهـا ظروف بيئية وطبيعية وثقافيـة وحضارية مختلفة ولفترات زمنية طويلة .

ان تحقيق الهوية كان ولا يزال احد المحددات الاساسية التي تشغل فكر كل معماري عربي ومسلم وايمانا باهمية الموضوع الذي يحتاج الى المزيد من البحوث فاننا في هذا البحث تتناول احد المحددات المهمة لتحقيق الهوية وهو الفكر الاسلامي ومما لاشك فيه ان القرآن الكريم هو المنبع الاصيل للفكر الاسلامي ، وهو البحر المحيط الذي تتشبع منه علوم الاولين والاخرين كما ذهب الى ذلك العديد من العلمـاء امثال الكندي والتوحيدي والغزالي والرازي وغيرهم من علماء المسلمين الاوائل والمتأخرين فقد قـال الزركشي « كل من كان حظه في العـلوم اوفر كان نصيبه في علم القـرآن أكثر » . وتستند فرضية البحث الى ان القرآن الكريم وأعجازه مفتـاح للبحث العلمي لعلم العمارة ونظرياتها . ويهدف البحث الى ايضاح سبل المماثلة بين علوم القرآن واعجازه وبين العمارة والذي يعـين في استنباط نظـريات معمارية فلسفية وعلمية تحقق السبق العلمي وتؤكد الاعجاز القرآني وتذكر بعظمة الله ونعمه على عباده المؤمنين . قال تعالى « سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » (فصلت ٥٣) . وبذلك يستند المنهج الى مفهوم المماثلة والقياس بين العمارة وعلوم القرآن الـكريم (مخطط رقم ١) .

ونظراً لان موضوع الاعجاز القرآني قد يكون بعيداً عن تصور العديد من المعماريين فقد قسم البحث الى بابين اساسيين الباب الاول يضم المدخل والتعريف بالاعجاز القرآني ثم انواع الاعجاز القرآني . ويضم الباب الثاني المماثلة والقياس والعمارة وسبل الاستنباط والاستدلال من القرآن الكريم .



مخطط رقم (١) ـ منهجية البحث ـ
اعــداد الباحثــة



مخطـط رقـم (٢)
اعـداد الباحثـة

ونعتذر من الاطالة في الباب الاول حيث نعتقد بأهميته ولا سيما بعد كثرة دراسة المناهج الفلسفية الغربية في اقسام العمارة في الجامعات والتأثر بها من غير العودة الى المنهج الفكري الذي خص به الله عز وجل العرب والمسلمين ليكونوا خير امة اخرجت للناس والتي تحميهم من التخبط بالمناهج والسبل .

فان وفقت لذلك فأجره على الله تعالى وحده ، وان اخطأت فأسال الله تعالى التوبة والمغفرة والحمد لله كثيرا .

الباب الاول

١ ـ المدخل :

ان القرآن الكريم هو مشكاة الهداية ومركز الاشعاع الذي يفيض بالنور على وجه الزمن ويهدي الى ما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ، لم يترك ناحية من نواحي الحياة الانسانية دينية كانت ام دنيوية الا أنار فيها السبيل وارشد فيها ، الى اقوم الطرق واحسن المناهج ، قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (النحل ٨٩) « وانزلنا اليكم نوراً مبيناً » (النساء ١٧٤)[٢] .

ولقد ترك الله عز وجل اكتشاف اعجاز القرآن في شتى النواحي للازمان والقرون مصداق ذلك قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » . فان حرف السين في لفظ سنريهم تفيد المستقبل والمستقبل يستمر ، كلما أنقرض جيل يأتي جيل بعده ، وهكذا الى قيام الساعة فيكون عطاء القرآن متجدداً[٣]. قال عز وجل « بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد باياتنا الا الظالمون » (العنكبوت ٤٩) ، والاية هي العلامة والحجة وقد تكون الاية برهاناً علمياً يعجز المبطلون عن معارضته وقد تكون برهاناً روحياً يعجزون عن مقاومته وقد تكون برهانا مادياً يبهت الحواس قبل العقول والارواح

مثـل عصا موسى عليـه السلام ، ولحـكمة ربانية سمي كـل مقطـع في القرآن الكريم بآية • ونلحظ ان القرآن الكريم استعمل لفظ (آية) ، غير ان اصطلاح المتكلمين المسلمين جرى على لفظ (المعجزة) • ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانية لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن(٤) •

٢ ـ اعجاز القرآن الـكريم :

تبين لنا مما سبق ان القرآن الكريم يتسم بالشمولية ، وهي مـن اعجازه ، وقد تناول اعجاز القرآن الكريم العديد من العلـماء والمفسرين والفقهاء واللغويين والعلماء وتنوعت وجهاتهم • فقد قال السيوطي في اعجاز القرآن (المعجزة امر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة ، وهي اما حسية واما عقلية • واكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم • واكثر معجزات هذه الامة عقلية لفرط ذكائهم وكمال افهامهم• ولان هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يـوم القيامـة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذو البصائر(٥) •

واورد الحداد في كتابه (نظم القرآن الكريم ، الجزء الاول « اعجاز القرآن ») العديد من الاوجه التي توصل اليها العلماء والمفسرون والتي اخذ بها من كتاب الاتقان في علـوم القـرآن للسيوطي(٦) • ويمكننا ان نقول في مسائل الاعجاز القرآني (بما له علاقة بموضوع البحث) ما يأتي :

١ ـ الاعجاز اللغوي (البلاغة ، الفصاحة ، البيان ، البديع ، ••••) •

٢ ـ الاعجاز الادبي (النظم ، الاسلوب ومخاطبة النفس البشرية) •

٣ ـ الاعجاز في الاخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل (التنبوء) •

٤ ـ الاعجاز في الاحكام والتشريع •

٥ ـ الاعجاز في المعنى (التفسير والتأويل والاستنباط) • والذي يمكن ان نقول فيه :

٥ـ١ الاعجاز العلمي والحسابي .

ولا نقول ذلك حصرا وانما قد يتم التوصل الى كثير من المسائل الحديثة والمستقبلية والمواكبة لكل زمان ... (والله اعلم) .

٣ ـ انـواع الاعجـاز القـرآني :

٣ ـ ١ ـ الاعجـاز اللغـوي :

لقد توجه علماء العرب القدامى مثل عبدالقاهر الجرجاني ويحيى بن حمزة وغيرهم من الكتاب والبلاغيين والنقـاد لدراسة الاعجاز اللغوي ، فقد وجدوا في القرآن وما لم يجدوه في كلام العرب ..(٧) .

وقد اورد كثير من العلماء المسلمين عددا من الاعجازات اللغوية للقرآن الكريم ونرى هنا انه من الفائدة ذكر بعضها والتي تفيد المعماري في القياس عليها ، (كما سيتم توضيحه) ، ونورد منها :

٣ ـ ١ ـ ١ ـ البيـــان :

يضم البيان المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض والحصر والاختصاص والايجاز والاطناب وغيرها من الوجوه . ويعد المجاز أصل البيان والبديع والبلاغة ، حيث لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن وهو كل لفظ بقي على موضوعه وهو اكثر الكلام اما المجاز فهو ابلغ من الحقيقة كقوله تعالى: « كلا انها لظى نزاعة للشوى تدعو .. » فالدعاء من النار مجاز . أما التشبيه فهو اخراج الاغمض الى الاظهر ، والغرض منه تأنيس النفس باخراجها من خفي الى جلي . أما الاستعارة فهي مجاز علاقته المشابهة وقيل هي مجاز عقلي ، وحكمة الاستعارة اظهار الخفي ، وايضاح الذي ليس بجلي وهو انواع مثل : « وفجرنا الارض عيوناً » وهي المبالغة .

٣ ـ ١ ـ ٢ ـ البديـع في القـرآن :

البديع علم وفن في محسنات الكلام اللفظية والمعنوية لذلك فهو يشترك في الكثير من اشكاله مع فن البيان ويقتصرون في البيان على اوجه المجـاز

والاستعارة والتشبيه ، ويتركون سائر الوجوه عادة للمحسنات اللفظية في البديع ، ذكر منها الحدار ١٦٨ نوعا ، نورد منها : التجريد ، والانسجام ، والائتلاف ، والاستثناء ، والابدال ، والتعديد ، والجمع ، والمؤتلف والمختلف ، والمبالغة ، والأفراط ، والطباق ، والمقابلة ، والبراعة في الاستهلاك وائتلاف الفاصلة مع الآية ، والتكرار والاتساع والمقارنة والمناقضة والانفصال وحسن الختام(٨) •

٣ ـ ٢ ـ الاعجاز الادبي :

شكل الاعجاز اللغوي بداية التوجه الحديث نحو الاعجاز الادبي الا ان بداياته الاولى كانت في العديد من الكتب القديمة ولعل الزمخشري من أشهر المفسرين اهتماما بالبلاغة والتفسير الادبي ويكاد كشافه يكون عمدة هذا الاتجاه والذي يعني بايصال كلمات القرآن وعباراته الى القلوب قبل ايصالها الى الآذان وفي هذا خير عظيم لايعرفه الا من تذوق القرآن وأدرك ما فيه من حكمة بالغة وقول فصل •

وقد ذكر الدكتور أحمد مطلوب كثيرا من المفسرين المتوجهين بهذا الاتجاه ، منهم قول الاستاذ محمد الذهبي بأن التفسير في هذا العصر يتلون باللون الادبي الاجتماعي(٩) • ويرى سيد قطب في كتابه التصوير الفني للقرآن ، ان المفسرين الاوائل لم يبحثوا الجمال الفني في القرآن وتناسقه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال فخرجوا في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وتاريخية وأسطورية وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهيئة للمفسرين لرسم صور واضحة للجمال الفني للقرآن • ويفسر كثيرا من آيات القرآن الكريم على وفق هذا التصور بشكل رائع • وهو بهذا يعالج النواحي الحسية والنفسية والفنية والذوقية الجمالية للقرآن(١٠) •

٣ ـ ٣ ـ الاعجاز بالاخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل : (الغيوب)

(وهي من معجزات القرآن العظيم • ما تضمنه من اخبار عن قصص

الاولين حكاية من شهدها وحضرها • وما فيه من الاخبار عن الغيوب المستقبلية التي وقع بعضها في زمن الرسول (ص) • ولا يزال الكثير منها مستمر بالاخبار عن المستقبل) حيث يقول الدكتور عمادالدين خليل ، في القرآن تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل وهو امتداد وجداني لمساحة واسعة[11] • وقد أورد بعض العلماء العلوم الكونية والطبيعية ضمن هذا الباب ، فضلا عن الاحداث والاخبار •

٣ ـ ٤ ـ الاعجاز في الاحكام والتشريع :

جاء القرآن كتاب هداية لانقاذ البشر من الضلال حيث يتناول بتفصيل معجز علاقة الانسان بربه وعلاقة الانسان بالانسان ويتجه الاسلام الى الواقعية المثالية ليحقق مجتمعا علميا متطورا ومثاليا في منهجه واخلاقه •

وقد حمل القرآن الكريم والدين الاسلامي اتجاهين رئيسين :

٣ـ٤ـ١ـ الاتجاه الاول المتضمن لعقيدة التوحيد وعبادة الله عز وجل وتحديد العلاقة بين الانسان والخالق • وقد اعتبر سيد قطب التوحيد المفهوم الاول للتصور الاسلامي ، ان التصور الاسلامي هو الوحيد الذي بقي قائما على اساس التوحيد الكامل الخالص خلافا عن باقي الاديان والعقائد • فالله سبحانه وتعالى واحد في ذاته متفرد في خصائصه « ليس كمثله شيء » (الشورى ١١) ، « فلا تضربوا لله الامثال » (النحل ٧٤) انه تحرير الانسان من العبودية للعباد يحقق الثبات والتوازن في حياة المسلم يمنعه من التخبط في الافكار « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » (الروم ٣٠) حيث يجد المسلم العديد من صور التوازن ، بين عالم المادة وعالم الروح ، بين فاعلية الانسان وفاعلية الكون • محققا الايجابية والواقعية فالدين الاسلامي دين ايجابي يدعو الى العلم والعمل فوجود الانسان على الارض يقتضيه حركة وعمل في ذات نفسه وفي الآخرين من حوله فهو دين للحياة والواقع •

٣ـ٤ـ٢ـ الاتجاه الثاني : وقوف التصور الاسلامي على قاعدة التوحيد فالله هو الخالق المبدع المهيمن المدبر والكون والانسان من ابداع الله وبينهما تفاعل وتناسق ، والانسان مسلط على المادة يبدع فيها ينشيء ويطور ويغير ويظهر اسرارها . وان خلافة الانسان في الارض استلزمت الاحكام والتشريعات الموجهة لسلوكه فردا وجماعة مما تمكنه من اقامة حضارة تكرم الانسان وتوحد الله وتعم فيها المثالية والقيم الاخلاقية التي تحدد طبيعة العلاقات الانسانية ، المسلمين مع غيرهم ، المسلمين فيما بينهم ، فسادت بذلك كثير من المفاهيم والمضامين الاجتماعية التي أدت دورا مهما وأساسيا في تخطيط المدينة الاسلامية والعمارة الاسلامية وتصميمها منها :

١ ـ مفهوم الوسطية : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (البقرة ١٤٣) وعن الرسول (ص) « خير الامور اوسطها » .

٢ ـ المساواة : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » (النساء ١٣٥) . وعن الرسول (ص) « المسلمون سواسية كأسنان المشط » .

٣ ـ البساطة : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا أخذ ايسرهما ما لم يكن اثما » .

٤ ـ التواضع : « والله لا يحب كل مختال فخور » (الحديد ٢٣) .

٥ ـ عدم الاسراف : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين » . مع اظهار النعمة .

٦ ـ الاحساس بالجمال : « من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الاعراف ٣٢) .

٧ ـ التكافل الاجتماعي : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (الحشر ٩) . والمثالية في الاخلاق .

٨ ـ الخصوصية (العزل البصري) ٠

٩ ـ التجريد وكراهية التصوير ٠

١٠ ـ الحقوق الاجتماعية : حق الطريق ، حق الجيرة ، حق الماء ، وسلامة البيئة ، وسيادة مبدأ « لا ضرر ولا ضرار » ٠

٣ ـ ٥ ـ الاعجاز في المعنى (التفسير والتأويل والاستنباط) :

ان أصل الوقوف على معاني القرآن هو التفكر والتدبر ويتوقف على معرفة تفسيره وتأويله ومعناه ٠ قال ابن فارس : معاني العبارات التي يعبر بها عن الاشياء ترجع الى ثلاثة ، المعنى والتفسير والتأويل ، فأما المعنى فهو القصد والمراد ، والتفسير هو الاظهار والكشف ، أما التأويل فأصله من المآل وهو العاقبة والمصير ، فكان التأويل صرف الاية الى ما تحتمله من المعاني[١٢] ٠

ويقول الزركشي بأن الاعجاز يكون في اللفظ والمعنى والملاءمة (النظم والتأليف) ٠ وان في القرآن علم الاولين والآخرين وما من شيء الا ويمكن استخراجه منه[١٣] ٠ وقد أوضح الامام الغزالي في كتابه « جواهر القرآن » أهمية التفسير والتأويل حيث بين بأن جواهر القرآن لها أصداف والصدف هو أول ما يظهر ، فصدف القرآن وكسوته اللغة العربية وعلومها والتي تراد للتفسير ، وينهي بعلم أصول الفقه وهو ضبط قوانين الاستدلال بالآيات والاخبار على احكام الشريعة[١٤] ٠

ان توجه العلماء الى التفسير والتأويل والاستنباط والاستدلال من آيات وسور القرآن الكريم هي التي قادت الى أظهار الاعجاز العلمي والاعجاز الحسابي للقرآن الكريم التي ستظهر المزيد من العلوم والمعارف بأذن الله ٠٠٠ ٠

٣ ـ ٥ ـ ١ ـ الاعجاز العلمي :

لقد حث الله عز وجل على العلم والتعلم وبين أهمية العلماء وتفضيل آدم على الملائكة بالعلم وأستحباب الرحلة لطلب العلم ، كما حث على تعلم عدد السنين والحساب[١٥] • ومشروعية الاستنباط « ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ••» (النساء ٨٣) •

بين كثير من العلماء القدامى بأن القرآن الكريم حوى مفاتيح كل علوم الدنيا والدين وكان منهما وما يكون الى يوم القيامة ، وكان من أبرزهم الامام الغزالي الذي أكد في كتابه « احياء علوم الدين » : بل كل ما اشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ، وفي القرآن اليه رموز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها » ثم يمضي في كتابه « جواهر القرآن » فيقرر هذا الرأي حيث يعقد الفصل الخامس منه بكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن •

ثم يأتي جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ، ويقرر في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » وفي كتابه « الاكليل في استنباط التنزيل » ما قدره الغزالي ، من ان القرآن قد حوى كل علوم الاولين والآخرين ، (وهو ما ايده الزركشي) كما بينا ، ويسوق من الادلة على ذلك قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (الانعام ٣٨) وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (النحل ٨٩) ثم تكلم عن العلوم التي تفرعت عن القرآن من علم القراءات ••••• الى علم الهندسة والجبر وغيرها •••) وفيه أصول الصنائع وأسماء الالات[١٦] • ويؤيد ذلك الرازي في اهتمامه بالمسائل العلمية والظواهر الفلكية فيوسع معاني الاستدلالات القرآنية[١٧] •

ومعنى الاعجاز العلمي كما قرره الشيخ عبدالمجيد الزنداني في كتابه « تأصيل الاعجاز في القرآن والسنة » بأنه « اخبار القرآن الكريم بحقيقة علمية اثبتتها العلم التجريبي وثبت عدم امكانية ادراكها بالوسائل البشرية في

زمن الرسول (ص) »[١٨] • وقد أورد مؤلفا كتاب الموضوعات الطبية في القرآن الكريم المقاصد الاتية من استدلال القرآن الكريم بالموضوعات الطبيعية :ـ

١ ـ اظهار قدرة الخالق عز وجل والتفكير بعظمته سبحانه وتعالى وبيان نعمه الكثيرة على عباده •

٢ ـ تنبيه العقول للتفكر والتدبر والنظر والاستنباط (البحث والسبق العلمي) • وبالاسلوب الذي يلائم جميع الاجيال وحسب المستوى العلمي لكل جيل ، وبيان الاعجاز العلمي وتعزيز معاني واركان الآيات (كالايمان بالله واليوم الآخر) •

ونجد ان القرآن الكريم سبق عصر العلم والعلماء باعجازه العلمي بأربعة عشر قرنا من الزمان ، في خلق الانسان والطبيعة والكون ، وكلما وصل العلم الى حقيقة مستقبلا •• وجد ان القرآن سبقه اليها وسبق قوله بها[١٩] • ولقد أنكشفت للمسلم آفاق جديدة في اعجاز القرآن الكريم وهي الاعجاز العددي الحسابي في الرسم العثماني حيث اتجهت كثير من البحوث الحديثة نحو هذا الباب الجديد الذي يفتح آفاقا جديدة مواكبة لعصر الاتصالات والحسابات (الكومبيوتر)[٢٠]•

الباب الثاني

١ ـ المماثلة والقياس والعمارة :

ان الله هو الخالق البارىء المصور وهو الذي يستطيع الايجاد من العدم• أما الانسان فأنه لا يبدع من غير مادة وجودية ، التي هي الاساس التي يستند اليها فعل الانسان وعليه يجري عملياته الذهنية ، من تركيب وتفكيك وهي عامة في كل الفعل الانساني ، الا أن الفعل الابداعي يتميز بالقدرة على المماثلة ، حيث يقول ابن تيمية « ان أصل العلوم العقلية والنظرية اعتبار

الشــيء بمثلــه »[٢١] • واســاس انـــواع المماثلــة هــو المجــاز ، اي الاستعمال المجازي للافكار ، والمجاز يقوم بربط شيئين مختلفين او حتى غير مترابطين • او قد تكون المماثلة تشبيه ، ويقول الجرجاني « الاستعارة ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل » • ويقول الجابري « بنية التشبيه (المماثلة) هي نفسها بنية القياس »[٢٢] •

القياس في اللغة هو تقدير شيء على مثال شيء آخــر وتسويتــه به (١٧ ــ ص ١٣٧) • وهو اساس الفعل العقلي والذهني ، وهو استخراج لعلاقات موجودة اصلا بصورة كامنة ولذلك يطلــق عليــه بالاستنباط او الاستدراج ، اي استخراج المعرفة من الاصل ، فالقياس اذن اظهار لعــلاقة وليس ايجادها من العدم ، وهو تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به • واركان القياس في التشريع الاسلامي اربعة هي الاصل والفرع والعــلة والحــكم •

فمثلا في قياس التمثيل نقول بين رأس الانســان وجسده (الاصل) مفصل (رقبة) والعلة كونهما جزءين مختلفين ، لذلك فأن الحكم وجــود (مفصل) ينقل الى الفرع (بدن العمود والجسر)[٢٣] •

والقياس هو اساس كل ابداع علمي وفني ويقوم على اساس الجمع بين المتشابهات والتفريق بين المختلفات والمبنيات على وجود علة مشتركة بين الاصل والفرع • والقياس الاسلامي ينتقل الى القياس والمماثلة المعمارية •

ونورد رأي الفاروقي الذي يرى أن القرآن الكريم مصــدر اساسي للتأثير على تكون الفنون الاسلامية حيث يرى بأن تأثير القرآن الكريم على الفنون يكون من خلال ثلاثة مستويات •

المستوى الاول : القرآن مصدر للتوحيــد ، وان الرسالــة الاسلامية تعبر عن التوحيد ، واشار الى ان صفات التعبير الجمالي عن التوحيد هي

اللانهائية والكمال وتم هذا في الفن من خلال التجريد والبنية القياسية والربط المتتابع والتكرار والحركة الدايناميكية (مفهوم الزمان والمكان في الفن) واخيرا التعقيد .

المستوى الثاني : ان شكل القرآن الكريم هو شكل فني ، مكون من السور والآيات ، يعبر عن اللانهائية في النسق للفن الاسلامي والذي يعبر عنها الاعجاز القرآني في اللفظ والتشكيل وطرح المعاني والقيم والقصص معبرا عن الخصائص الستة السابقة :

اما المستوى الثالث : فهو كون القرآن مثل فن ايقوني ، حيث لم يعط الفن العقائدية (الايديولوجية) والمحتوى والشكل فقط وانما اعطاها المادة فأصبح هو المادة المستخدمة في فن جديد وهو فن الكتابة الاسلامية المميز للعمارة الاسلامية[٢٤] .

ونعتقد ان كل اوجه الاعجاز القرآني السابقة الذكر تمثل اوجها للمماثلة والقياس مع العمارة وتمكن من استنباط نظريات وعلوم معمارية حديثة . حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله تعالى . ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله . وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم . وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة السرد ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولم نشرك بربنا احدا » . ومن قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعى اليه هدى الى صراط مستقيم) . رواه وصححه الترمذي عن الحارث الاعور عن علي رضي الله عنه .

٢ ـ المماثلة بين الاعجاز اللغوي والعمارة :

تمثل اللغة احدى الحقول الخصبة التي اثرت على العمارة ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين وبعد انتشار الفلسفة البنيوية والعلوم السيمائية والمتمثلة بدراسات الفيلسوفين بيرس ودي سوسور ، التي انعكست على العمارة بمحاولات كثير من المعماريين بالمماثلة بين العمارة واللغة من خلال ثلاثة مستويات اشار اليها جارلس مورس[٢٥] وهي :

٢ ـ ١ ـ المستوى البراغماتي (العملي) : وهو المستوى الذي يتعامل مع الاصول والاستعمالات واثر العلامات على اولئك الذين يستعملونها ، والتي قادت الى مجال الدراسات التقنية والبيئية في العمارة والتي اشار اليها شولز في كتابه Intentions in Architechre والتي تشمل كل العوامل النفسية والاجتماعية التي تشارك كاهداف ومقاصد مبتغاة[٢٦] •

ومما لا شك فيه ان اللغة وسلوك الانسان والنواحي النفسية كلها تمثل مواضيع يمكن دراستها من خلال اللغة والنظم والمعنى في القرآن الكريم حيث يتضمن القرآن الكريم ما يقارب الـ (١٧٣) آية في الطب النفسي وطب المجتمع[٢٧] •

٢ ـ ٢ ـ المستوى التركيبي للغة (اللفظ) : وهي القواعد الهيكلية للغة تكون الكلمات والالفاظ من الاحرف ومن ثم تركيب الجمل • وهو ما اهتم به جومسكي وعمل كثير من المعماريين على المماثلة بين نظم اللغة التركيبية ونظم العمارة امثال برودبنت[٢٨] حيث توصل الى فهم العمارة من خلال هذه المماثلة مع البنية العميقة Deep Structure التي افترضها جومسكي على اعتبار ان لكل انسان مقدرة فطرية على توليد الجمل فنحن نتلك فهماً معينا للعالم •

ثم عن طريق المماثلة حاول دراسة الغرائز غير التعليمية التي تحفز على تكوين العمارة مثل الجوع ، الامان ، الراحة والتنفس ... فاستخرج اربع بنيات عميقة متجذرة في العمارة هي :ـ

١ ـ العمارة كحاوي Container

٢ ـ العمارة كمعدل Modifier

٣ ـ العمارة كرمز Symbol

٤ ـ العمارة كمستهلك Consumer

ومن خلال عملية التحويل والمطابقة توصل الى اربعة اساليب تصميم :

اشكال لغوية (سوسير)	مماثلة	اساليب تصميم
١ ـ Phonetic		١ ـ Pragmatic Design
٢ ـ Analogical		٢ ـ Typolic Design
٣ ـ Folk entymology		٣ ـ Analogic Design
٤ ـ Agglutination		٤ ـ Canonic Design

كما استخدم المعماري بيتر ايزمن اسلوب المماثلة مع نموذج جومسكي لغرض انشاء قواعد ولغة جديدة[٢٩] ونجد هنا ـ أيضا ـ ان قواعد تركيب اللغة والنواحي الغرائزية والفطرية عند الانسان تمثل مواضيع لها اصول واضحة في القرآن الكريم تعطي تفسيرات اكثر صدق وعلمية من تفسيرات الانسان .

٢ ـ ٣ ـ المستوى الدلالـي :

بما ان الاساس هو التعبير عن معان من خلال الالفاظ فان الالفاظ وحدها غير قادرة على نقل المعنى ، وانما يكون عند الضم وتكوين علاقات وهو ما

اهتــم به علماء الدلالــة امثال دي سوسير حيث اعتبــر اللغــة دالــة على مدلــول ٠

وان الانتقال من نظام اللفظ الى نظام المعنى انما يتم عن طريق الاستدلال والطابع الاستدلالي هو ما يميز الاساليب البلاغية في اللغة وهي اللغة المجازية ثم الاستعارة والكناية والتمثيل ٠

ولقد استعملت الاستعارة في مجال العمارة في مختلف الازمان مثل مبنى TWA في نيويورك المصمم من قبل المعماري ايروسارنين وهي استعارة من شكل الطير والطائرة والطيران وهي استعارة تعتمد على تشبيهات مباشرة ٠

وهناك نوع آخر يؤدي الى المشاركة العقلية للمتلقي مثل كنيسة رون شام للمعمار لوكوربوزيه حيث قورنت باشكال متعددة مثل البطة السفينة واليد و٠٠٠٠ ولكن لوكوربوزيه اوضح بأنها استعارة من شكل الصدفة[٣٠] ٠

واستخدام المجاز المرســل في مسجد جامعة بغداد فالقبة جزء من المسجد في العمارة التقليدية ، ولكونها جزءا مهما منه فقد استعيض بها عن المسجد واستخدام الكناية في باب الفتوح في القاهرة في مصر تعبير عــن القــوة والمنعــة ٠

ويتبين مما سبق ان الاستفادة من انواع البديع والبيان المذكــورة سابقا في القياس والمماثلة في العمارة تهييء كثيرا من الابواب المفتوحة للباحثين المعماريين المسلمين لتحقيق الابداع والسبق العلمي والنظري ٠

٣ ــ المماثلة بين الاعجاز الادبي للقرآن والعمارة :

لقد اتجه كثير من المعماريين الى دراسة اثر النواحي الحسية والروحية على العمارة من خلال الرؤىء الشعرية عند الفرد والجماعة امثال لويس كان وشولز متأثرين بفلسفة هايدكر الظاهرية باعتبار الشعر يعبر عن حقيقة الوجود الانســاني ، الا ان هــذه التوجهــات بقيت غير واضحة وتتسم بالغموض والذاتية ، وهنا ممكن ان تضع الدراسات القرآنية اطراً اكثر علمية وموضوعية

بهذا الخصوص . يقول الاستاذ عبدالكريم الخطيب رحمه الله « والصدق الذي نزل به القرآن صدق مطلق تناول الحقائق كلها من جميع جهاتها . الحقائق الكونية والحقائق الدينية والحقائق الدنيوية جميعاً . فكل مقررات القرآن الكريم عن السنن الكونية وعن الوجود الانساني ... قائمة على الحق المطلق الذي لا يتغير ولا يتبدل . وليس كذلك الحقائق التي يتصورها الناس ، لن تخلو من شوائب الضعف البشري ولن تصفو ابداً من كدر الطبيعة البشرية[٣١] .

والاعجاز الادبي هو المتمم للاعجاز اللغوي الا انه يتناول الاحاسيس والمشاعر والنوازع الفنية والجمالية للانسان ، وبذلك فانه يكون نظام فني وجمالي متكامل يمكن ان يستخلصه المعماري لابداع نظام جمالي حيث نجد في التصوير الفني للقرآن امكانية الابداع واسعة فوصف الصورة والحركة والايقاع الموسيقي واللون والظل والتكرار والتوازن والتناسق والاتساق والتماثل والوحدات ، كلها تكون نظاماً فنياً وقواعد للتصوير المعماري ممكن استخدامها في استقلالية الشكل وتلقائية العمارة Autonomous Architecture والانماط الشكلية وبذلك تحقق العمارة النواحي الحسية والجمالية . وبما يوافق فطرة الانسان ويحقق الذوق السليم . حيث يحقق الوحدة والتوازن والنظام والتكرار الا اننا نجد التنوع في الوقت نفسه ، حيث نلاحظ التنوع في العرض بالوصف ، مثل النخيل والاعناب والزيتون الذي يحوي تنوعا في اللون والمشاهد وهناك التنوع في التعبير والالفاظ ، ويتم التناسق والتناسب من خلال نظام صحيح ، سرد عذب ، معنى مترابط ، نسق متسلسل ، تعبير مصور ، موسيقى منظمة ، وبهذا كله يتم الابداع[٣٢] .

٤ ــ المماثلة بين الاعجاز في الاخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل والعمارة :

احدى مقاصد الاخبار والقصص عن الماضي هي العبر والاستنباط من الاحداث والاحكام ، وقد استنبط د. عبدالعزيز ابو الخيل من قصة ذي

القرنين في القرآن الكريم في سورة الكهف استخدام الحديد المسلح في البناء وهو ما تم ابداعه بعد الثورة الصناعية(٣٣) حيث اشارت الاية الكريمة الى استخدام ذي القرنين للحديد في البناء في بناء السد الذي حجز ياجوج وماجوج وبذلك يتبين لنا ان هناك المزيد من امكانية الاستنباط والسبق العلمي في القرآن الكريم •

٥ ـ المماثلة والقياس بين اعجاز القرآن في التشريع والعمارة :

مما لا شك فيه ان للاحكام والتشريع الاسلامي اثراً اساسياً في تخطيط المدنية والعمارة الاسلامية وتشكيلها ، حيث امتازت العمارة الاسلامية باهتمامها بالنواحي المادية والروحية لتشكل كياناً موحداً بين الوظيفة والجمال •

يعد العامل الروحي الثقافي من اهم العوامل التي تحدد شخصية المدنية العربية المتميزة • فالاسلام طبع جميع المدن العربية بطابع الاخلاق التي فرضتها الشريعة • وتوحدت العقليات والعواطف بتأثير الثقافة الاسلامية التي انتشرت عن طريق المسجد اولا والمدارس فيما بعد •

ويمكن تحديد اثر الدين الاسلامي ومفاهيمه الاجتماعية والثقافية بما يأتي :

٥ ـ ١ ـ على مستوى تخطيط المدينة :

أ ـ مكونات المدينة :

١ ـ المسجد : احتل المسجد مركز المدينة ، معبراً عن المركز الروحي والديني والسياسي والاجتماعي والعلمي والاقتصادي حيث ارتبط به كل من :

ـ دار الامارة (مركز الحكم) •

ـ بيت المال •

٢ ـ نمو الاسواق التجارية على خطوط المركز الرئيسة بشكل عضوي حيث تتركز فيها جميع تشاطات المدنية الاقتصادية والمعبرة عن سعي المسلمين للعمل والاعمار .

٣ ـ نمو القطاعات السكنية بشكل عضوي تراكمي حول نواة المدينة « المسجد الجامع » ، والتفاف كل قطاع سكني حول المسجد المحلي معبرة عن ارتباط السكان بعقيدتهم ومركزها المسجد لاداء الصلاة والاستماع الى الخطبة والوعظ والدرس ، وقراءة القرآن والتعلم حيث تميزت بكونها بناء متراصاً ومتلاصقاً ، فكل مسكن معبر عن المؤمن الساكن داخلة معبرة عن الحديث النبوي الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وشبك اصابعه » .

٤ ـ الاسوار والحصون : لتأمين الامن والاستقرار .

٥ ـ ٢ ـ المفهوم الفضائي (العام الخاص) في المدينة الاسلامية :

ان مفهوم الفضاء في المدينة الاسلامية يختلف بشكل اساسي عن مفهوم الفضاء في المدن الاوربية ويأتي ذلك جراء اختلاف المفاهيم الاجتماعية والعام والخاص ذلك انطلاقا من تأثير الفكر الاسلامي .

أ ـ وجود تدرج واضح من العام الى الخاص : الفضاءات العامة الرئيسة لم توجد بشكل ساحات كبيرة خارجية قرب المسجد مثلا كما في التخطيط الاوربي وانما ضمن المباني العامة فهي عامة ضمن المفهوم الخاص ومحكومة بقوانين المبنى العام الذي تنتمي اليه ، فالصحن يخضع لقانون المسجد من الحركة والهدوء والنظافة ... وفضاء المدرسة ضمن نظام ومحددات المدرسة وهكذا ...

ـ الشوارع الرئيسة عامة ولكنها ليست ثابتة وانما فضاء متحرك .

ـ الشوارع الثانوية اقل عمومية ... وهكذا وصولا الى الفضاء الخاص في المحلة واخيراً بالفناء الموجود في المسكن .

ب ـ مفهوم الاتجاهية (المحورية) في فضاء المدينة •

تعتبر المحورية احدى العوامل الحسية والبصرية المهمة التي اثرت على فضاء المدينة الاسلامية والتي تأثرت بدورها بشكل واضح بالدين الاسلامي فالاتجاه الروحي للمسلمين نحو الكعبة المكرمة(٣٤) قال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام • وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجه • الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولاتم نعمتي عليكم لعلكم تهتدون » (البقرة ١٠) فادى ذلك الى :

١ ـ اتجاهيه المسجد نحو الكعبة •

٢ ـ اتجاهية النسيج الحضري نحو المسجد •

٣ ـ اتجاهية الطرق والازقة نحو المسجد •

٤ ـ اتجاهية المساكن نحو الكعبة • قال تعالى في سورة يونس « واجعلوا بيوتكم قبلة » •

ج ـ افقية التخطيط واحترام المقياس الانساني وارتفاع المآذن فقط في خط افق المدينة معبرة عن اهمية المساجد •

٥ ـ ٣ ـ العمارة والمباني :

لقد اثر التشريع الاسلامي على تشكيل العمارة والمباني الاسلامية والمتسمة بما يأتي :

٥ـ٣ـ١ـ سيادة النوع المفتوح نحو الداخل والمغلق من الخارج كنوع اولي في العمارة الاسلامية وذلك بفعل استجابته لمتطلبات البيئة الثقافية والاجتماعية والدينية وتحقيقا للخصوصية وحرمة الفضاء •

٥ـ٣ـ٢ـ التنوع ضمن وحدة النوع بما يحقق تنوع الوظائف واختلاف البيئة المحلية والاقليمية والمناخية والجغرافية والقومية وغيرها من العوامل الخاصة بكل موقع ومنطقة •

٥ـ٣ـ٣ـ تميز العديد من الخصائص التي انعكست من الدين الاسلامي :

١ ـ البساطة والتواضع وعدم التطاول بالبنيان • حيث كان المسكن متواضعا في خارجه بل متقشفا •

٢ ـ احترام المقياس الانساني •

٣ ـ الوحدة والتنوع •

٤ ـ خدمة الانسان وحاجياته •

٥ ـ الاهتمام بالنواحي الحسية الجمالية والتعبيرية •

٦ ـ المحورية والتماثل •

٧ ـ الهندسية والتناسب الهندسي مع العضوية •

٨ ـ انفتاح المبنى نحو السماء من خلال الفناء الداخلي معبراً عن راحة النفس عن طريق الخلود لمناجاة الله(٣٥) •

٩ ـ الالتحام بين المباني للتعبير عن التوحيد والوحدة في الفكر وعدم ادراك المباني ككتل منفصلة كما في المدن الاوربية •

١٠ ـ تأثير عنصر الظل والضوء •

١١ ـ التوحيد بين الجمال والوظيفية والجمال والتقنية(٣٦) •

ان المظهر التخطيطي للمدينة يتأثر الى جانب العوامل الاجتماعية بالظروف المناخية وعوامل الامن والدفاع ثم بمدى ارتباط السكان فيما بينهم • ومن هذه العوامل ما يوضح الاسباب التي جعلت عرض الشارع يقل كثيراً عن ارتفاع المباني على جانبيه لتوفير اكبر قدر من الظلال للمارة فيه وقد يتطور الامر الى تسقيف هذه الشوارع(٣٧) • لقد كانت العوامل الطبيعية المناخية والجغرافية والصحية احدى العوامل الاساسية في اختيار موقع المدينة الاسلامية(٣٨) •

ان تطور المدن الاسلامية اقترن بالاحكام والتشريعات وقوانين البناء التي حددها الفقه الاسلامي فقد عمل الكثيرين من الفقهاء على الاستنباط والقياس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في تحديد الخصائص والاسس والارتفاعات والعلاقات بين الابنية والتخطيط والتشكيل لمحددات الابعاد والارتفاعات والعلاقات بين الابنية والتخطيط والتشكيل لمحددات الشرع الاسلامي(٣٩) .

ولا ننكر هنا تأثر المسلمين في تخطيط وتصميم مدنهم وعمائرهم بالحضارات السابقة لهم حيث ان طبيعة الاسلام في الرغبة بالتطور والتقدم العلمي جعلته يستفيد من تلك الحضارات ويعيد تشكيلها بما يلائم الدين الاسلامي .

٦ ـ الاعجاز العلمي والعمارة :

ـ المماثلة مع الطبيعة والانسان .

ويمثل اتجاه حديث يؤدي الى ابداع نظريات معمارية حديثة ومهمة وذلك من خلال التفكر والتدبر بخلق الله في الارض والسماء والنبات والحيوان والانسان . حيث توجهت كثير من الابحاث المعمارية الحديثة نحو محاولة المماثلة بين الانسان وبين العمارة وذلك من خلال عدة محاور ...(٤٠) .

أ ـ النظام الشكلي ... التماثل ...

ب ـ النظام الخدمي ، اوعية الانسان ... والاحشاء الداخلية .

جـ ـ نظام العزل البيئي ... بشرة الجلد .. ومحافظة الانسان على درجة الحرارة .

د ـ محاولة الربط بين الفلك والعمارة وحركة الكواكب والسماء وما فيها وهي محاولات بدأها علماء المسلمين امثال الكندي والرازي وغيرهم ... وتتطلب حديثا المزيد من البحث لاستنباط نظم ونظريات معمارية حديثة .

وفي القرآن الكريم مفاتيح تلك العلوم التي تحتاج الى التفسير والتأويل وفهم المعنى والتي يمكن ان توصل الباحث الى الجوهر في المعنى • حيث يمثل المعنى روح القرآن ولا شك في ان الروح اهم من الجسد • والذي قد يأخذ عدة اتجاهات من خلال التفكر في معاني الالفاظ والعبارات •

ـ وينبه الغزالي الى اهمية التفكر والتدبر بخلق الله ، حيث ينبه الى النحل وعجائبها وهندستها في بناء بيتها فانها تبني على شكل المسدس كيلا يضيق المكان على رفقائها لانها تزدحم في موضع واحد على كثرتها ولو بنت البيوت المستديرة لبقي خارج المستديرات فرج ضائعة فان الدوائر لاتتراص وكذلك سائر الاشكال ـ واما المربعات فتتراص ولكن شكل النحل يميل الى الاستدارة فيبقى داخل البيت زوايا ضائعة كما يبقى في المستدير خاج البيت فرج ضائعة فلا شكل من الاشكال يقرب من المستدير بالتراص مثل المسدس وذلك يعرف بالبرهان الهندسي(٤١) •

الاستنتاجات والتوصيات :

١ ـ ان معجزة القرآن العظيم باقية في كل مكان وزمان وان مصدر قوة القرآن وروحانيته وسلطانه وعلمه هو علو الجهة التي صدر منها وهو الله عز وجل وان القرآن الكريم بحر لا ينفذ ماؤه وعلمه وان المماثلة بين القرآن ومجمل العلوم ومنها العلوم المعمارية سوف تقود الى التقدم والسبق العلمي •

٢ ـ ان المماثلة بين انواع الاعجاز القرآني السابقة الذكر والعمارة تقود الى تحقيق نظريات فلسفية معمارية ، وأساليب تخطيط ونظريات جمال ، ونظم وقواعد شكلية وتركيبية ولغة معمارية جديدة (مخطط رقم (٢) •

٣ ـ ان تفكر المعماري بجانب المعنى والتفسير والتأويل في الالفاظ والعبارات مثل (مفهوم العمارة والاعمار والسكن والدار والبيت) تمكنه من

فهم جوهر العمارة والعمران (وهو هدف سعى اليه كثير من الفلاسفة امثال هايدكر وغيره مع فهم الانسان وطبائعه وغرائزه ونفسيته (وهو ما اهتم به كثير من العلماء كل ذلك يمكن المعماري من انشاء فلسفة علمية في تحقيق عمارة انسانية تخدم الانسان وتحقق اعمار الارض بما يرضي الله والفطرة السليمة للانسان .

٤ ــ ان الغيوب والعلوم التي أشار اليها القرآن كالعلوم الطبيعية والكونية مهمة وحيث اننا في عصر استخدام هذه العلوم فينبغي تسخيرها لخدمة الاسلام وقد تحقق للمسلمين معجزات كبيرة اذا تفرغت طائفة للتفقه في الآيات المتعلقة بهذه العلوم .

٥ ــ يمثل الاعجاز الحسابي في القرآن الكريم احد التوجهات التي تهم المهندسين والتي يمكن من تحقيق بحوث علمية جديدة ومهمة وخاصة عند ربطها بالعلوم الكونية والطبيعية وجانب للمعنى .

٦ ــ اننا نحتاج الى ان تتعامل مع القرآن على انه معجزة تحقق منها المعجزات (كما تحقق ذلك للمسلمين الاولين الذين تحولوا من مجرد قبائل متناثرة الى امة قوية امتدت على ارض شاسعة ولفترة زمنية طويلة محدثة حضارة فاقت حضارات الامم في وقتها) . وذلك ان الله تعالى يعطي الناس على قدر نيتهم .

وان كل ما سبق يتطلب من المعمار المسلم المزيد من التفكر والتدبر والعلم والعمل ....



المصـــادر والمراجـــع :

١ ــ القرآن الكريم •

٢ ــ محمد مصطفى محمد ، (الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم) ، التقديم للكتاب من قبل د• محمد السيد ندا المعمار من جامعة الازهر لكلية الامام الاعظم ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية سلسلة الكتب الحديثة ، ١٩٨١ •

٣ ــ العمري والحبال ، د• وميض بن رمزي ومحمد جميل ، (الموضوعات الطبية في القرآن الكريم) ، جامعة الموصل ، دار الكتب للطباعةوالنشر ١٩٩٥ ، ص١١ •

٤ ــ الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله ، (البرهان في علوم القرآن) ، الجزء الثاني ، عيسى البابي وشركاه ، ١٩٧٢ ، ص٩ •

٥ ــ السيوطي ، (الاتقان في علــوم القرآن) ، (٧ ــ ص١٢٩ ، جـ٤ ص٣) مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ١٩٦٧ •

٦ ــ الاستاذ الحداد ، نظم القرآن والكتاب ، (الكتاب الاول اعجاز القرآن) (ص١٧٧ ــ ١٩١)

٧ ــ د• احمد مطاوب ، (الرسالة الاسلامية) ٢٨ــ١١/١٦٦٩ ، (ص١٠ــ٢٥)

٨ ــ الاستاذ الحداد ، نظم القرآن والكتاب ، المصدر السابق •

٩ ــ د• أحمد مطلوب ، الرسالة الاسلامية ، المصدر السابق •

١٠ ــ سيد قطب ، (التصوير الفني في القرآن) ، دار المعارف ١٩٦٣ •

١١ ــ د• عمــاد الدين خليل ، حــوار في المعمار الكوني وقضايــا اسلامية معاصرة ، الدوحة ، دولة قطر ، ١٩٨٧ ص١١٤ •

١٢ ــ الزركشي ، بدرالدين محمد بن عبدالله ، البرهان في علوم القرآن نفس المصدر السابق ، ص١٤٦ ــ ١٤٨ •

١٣ ــ الزركشي نفس المصدر السابق ص١٦١ ــ ١٨١ •

١٤ ــ الغزالي ، ابو حامد ، (جواهــر القــرآن) ، منشورات دار الافــاق الجديدة بيروت ، ١٩٧٨، ص١٩ •
١٥ ــ محمد مصطفى محمد ، (الفهرس الموضوعي لآيــات القرآن الكريم) ، مصدر سابق ، (ص٢٦٦ ــ ص٢٧٢) •
١٦ ــ الذهبي ، (القــرآن والعلم وآراء المتطرفين والغلاة) ، ١٢ حزيــران ، ١٩٧٢ ، ص١٦ •
١٧ ــ د• محسن عبدالحميد ، (الــرازي ومنهجــه في التفســير) ، الرسالة الاسلامية ، ١٢٩ ، ١٩٧٩ ، ص٤٦ •
١٨ ــ د• وميض بن رمزي ومحمد جميــل ، العمري والحبال ، نفس المصدر السابق ، ص٢٩ •
١٩ ــ عبدالرزاق نوفل ، (معجزة الارقام والترقيم في القرآن الكريم) ، دار الكتب العربي ، بيروت ١٩٨٣م ، ص٣٦ ــ ص٤٧ •
٢٠ ــ بشار نهاد حــداد ، (اعجاز الرقم ١٩ في القرآن الكريم) ، مقدمــات تنظر النتائج ، المؤسسة الاسلامية بيروت ، لبنان ١٩٩٤ •
٢١ ــ ابن تيمية ، (النبوات) دار العلم ، بيروت ، لبنان ، ص٣٣٢ •
٢٢ ــ الجابري ، محمد عابد ، (بنية العقل العربي) ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ، ١٩٨٧ ، ص٢٤٣ •
٢٣ ــ احمد عبدالجبار جودت ، بنية الصورة المعمارية في ضوء نظرية المعرفة الاسلامية اطروحة ماجستير غير منشورة ، ١٩٩٥ ، ص٨١ •

24. Al-Faruqi, Ismail R., and Al-Faruqi, Lois (The Culture Atlas of Islam 1986), p 112.
25. Broadbent, Bunta, Jencks eds, (Sign, Symbole, and Architecture), John Wiley & Sons, 1980.
26. Schulz, C.W., (Intensions In Architecture), M I T press Cambridge 1977. p. 60.

٢٧ ــ العمري والحبال ، د• وميض بن رمزي ومحمد جميل ، نفس المصــدر السابق ص ٨٧ــ٩٣ •

28. Broadbent, G., (The Deep Structure of Architecture) in Broadbent, Bunta & Jencks, eds, (Sign, Symbole, Architecture). John Wiley & Sons, 1980.
29. Mario Grandelsonas (from Strucure to Subject), the Formation of Architectural language, Opptions M I T press.
30. Broadbent, G. J. (Building design as an Iconic Sign System) in (Sign, Symbole, Architecture), John Wiley & Sons, 1980.

٣١ ــ الخطيب ، عبدالكريم ، (اعجاز القرآن) الجزء الثاني، ص١٩٤ ــ ١٩٩٠
٣٢ ــ العمري ، حفصة رمزي ، (أثــر الدين الاسلامي على تكويــن مفهوم الجمالية لفن الزخرفة في العمارة الاسلامية) المؤتمر الهندسي الرابــع ١١/١٩٩٧ ، مجلة الهندسة •
٣٣ ــ عبدالعزيز ابا الخيل ، (الكتاب والسنة اساس تأويل العمارة الاسلامية)، الجزء الاول ، ١٩٨٩ •
٣٤ ــ العمــري ، حفصة رمــزي ، (عمــارة المساجد الحديثة في العراق) ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، ١٩٨٩ •
٣٥ ــ د• عفيف بهنسي ، (العمارة العربيــة الجماليــة والوحدة والتنوع) ، المجلس القومي للثقافة العربية ، ص٣٧ •
٣٦ ــ العمري ، حفصة العمري ، (اثر الدين الاسلامي على تكوين مفهــوم الجمالية لفن الزخرفة في العمارة الاسلامية) نفس المصدر السابق •
٣٧ ــ د• عبدالباقي ابراهيم ، (تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة العربية الاســلامية المعاصــرة) ، مركــز الدراســات التخطيطية والمعمارية ، القاهرة ، ص٤٠ •
٣٨ ــ د• طاهر مظفر ، (تخطيط المدن العربية الاسلامية) ١٩٨٦ •
39. Besim Selim Hakim, (Arabic Islamic Cities) KPI, London England. 1986.
40. Architectural Design, 1996, London W2 34N.

٤١ ــ الغزالــي ، ابو حامــد ، (جواهر القرآن) نفس المصــدر السابــق ص ٤٠ــ٤١ •

العلاقة بين الكلمة واللحن في بعض صيغ التراث والموروث الموسيقي العراقي

أ.د. طارق حسون فريد

* التنوع الجغرافي والسكاني في العراق وعلاقته بتنوع فنونه الموسيقية

العراق هو البوابة الشرقية للوطن العربي . ولموقعه المتميز هذا اصبح يفصل بين الدول الاسلامية الناطقة بلغات مختلفة والواقعة في شماله وشرقه وبين اقطار الوطن العربي التي تمتد غربا في آسيا وشمال افريقيا . وبسبب موقعه هذا كان العراق عبر التاريخ ، ومنذ اقدم الحضارات التي ظهرت فيه ، نقطة التقاء وبودقة تفاعل قل مثيلها بحيث جعلت منه قطرا يتميز بثرائه الحضاري وتنوعه الثقافي وتعدد ملامح التراث والموروث الموسيقي ـ الغنائي ـ الحركي فيه .

كما يتميز العراق بتنوعه السكاني وبتعدد قومياته ودياناته ومذاهبه وطوائفه يتميز ايضا بتنوعه الجغرافي والمناخي . فتكلل الثلوج قمم جباله الشمالية بينما تطلّ حدوده الجنوبية على الخليج العربي . وترتبط صحاريه الشرقية والجنوبية الشرقية بأربع دول عربية . وتتميز جغرافية العراق بطبغرافية متنوعة ، فهناك الغابات والمروج الخضر والسهول المترامية وبحيرات الاهوار الواسعة اضافة لحوضي نهري دجلة والفرات وروافدهما والبحيرات الطبيعية والاصطناعية العديدة .

ولان جغرافية العراق بهذا التميز الفريد على الرغم من صغر مساحته نسبيا ، ولكون تاريخه الحضاري بهذه العراقة ، وسكانه بهذا التنوع القومي، كان من الطبيعي ان تتنوع فنونه الموسيقية ، وبالتالي طرائق ادائها الآلي على آلات موسيقية احتوت على الفصائل الاربعة الرئيسة لها منذ حضارة سومر وبابل وآشور .

ولابد من التأكيد هنا على ان التنوع الاجتماعي والثقافي والفني الموسيقي يجب ان يفهم في اطار الوحدة الوطنية والانتماء القومي لقيم الحضارة العربية الاسلامية كنمط في الحياة وفي النفسية والسلوك والتذوق الفني والتحسس الجمالي والتطلعات الانسانية . فحضارة العراق العربية الاسلامية وعبر القرون الاربعة عشرة الماضية من مسيرتها قد استطاعت ان تحافظ على شخصيتها الجوهرية وملامح اصالتها الاساسية على الرغم من كونها كانت مفتوحة النوافذ على مختلف الثقافات المعاصرة عبر مسيرتها الخصبة .

ويوزع العراق المعاصر الى اكثر من منطقة جغرافية متميزة الملامح تبعا لاختلاف التضاريس والمناخ والتنوع السكاني والمعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية وغير ذلك . وتكاد تكون جميع مناطقه ، وماعدا المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والفرات جنوب بغداد وشمال القرنة ، لها امتدادات طبيعية خارج حدوده الدولية . فتمتد المنطقة الشمالية (الجبلية) شمالا وشرقا نحو تركيا والهند ، وترتبط المنطقة الشرقية ، ذات المساحة الاوسع نسبيا ، باقطار المشرق العربي الاخرى ، اما منطقة جنوب العراق فيتعدى امتدادها اقطار دول الخليج العربي ليتصل الى سواحل القارة الافريقية الشرقية والهند. ولقد عبرت من خلال هذه الامتدادات الجغرافية الطبيعية من والى العراق مختلف التأثيرات الفنية جيلا بعد جيل ، واستطاعت ان تكون الملامح الاساسية لشخصيته الفنية .

ونتيجة لهذا التنوع الجغرافي والمناخي والسكاني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي تنوعت العلاقة بين الكلمة واللحن ايضا ، وبخاصة في صيغ وانماط الموروث الشعبي المتناقل شفاها (الادب الشعبي ، الغناء ، الحكايات والاساطير ..) . بينما نجد هذه العلاقة هي اقرب للثبات في الاشكال الغنائية التقليدية الدينية منها والدنيوية (ترتيل القرآن الكريم ، غناء المقام والموشح ..) .

* تبلور اللغة الفنية في العراق وتأثيراتها على عناصر المادة الموسيقية ـ الكلمة واللحن ـ

منذ ظهور المجتمعات الاولى في وادي الرافدين ادركت اهمية الفنون الجميلة ، ودورها في التعبير عن الافكار والمفاهيم والقيم . ونتيجة لهـــذا الادراك الواعي المبكر لعلاقة الفنون الجميلة بالانسان ، ودورها في خلـــق اجواء سعادته واطمئنانه ، واثارة البهجة والسعادة في حياته ، ورفع مســتوى رهافة مشاعره وعواطفه ، وكذلك تحفيزه على عمل الخـير وتجنـب الشر ، ومساعدته على التأمل والتجلي والتسامي ، ظهـرت تدريجيا في العـراق بما يشبه المؤسسات الادارية والثقافية والتعليمية عبر العصور وعُرفت بمسميات مختلفة . كما تراوح ارتباطها بين السلطة الدينية والدنيوية وانتمائها اليها . وكان من بين واجبات هذه المؤسسات دراسة العلاقة بين الفرد والمجتمـع والدولة والفنون الجميلة ، ومن ثم تشريع وتنفيذ الافكار المحورية الرئيسة التي تنظم هذه العلاقة لما فيه خير المجتمع .

ومع تغير فلسفة الحياة ومنطلقاتها الدينية والدنيوية تغيرت كذلـــك الافكار المحـورية الرئيسة الخاصة بأساليب التعـامل مع الفنون الزمنية والتشكيلية . والناظر لما اختزنته كتب التراث العربي ومدونات الحضـــارات القديمة المتعاقبة في وادي الرافدين واماكن اخرى ، ليجد الكثير والمتنوع حول ما قيل بشأن الفنون الزمنية ، ومن بينها ما قيل حول الفنون الموسيقية ، ونعني بذلك نصوص الاغاني وألحانها وايقاعاتها ورقصاتها وآلاتها الموسيقية .

ان ما حُفظ لنا مدونا حول الفنـون الموسيقية ، ونعني الغناء والعزف والرقص ، يعكس الاتجاهات الفلسفية المتعاقبة ، ومواقف السلطة التشريعيـة والقضائية ، وطبيعة التقاليد والعادات والاعراف السائدة في كل مرحلة مـن مراحل المسيرة الحياتية ، وبالتالي يجسد علاقة الفنون الموسيقية بقيم السماء والارض عموما .

لقد بات من المستطاع تفسير ظواهر اللغة الفنية التي برزت عبر حركـة التاريخ الانساني ، ومن ضمنها حركة التاريخ العربي قبل ظهور الاسـلام

وبعده ، بكل موضوعية وتجرد ومن منطلقات ومناهج فلسفية متعددة وذلك على اساس ان تلك الظواهر قد ظهرت اصلا لتعبّر عن مكنونات الذات وشعور الجماعة ، وعن الوجود الانساني وحاجة الفرد والمجتمع والدولة ، وابتكرت لتجسد الطموحات الخيرة والامال المشروعة والمنطلقات الذوقية والجمالية والحسية •

لقد اتخذت وسائل التعبير العربي الفني لها لغة ، بل لغات فنية متطورة جيلا بعد جيل ، واعتمدت على التعامل مع مواد مختلفة وظروف متغيرة ، وتمكنت من صبغتها بشخصيتها الحضارية المتميزة • فأضافت الى تلك اللغات الفنية العديد من السمات البيئوية الخاصة من خلال التفاعل مع حركة تطور مسيرتها الحضارية في بيئات جغرافية مختلفة متوزعة في القارات الثلاثة الاقدم آسيا وافريقيا واوربا •

وبرزت نتيجة لكل ذلك التفاعل الايجابي المتواصل اشكال وانواع فنية لم تُعرف من قبل في مجال اللغة وآدابها ، والاصوات وانغامها ، والحركات وايقاعاتها ، والالوان وظلالها ، والكتل وسطوحها وغير ذلك من اشكال التعبير الفني المتجسد عن طريق استغلال الطاقة والمادة المختزنة في الانسان العربي او المتوفرة في محيطه الحضاري المتنوع •

ان التنوع الكبير للفنون الموسيقية التقليدية والشعبية لا ينظر لها على انها ظواهر فنية منعزلة او مقطوعة عن القيم الروحية ومحيطها الاجتماعي ومناخها الجغرافي وواقعها الاقتصادي ، وعن مختلف علاقاتها الحضارية والثقافية الاخرى ، بل تأخذ بنظر الاعتبار كل هذه العوامل والظروف والتأثيرات عند البحث عن مبررات هذا التنوع او ذلك التباين في بناء القصيدة وتركيب المقامة وبنية الاغنية والتلاوة والترتيل ، وهيكل اللحن ، وتنوعات الحركة التعبيرية الراقصة ، وغير ذلك •

ومن يحتسب التراث والموروث الموسيقي العراقي هو جملة نصوص وألحان وايقاعات وأساليب أداء ، وطرائق تعبير تؤدّى وتنتج وتستهلك في

مناسبات معينة ، تتكرر عبر الفصول ومراحل حياة الانسان المختلفة ، فانه لم يصب كبد الحقيقة بالكامل • فعلى ذلك الباحث الدارس ان ينطلق من كونها تُنتج وتؤدى وتستهلك بارتباط وثيق مع كل امتدادات التراث والمـــوروث الموسيقي العمودية والافقية ، ونعني امتدادات العمـق التأريخي والارتباطات مع الثقافات الانسانية المعاصرة لمسيرتها غير القصيرة •

فأي تناول للتراث الغنائي التقليدي والموروث الغنائي الشعبي بالدراسة والتحليل لا يمكن فصله عن مسيرة العراق المعاصر ومقدرته الذاتية العاليـة على احياء التراث والموروث الفني من جهـة ، واستلهامه بما يتناسـب مـع منطلقات العصر من جهة اخرى • ان مسيرة الفنون الموسيقية في العراق المعاصر يمكن ان تحدد وتثمن ليس من خلال تناول مختلف الصيغ والقوالب الغنائية الموسيقية الحركية بالدراسة والتحليل وابـرز عناصرها الموسيقية فقط ، بـل من خلال فهم ابعاد الموقف الرسمي منها ايضا ، ومعرفة الموقف التشريعي مـن الفنان الموسيقي ، وادراك دوره الاجتماعي ووظيفته الحياتية •

لقد بات من الواضح قيمة التراث والموروث الموسيقي ودلالاتهما مـن حيث المضمون المرتبط بمسيرة الحياة والمجتمع ، واصبح من الممكن تفسـير وجودهما ابتكارا واداءا وتلقيا بين مختلف الاوساط والشرائح العراقيـة ، إلا انه مازالت هناك مجالات عديدة اخرى لم تتوضح كما يجب من حيث مستوى الدراسة المنهجية لعناصره الموسيقية وما يرتبط بها من عناصر اخرى كاللغــة والحركة وغير ذلك •

ومما لاشك فيه ان هذه المجالات المختلفة التي لم تتناولها يد الباحث كما ينبغي بحاجة الى عــدد من المتخصصين في مختلف فـروع الدراسـات الانسانية ، لنتمكن بعدئذ من تحقيق المستوى المطلوب من العلمية في التناول والبحث والدراسة والتحليل والدراسة المقارنة ، ثم اسـتخلاص الاجابـات المطلوبة حول التراث والموروث الموسيقي المتنوع ابتكارا واداء واستهلاكا •

* العلاقة بين العنصر اللغوي والصوتي والحركي في الغناء الشعبي

تبتكر الاغاني الشعبية المعبرة عن الحالات الوجدانية المختلفة ، او المصاحبة لانجاز الاعمال اليومية ، تلقائيا وتنبثق من احساس فطري واحتياج غريزي عفويا • ويتبلور العنصر اللغوي واللحني والحركي وغير ذلك للمأثور الشعبي خلال عملية الممارسة المتكررة ضمن مناخ الحالة النفسية الجماعية والثابتة نسبيا ، او مع اداء عمل متكرر ، أو المشاركة في تأدية فعل حياتي ما بدورات زمنية متتالية خلال جيل واحد او عدة اجيال • ويفترض ان يتم الابتكار والتبلور في بيئة اجتماعية وثقافية واقتصادية واحدة او متقاربة ، تتشابه في همومها وهواجسها ورغباتها وآمالها ، كما تمتهن مهنة واحدة ، او تقوم بنمط واحد من العمل او الاعمال المتقاربة •

ان ايّ اختلاف في المستوى الفني للاغنية الشعبية ، او اي تباين في اسلوب بنائها الموسيقي او طابعها العام يتأتى قبل كل شيء من سيطرة او بروز هذا العنصر او ذاك من العناصر الموسيقية المكونة لها • وعند الافتراض ببروز عنصر النص على عنصري اللحن والايقاع في اغنية شعبية ما نفهم من ذلك بان كلماتها قد اكتسبت مسارا لحنيا وتركيبا ايقاعيا معينا عندما كانت تتكرر خلال مختلف الفعاليات الاجتماعية المنبثقة من التقاليد والعادات والاعراف والطقوس والمراسيم •

وتصبح لكلمات الاغنية ، وقد تكون عبارة قصيرة او مقطعا شعريا او اكثر ، وظيفة محددة تشبع الاحتياج النفسي المساعد على تحمل الصعاب ، وتحفيز الهمم ، ودفع الملل والانقباض النفسي ، وتقضية الوقت • كما تمنح الاحساس بالرضى والراحة من جهة ، وتصبح لها وظيفة تنظيم العمل الجماعي وجهده العضلي (الفسيولوجي) المضني ، او وظيفة تنسيق اداء اي فعل حياتي ديني او دنيوي ، جماعي او فردي من جهة اخرى •

فمع مرور الزمن تتبلور عناصر الاغنية الشعبية الرئيسة ، وتكتسب صفة الثبات والرسوخ النسبي المرتبط قبل كل شيء بالآلة الموسيقية التي يمتلكها الانسان ، اي جهازه الصوتي ، او حنجرته ومدى تطورها ومستوى صقل امكاناتها الادائية . كما ان صلة المسار اللحني والتركيب الايقاعي لهذه الاغنية الشعبية او تلك وثيقة بمعطيات المناخ الصوتي الطبيعي والمستوى الثقافي والحضاري الذي تعيش فيه تلك الجماعة او ذلك الفرد المبتكر والمؤدي لها .

وهناك العشرات من مختلف الالفاظ والكلمات والعبارات والاشطر الشعرية والابيات التي يرددها الفلاحون والمزارعون والصناع والمهنيون والصيادون والبحارة والباعة الجوالون وما الى غير ذلك خلال تأدية اعمالهم اليومية . او ترددها الجدات والمربيات والامهات خلال قيامهن بواجباتهن المنزلية وتربية اطفالهن واحفادهن ، كنوع من التعبير عما يجيش في صدورهن من الوجد والالم والفراق والامل والسعادة والرغبة وغير ذلك .[1]

ولعل لعناصر الموسيقى ، التي تدخل في اسلوب اداء مقاطع النص القاءا او ترتيلا او انشادا او غناءا ، الدور الذي لا يعوض في وظيفتها الذاتية والاجتماعية والفنية ، فضلا عن تسهيلها لمهمة الاداء الفردي او الجماعي المكرس لتلك الوظيفة الاجتماعية ، والمتصف بالبساطة والعفوية والتلقائية . وبالطبع مع تنوع اساليب الاداء تتنوع وتختلف التراكيب الايقاعية والمسارات اللحنية ، التي تساير عملية انسياب مقاطع كلمات النص من افواه منشديه او مرتليه او مغنيه .

ومن منطلق ما سبق تبلورت مع الوقت في العراق وترسخت في لا شعور مواطنيه وذاكرة الاجيال مختلف الاهازيج والحدوات والمواويل و (الهوسات) والطقاطيق والادعية والتهاليل والتراتيل والاغاني المختلفة ، التي رافقت بعضها عمل الرجال والنساء في القرى والارياف والحواضر والمدن والبوادي والواحات والمواني والاهوار ، وعبّر بعضها الاخر منها عن رحلات الصيد

والقنص والسفر والتجارة والغوص ، واوقات الاستعداد لصد هجوم الاعداء والطامعين والدفاع عن الديار والعرض والشرف والقبيلة والشعب والوطن •

ومن خلال الدراسة الاولية لاغلب صيغ الغناء الشعبي وقوالبه ، المذكورة اعلاه ، يلاحظ التقارب الكبير ، الذي يصل حدود التطابق فيها ، بين ايقاع العنصر اللغوي وايقاعها الموسيقي وبين المسار اللحني لالقاء مقاطع كلمات النص ، من قبل المؤدي او المؤدين ، ولحن طبقات اصوات المرددين • كما نجد ان كلا هذين العنصرين ، اي اللغوي والموسيقي ، مكرسان في الواقع للتمازج مع العنصر الحركي •

من الآراء الجادة المطروحة حول تحديد الخصائص الموسيقية الشعبية ، هو الرأي القائل : « بالاخذ بعين الاعتبار دوما بان المنطلق الاساسي العام لاي تحديد هو التركيب الموسيقي والنص الادبي معا ، مع الاولية التي يحتلها الواحد وتارة الاخر من هذين العنصرين ، عند الحديث عن الخصائص الموسيقية الشعبية » •(٢) وفي هذا الرأي يلاحظ استثناءً للعنصر الحركي الذي لانعتقد بانه يقل شأناً عن العنصر اللغوي وعن العنصر الصوتي ، اي التكوين اللحني والايقاع الموسيقي ، عند المحاولة لالقاء بعض الضوء على قضايا المفهوم والمقومات والخصائص للفنون الشعبية •

وكما نعتقد ، ان المنطلق الاساسي العام لاي تحديد يُطرح هو : الاخذ بنظر الاعتبار العناصر الثلاثة المكونة لمحتوى وشكل الفن الشعبي في آن واحد في حالة اشتراكها في بنيته الاساسية مع ابراز دور ذلك العنصر الذي يحتل الاولية على حساب ثانوية العنصرين الاخرين ، ومع معرفة العنصر الثاني في تسلسل الفاعلية في تحديد الخصائص والمميزات الفنية •

ونرى ان العنصر الحركي(٣) يلعب دورا بارزا في كثير من الاحيان في تحديد شكل ومضمون العنصر اللغوي او العنصر الصوتي ، او كليهما معا • وحقا هذا ما يحصل في الكثير من الممارسات الحركية اليومية خلال تأدية

مختلف الاعمال . فيتكيف العنصر اللغوي او الصوتي لطبيعة الفعل الحركي المؤدى وايقاعه اسواء كان دينيا أم دنيويا . ونشاهد هذا بوضوح في ما يُسمى باغاني العمل في فنون البحر والاهوار او البر او الحضر . كما ان العنصر الحركي يسهم بفاعلية في ايجاد التوازن الفني المطلوب بين طول الجملة اللحنية والتركيب الايقاعي الموسيقي وعدد المقاطع اللغوية للنص من جهة ، وبين نوعية الحركة التعبيرية الراقصة من جهة اخرى .(٤)

اني مع الرأي القائل : « ان الموسيقى الشعبية لها من الغنى والتنوع ما يجعل كل تحديد او تصنيف او تخصيص من المقاربات العلمية القابلة للنقد والمناقشة »(٥) . ونفسر هذه المقولة على اعتبار العبارة (كلّ تحديد او تصنيف او تخصيص) الواردة في الاقتباس اعلاه يقصد منها كلّ ما يمس جوهر العناصر الثلاثة الاساسية المكونة لمادة الفن الشعبي ، وهي العنصر اللغوي والصوتي والحركي ، والتي هي في مستويات مختلفة من زاوية التحديد .

ولأجل ايضاح ذلك لابدّ من الاشارة الى ان العنصر اللغوي (اي النص الشعري او النثري المغنى او المنشد) والعنصر الحركي (اي مجموع الحركات التعبيرية الراقصة المرافقة لاداء النص) يرتبطان في الواقع من حيث اداؤهما بالجانب الفسلجي للجهاز العظمي والعضلي والعصبي والصوتي لجسم الانسان . اي ان هناك ضوابط فسلجية تحدد مادة العنصرين السابقين ونوعيتهما ، اضافة الى وجود ارتباط آخر للعنصر اللغوي ، ونقصد بذلك ارتباطه بالجانب الفيزيائي من حيث مادته اللحنية . فهذا الجانب تتحكم فيه قوانين ثابتة تخص موضوع حدوث الاصوات عند الكائنات الحية عموما .

ان لكل مقطع لفظي او كلمة دالة ذات معنى يصدرها الانسان تتألف من اكثر من مقطع لها صوتها ، وتدعى طبقتها او درجتها او نغمتها . وهذه الاصوات او الطبقات التي تكوّن في النهاية موسيقى الكلام ، او موسيقى لغة التخاطب

اليومي ، لا تأتي في الواقع من فراغ بل ترتبط بالاصوات الطبيعية والاصوات الحيــة الاخــرى وتتحكم فيها قوانين معينة لا يســع المجال لذكرها ضمن هذا السياق •

اما العنصر الثالث (العنصر الصوتي) الذي يحدد طبيعة انسيابية مقاطع النص وتباين طبقة تلك المقاطع ضمن اداء الحركة التعبيرية ، فانه يرتبط كذلك من زاوية استخراجه من الجهاز الصوتي الانساني بالجانب الفيزيائي من حيث قوانين حدوث الصوت وانتشاره وتغير لونه وقوته ومواقع النبر فيه وتداخل موجاته وانعكاساتها وغير ذلك • ونجد ان هذا الارتباط على الرغم من تنوعه وغناه فهو اكثر امكانية للتحديد والتصنيف والتخصيص من تلك المواضـيع التي تتعلق بمسائل ارتباط العنصر الصوتي ومجالات دراسته من زاوية المنظور الفلســفي والنفسي والاجتماعي والجمالي والذوقي والتذوقي والابداعـــي الابتكاري والتلقي الاستهلاكي وغير ذلك لكثير حقا في مجــالات فــروع الدراسات الموسيقية المقارنة المعاصرة •

وفي مجال الحديث حول العلاقة بين الشعر والموسيقى (الكلمة واللحن) في الفن الشعبي وعلاقة كل منهما بالحركة التعبيرية او الراقصة في حالة وجود هذه العلاقة بهذه النسبة او تلك ، يتطلب الرجوع الى الوراء قليلا والبحـث عن البدايات ان جاز التعبير • فمنذ ايام عكاظ والمربد ، وفي جميع مجــالات تحرك الشعراء العرب الشعبيون في فضاء البادية الفسيح ، واجواء قصـــور الامراء والسلاطين والملوك والخلفاء ، ومناخات قــول الشعر وقرضه احتياجاً ومعاناة وتعبيرا لشتى المواقف والظروف عبر تاريخ الامة الطويل ، كان الشعر العامي والفصيح لا يقرأ في المحافل وعلى الملأ قراءة بل يلقى القــاءا منغمــا معتمدا على عناصره الموسيقية الذاتية ، اي معتمدا على ايقاعه الموســيقي الداخلي الناتج من تفاصيل اوزانه العروضية •[٦] وعلى لحنه الموسيقي الداخلي الناتج من امكانية التحكم في تمديد او تقصير الاحرف الصامتة بعد تحريكها

بوساطة احرف العلّة والحركات الثلاثة ، وامكانات الادغام والاظهار والاقلاب ، وغير ذلك بهدف تجسيد المعنى وابراز المضمون .

فمن خلال دراسة عملية التحول في الاداء دراسة جادة مستفيضة يمكننا التحدث بحدود الموضوعية المطلوبة عن الموسيقى الذاتية للعنصر اللغوي النثري او الشعري ، وبنفس المستوى يمكننا التحدث عن النسيج الموسيقي اللحني والايقاعي الذي يتمازج مع العنصر اللغوي مغيرا مستوى ادائه . وقد تتطابق عناصر اللغة والموسيقى الى حد ما كما في لغة التخاطب اليومي ضمن مختلف الحوارات الحياتية . الا ان هذا التطابق النسبي سرعان ما يبدأ بالتباعد كلما تحولنا من حالة ادائية الى اخرى اكثر تطورا . كتحولنا من الكلام الى الالقاء ، ومن الالقاء الى الترتيل ومنه الى الانشاد ثم منه الى الغناء . ثم من غناء ابسط شكلا الى غناء اعقد شكلا ومحتوى وتعبيرا ووظيفة واداءً وغير ذلك . وبالطبع يجب ان لا ننسى هنا ضغط العنصر الحركي المرافق لاي اداء لغوي موسيقي في حالة اشتراكه ، ولابد من اشتراكه بهذه النسبة او تلك .

فعند دراسة هذا الجانب على وفق منهج علمي واضح يمكننا التحدث آنذاك عن موسيقى العنصر اللغوي النثري او الشعري ، والعنصر اللحني والايقاعي الداخل في طبيعة ادائه لنداءات الباعة وترانيم الامهات ، ومختلف اغاني العمل والافراح والطقوس الدينية والمراسيم والمآتم . فضلا عن امكانية الوصول الى اجابات محددة حول موسيقى الكلام الاعتيادي اليومي ، التي هي الينبوع الاساسي لاي طابع موسيقي قومي ووطني .

ومن دراسة هذا الجانب يمكننا التحدث عن طبيعة العلاقة بين الايقاع الشعري الذي هو موسيقى وبين الايقاع الموسيقي الذي هو شعر من دون كلمات ، وكذلك بين اللحن الشعري الناتج من تتابع طبقات صوت الشاعر عند القائه لاشطر قصيدته او المهوال لاهزوجته ، والتي هي جميعا نوع من المسار

اللحني الذي ترافقه الحركات التعبيرية ، وبين اللحن الموسيقي بطبقاته وابعاده واجناسه وتحلياته الزخرفية التي لابد أن يتقيد بها كـل اسلوب فني لالقاء النص او انشاده او غنائه على وفق الاشكال الفنية المختلفة بهذا المستوى الموسيقي النسبي او ذاك •

ان العلاقة بين الشعر والموسيقى ومع مسيرة التطور الحضاري قد تنوعت نسبيا بما ينسجم مع حركة تطور هذين الفنين مـن حيث الشكل والمضمون والوظيفة وأساليب الاداء فالعلاقة هذه نمـت وتوسعت وتعمقت عندما ازداد ضغط عناصر الفن الاول (الكلمات ـ الشعر) على عناصـر الفـن الثانـي (الالحان ـ الموسيقى) او بالعكس في احيان كثيرة • وفي حالة انتقـال اداء كلمات الشطر الشعري ، ولنقل المنظومة او القصيدة ، من حالة الالقاء الـى حالة الترتيل او الانشاد او الغناء ضمن اي شكل موسيقي ، او قالب او نمط فني معروف او مبتكر جديد يعني هذا ازديـاد ضغط عنصر الايقاع الموسيقي او المسار اللحني على عنصر ايقاع الوزن العروضي والمسار اللحني لالقائه •

وكلما ازداد الضغط بين عناصر هذين الفنين ازدادت نسبة التقاطع او التباين او التباعد بين الايقاع الشعري والايقاع الموسيقي • فاختلفت مواقع الضغط والنبر بينهما وتنوعت مواقع القوة والضعف لمكوناتهما الايقاعيـة ، وكذلك ازدادت نسبة تكيـّف مقاطع لغة الاشطر الشعرية ، من خلال التطويل والتمطيط والتقطيع والتوقف ، الى وحدات المسار اللحني الموسيقي ، ولنقـل نغماته ونماذجه التقليدية الجاهزة المعروفة وغـير المعروفة واسـاليبه الفنيـة المتوارثة والمبتكرة ، والتي تكونها مختلف الابعاد والاجناس (والسـلالم) والمقامات •

وفي الواقع نتيجة لتنوع العوامل السابقة تغيرت طرائق الغناء الشـعبي واساليبه الفنية في العراق • ولهذا السبب تغيرت اطوار الغناء كما في حالـة

غناء الابوذية مثلا في جنوب العراق ووسطه ، تلك الاطوار الغنائية الشعبية التي تنسب الى اسماء العشائر او الطوائف او المدن او الاشخاص ، او الى الاسلوب الادائي نفسه لكونه شجيا او ثقيلا صعبا .(٧)

العلاقة في عصرنا بين عناصر الموسيقى (الايقاع واللحن) وبين عناصر الشعر الشعبي باشكاله المختلفة (المَوال) ووزن الزهيري الايقاعي وتركيبه العروضي تحديدا ، علاقة تمثل ذروة تباور الملامح الفنية من حيث التوضيب والتعامل . ان الذروة هذه ، التي تمثل الجانب الابتكاري والانشائي والتعبيري ، قد اتت من تمازج وانصهار وتباور عناصر الموسيقى العربية المنهجية مع عناصر اساليب الابتكار والنظم الشعري الشعبي المتجسدة في احدى ذروات مسيرته الفنية .

وليس هذا فقط ، بل نجد ان هذه العناصر الفنية اللغوية والموسيقية قد سخرت لتجسيد أحبك وأرصن اشكال وانواع فنون اقطار دول الخليج العربي والجزيرة العربية . تلك الفنون المرتبطة بحياة مجتمعات البادية والمدينة والبحر والاهوار وضفاف الانهار وحقول الرز وبساتين النخيل . ومن هذه الزاوية يتراءى للدارس المتفحص مستوى حبكة ومتانة النسيج الموسيقي اللغوي (الموسلغوي) لفنون البحر والبر وارتفاع مستوى الابتكار والصنعة فيها. فلغة المواويل والابوذيات والدارمي والشيلات والاهازيج وغير ذلك ، وموسيقاها وايقاعاتها والحركات التعبيرية التي ترافقها ، هي بلا شك ذروة الموروث الفني الشعبي الذي تناقل الينا في هذا العصر .

وهنا ، ومنذ البداية في اي تقييم ، لابد ان نأخذ بنظر الاعتبار مستوى زيادة حبكة ومتانة النسيج الموسيقي اللغوي (الموسلغوي) نتيجة ضغط العنصر الثالث (العنصر الحركي) من خلال تداخل الحركة الترضيبية احيانا ، وتداخل الحركة التعبيرية وايماءات فن الرقص المعبرة عن الروح والنفس والوجدان احيانا اخرى .

ان تسمية العنصر الحركي بالعنصر الثالث هنا لا تدل على تسلسل أهميته ، فقد يكون هذا العنصر هو العنصر الاساسي الذي يحدد مادة النسيج اللغوي او الموسيقي او كليهما في بعض الفنون الغنائية الشعبية ، وذلك كما نلاحظ ذلك في اداء الاهازيج والشيلات في الافراح والاحزان وايام السلم والحرب ، واغاني العمل المختلفة .

وفي الوقت الذي تقترب فيه الى حد التطابق مكونات العنصر الموسيقي ـ اللغوي ـ الحركي عند القاء الاهزوجة مثلا وترديدها الجماعي ، نجد ان مكونات العناصر الثلاثة هذه تحافظ كل منها على شخصيتها الايقاعية واللحنية والحركية التعبيرية المميزة عند انشاد او ترتيل او غناء انواع اخرى اكثر تطورا من الغناء الشعبي ، وذلك كالموال المتعدد الاشطر (الرباعي والخماسي والسباعي وغير ذلك) المعروف باسماء مختلفة في الاقطار العربية .

ان درجة التباين والتميز والتفرد بين مكونات العناصر الثلاثة ، او الكلمة واللحن تحديدا ، لمختلف انواع الغناء الشعبي ، وكذلك الغناء التقليدي ، تتناسب طرديا مع زيادة توسع وتعقد اشكالها الفنية وتشعب مضامينها ووظائفها الفنية والاجتماعية .

ومن منطلق هذا القول نستطيع تفسير سبب ظهور الحدود القصوى من التباين والتنوع بين العناصر الثلاثة المكونة لمادة الأشكال الفنية الموسيقية التقليدية (الكلاسيكية) مثل : الموشح وفن الصوت والمواويل والتنزيلات في الغناء البحري الخليجي بخاصة ، وفن المألوف في المغرب العربي والمقام العراقي وما شابه ذلك . حيث في هذه الاشكال الفنية الموسيقية العربية يصعب الحديث عن اي تقارب بين الايقاع الشعري (ايقاع الكلمة) والايقاع الموسيقي (ايقاع لحنها) وبين كليهما والايقاع التعبيري الراقص المرافق لهما .

كما ان المسار اللحني لتتابع اداء مقاطع النص يتجاوز حدود السياق الاعتيادي لطبقات حنجرة الانسان الشعبي . فلا بد من توفر الحنجرة المتدربة

الموهوبة والجهاز الصوتي المتمكن والاذن الموسيقية المرهفة ليستطيع بالتالي المؤدي (الفنان المغني) من توزيع مقاطع النص على نغمات المسار اللحني التقليدي المتوارث ٠ وقد يتطلب الامر منه في بعض الاحيان ، نتيجة لضرورة التحولات النغمية والاسراف في توسيع مساحة المسارات اللحنية ، الى مد مقطع لفظي ما ، او كلمة محددة في النص ، على مسار نغمات اللحن الذي هو في غاية التعقيد والتنوع والطول ٠ وهذا ما يلاحظ في فن الموشح والمقام العراقي مثلا ٠

وفي المقابل ، ولاجل المقارنة ، نجد كل مقطع لفظي في الغناء الشعبي ، كما في الاهازيج يقابل نغمة واحدة من نغمات المسار اللحني فضلا عن التطابق في اطوالهما ، اي ايقاعهما ٠ وفي الوقت الذي يتطابق ايقاع الحركة التعبيرية (الراقصة) في الاهازيج واغاني العمل مع الايقاع اللغوي والايقاع الموسيقي نجد ان الحركات التعبيرية الراقصة في الاشكال الفنية المتطورة لا تتطابق في ايقاعاتها مع ايقاع العنصرين الاخرين ٠

ولاجل هذا التباين والتفرد كان لابد من اداء الحركات التعبيرية الراقصة من قبل فنان راقص موهوب متمرس ، ويعني هذا ايضا انتقالها من الاداء الجماعي المتصف بالعفوية والتلقائية الى الاداء الفردي المتصف بالاتقان والحبكة والغنى في الايحاءات التعبيرية التي تشترك في ادائها اعضاء الجسم المختلفة كالاطراف والارداف والاكتاف والرقبة ، وهذا ما يتبين بوضوح في فن الصوت وفن الموشح ٠

*** الثابت والمتغير في موسيقى التلاوة بما يتعلق بالجانب العروضي الايقاعي (متري ــ ريثميكال) والصوتي (فونوتيكال) واللحني (ملوديكال)**

ان مسيرة البحث الموسيقي المعاصر قد اوضحت وجود ثوابت ومتغيرات في عناصر الفنون الموسيقية كما في غيرها من الفنون ، وسعت لتحديدها وابرازها وتشخيصها بدقة متناهية ٠ ومن دون تلك البحوث الموضوعية ونتائجها

واستنتاجاتها لفقدت ملامح الهوية والشخصية الفنية المميزة ، وانعدمت ملامح الاصالة ، وضاعت خطوط التأثير والتأثر بين الثقافات المتجاورة •

ومن دون مسيرة البحث الموسيقي المعاصر[٨] لما توضحت المتغيرات في ادوات التعبير الفني ووسائله ، والنسيج الغنائي الموسيقي والموسيقي الحركي وعناصره ، ولما بانت التقنيات الادائية لصوت الانسان وآلته الموسيقية ، وكذلك ضاع علينا معرفة الانماط والقوالب والانواع والاشكال الفنية • ومن دون وجود تلك المتغيرات في عناصر الثقافة يعني الخمود والانكماش الفني والتقوقع والبقاء في حالة الاستقرار والسكون الحضاري • وهو امر يتناقض مع طبيعة الحياة المتجددة للشعوب والامم الحية • فالشعوب لا تموت والامم تسعى نحو العلى وان تستكين الى حين •

لقد تناول الشيخ جلال الحنفي موضوع موسيقى التلاوة قبل ربع قرن تقريبا[٩] • ومنذ سنة ١٩٦٤م نشرت مقالات قليلة جدا حول موسيقى التلاوة • وقد علمت من الدكتورة لويس أبسن الفاروقي انها تناولت موسيقى التلاوة من الجانب المتعلق بها كمتخصصة بالعلوم الدينية[١٠] • كما نشر الدكتور توما حسن حبيب حول موسيقى التلاوة ضمن تناوله الموسيقى الدينية العربية بشكل عام •[١١] وفي أواخر عام ١٩٧٥م ارسل الشيخ جلال الحنفي من شنغهاي في الصين ورقة الى لجنة المؤتمر الموسيقي المنعقد ببغداد آنذاك • وكان عنوان ورقته : التجويد من أقدم قواعد النوطة الموسيقية •

ومن دراسة متخصصة للقليل الذي نشر اضافة لبحثي المتواصل في هذا المجال[١٢] توضحت امور مهمة عديدة بخصوص موسيقى التلاوة ، وسأتناول ضمن هذا العرض الجانب العروضي الايقاعي (متري — ريثميكال — metri-rhythmical) والصوتي (فونوتيكال phonetical) لما لها علاقة بموضوع البحث •

ترتكز التلاوة او قراءة النص القرآني على اسس واضحة يلخصها الحنفي بثالوث : النغم والصوت الجميل وأصول الأداء (التراث الشعبي ع٥ س ١٩٧٥ ص ٤٤)[١٣] • وترتبط أصول الاداء في جانب كبير منها بالناحية الايقاعية لموسيقى التلاوة في حالة كون النغم (لحن التلاوة) في اضيق حدوده الممكنة والصوت الجميل (اللون والطابع الصوتي للمقرىء) في أضيق مواصفاته الادائية (ورقة الحنفي ص ٢)[١٤] •

ان العنصر الايقاعي لموسيقى التلاوة يأتي من خلال التزام المقرىء بضوابط لفظية منسقة كالمدّ والادغام والأشمام (اي الاخفاء) التي رسمت لها قواعد ثابتة ووضعت لها اصول معينة لا تتعرض للتغيير والتبديل • ومن خلال دراسة تحليلية كاملة[١٥] لثلاث تلاوات قرآنية عراقية استطعنا بالدليل القاطع البرهنة على صحة القول القائل : بان هناك اصولا وقواعد ثابتة تتعلق بالعنصر الايقاعي للتلاوة • ومازالت هذه القواعد ، وبعد حوالي اربعة عشر قرنا ، يتمسك بها القراء العراقيون[١٥] •

لقد نشرت قواعد التلاوة في كتب خاصة تدرّس في المدارس الدينية العراقية • وتسمى الكتب التي تبحث في كيفية قراءة النص القرآني قراءة صحيحة بكتب علم التجويد او علم الترتيل او قواعد التلاوة • ومعنى التجويد هو التحسين ، ويعني الترتيل الترسل في القراءة ، وتقول الآية الكريمة (ورتّل القرآن ترتيلا) اي جوده تجويدا •

ان كتب قواعد التلاوة قد وضعت من قبل القراء البارزين عبر العصور الاسلامية ، فظهر اول كتاب منها سنة ٣٢٥هـ ، اي بعد حوالي ثلاثة قرون من وفاة النبي محمد (ص) • ولا يكتمل الجانب النظري لقواعد التلاوة الا بالجانب العملي ، الذي يتم بالتلقي المباشر من الافواه • فالمقرىء يطبق القواعد النظرية عمليا بين يدي معلمه (شيخه) ويأخذ من فمه مباشرة كيفية قراءة النص القرآني وعندما يتقن الطالب ذلك يمنحه معلمه اجازة في القراءة •

وفي احدى تلك الاجازات (اي الشهادة بالمفهوم المعاصر) لوحظ بـان مدرس التلاوة لم يكتف بتدوين اسمه كمانح للاجازة ، بل دوّن اسم مـن منحه واسم الذي منح من منحه الاجازة ، وهكذا يتسلسل في ذكر الاسماء والى ان يصل لذلك المقرىء الذي اخذ قواعد التلاوة مباشرة من النبي محمد (ص) وبدون وجود هذا التسلسل (ويقال التواتر) تعتبر القراءة باطلة ويقال غـير متواترة • لقد حفظ المسلمون الاوائل في صدورهم الآيات الكريمة كمـــا سمعوها من النبي محمد (ص) ثم تناقلوها من بعده • ومازال القراء العراقيون شديدي التحفظ على قواعد التلاوة ، وحريصين كل الحرص على صون اللسان في النطق الصحيح للآيات الكريمة التي اكتملت ضمن سـورها قبل وفـاة النبي بثلاثة أشهر •

يلتقي الباحث الموسيقي عند دراسته قواعد التلاوة بالعديد من الفقرات والنصوص التي تشمل الجانب الموسيقي للتلاوة سواءا بصورة مباشرة ام غير مباشرة • فيتطلب منه استنتاج المداول الايقاعي منها • فالفقرات والنصـوص المعنية بذلك بحاجة الى تفسير موسيقي من خلال تطبيقاتها العملية • فعلـى الباحث ان يحلل ويعلل ويستنتج كيفية حدوث التغيير الايقاعي ، وذلك ليـس من نصوص قواعد التلاوة فقط بل من التطبيق العملي لها وما يسمعه مـن المقرىء مباشرة • وبعد توصل الباحث الى فرضيات او استنتاجات محددة من النصوص النظرية عليه آنذاك مقارنتها بما هو موجود فعـلا من مكونـات موسيقية برزت بعد الانتهاء من عملية التدوين والتحليل العلمـي المتكامـل لتلاوة ما او عدة تلاوات ، وذلك حسب سعة الموضوع قيد الدراسة •

ومن دراستي لثلاثة كتب في قواعد التلاوة او علم التجويد وجـدت ان ابرز ما جاء فيها هو كيفية قراءة النص القرآني من حيث اعطاء الحروف حقها ومستحقها على وفق مقاييس لغة القرآن • فالتركيز هنا على ناحيتين اساسيتين هما اولا : كيفية نطق الاحرف العربية والمحافظة على صفات الحرف الذاتيـة

وحالات اظهاره واخفائه وتحريكه ، اي الاهتمام بالجانب الفونوتيكي او الصوتي للحرف . ثم ثانيا : اعطاء كل حرف ما يستحقه من طول زمني في اثناء تلفظه ، والاهتمام باماكن تغير الطول تبعا لتبدل موقع الحرف في الكلمة ، او وفقا لما سبقه او تلاه من احرف . وكذلك التقيد الدقيق بالحالات التي يفقد الحرف فيه طوله الاعتيادي وذلك عند ادغامه بحرف تالي مثلا . كما وجدت في نصوص قواعد التلاوة شرحا مستفيضا لمواقع السكوت مع اخذ الشهيق ، والسكوت القصير مع مسك النفس ، ومواقع الوقف عند قراءة النص ، وكيفية تقطيعه او الوصل بين الكلمات القرآنية ، وغير ذلك .

ومما تقدم نجد ان قواعد التلاوة تعطي اهتماما كبيرا للجانب الايقاعي والعروضي (متريكال) وبذلك استطاعت ان تحدد المقرىء المجاز بتدوين ثابت للتراكيب الايقاعية للاحرف (والمقاطع والكلمات) وان لم تستعمل اي نوع من التدوين الايقاعي الموسيقي المعروف[١٦] . وعلى هذه الارضية الايقاعية الثابتة يخرج المقرىء كل حرف وكل مقطع من النص القرآني الكريم باللون الصوتي المحدد له ، كما اجازت له استعمال النغمة (او النغمات) التي تناسبه وفق مواصفات النغم المجاز بها حسب تفسير بعض الآيات القرآنية وما جاءت به الاحاديث النبوية الشريفة .[١٧]

فعلى المقرىء او المرتل ان يوازن بحذر شديد ودقة متناهية عند ترتيل القرآن بين ما تحدده قواعد التلاوة بخصوص الجانب الايقاعي والصوتي (فونوتيكال) وبين النغم او الانغام الداخلة فيه او المستعملة في التلاوة . وذلك لكي لا يبالغ في استطراده النغمي على حساب التغاضي او تجاوز قوانين التلاوة المحددة بوضوح . وعليه ايضا ان يسيطر على الاحساس الداخلي فيه الذي قد يثيره المسار اللحني ، وذلك كي لا ينحرف او يتجاوز قواعد التلاوة والعرف الصوتي الاجتماعي .

ومن جراء دقّة مدوّن قواعد التتابع الايقاعي للاحرف ، اي اعطاء الحرف حقّه ومستحقّه ، استطاع المرتلون من المحافظة على قراءة آيات القرآن وسوره بالطريقة التي تنسب الى من سمع النبي محمد (ص) مباشرة ، او الى النبي محمد (ص) نفسه ، واستطاع الباحث الموسيقي ايضا ان يتبع بوضوح حزمة الضوء التي تهديه الى الجانب الايقاعي والعروضي والصوتي في التلاوة •

وان كان الجانب الايقاعي والعروضي والصوتي اكثر وضوحا في قواعد التلاوة مقارنة بالجانب اللحني ، فان تحديد سرعة التلاوة (التمبو) وديناميكيتها جاء باسلوب يسمح بحرية الاختيار • فنطلع على نص في قواعد التلاوة يحدد سرعة الترتيل (التمبو العام) بثلاث سرع اساسية (ويقال مراتب) • وهي قراءة سريعة ومتوسطة وبطيئة • ونستنتج من النص علاقة السرعة بالثراء النغمي للحن المستعمل في التلاوة •

ويلاحظ ايضا ان قواعد التلاوة (علم التجويد) لا تحدد المقرىء بتلاوة القرآن بسرعة معينة تبعا لوقت او مكان او مناسبة معينة • كما تعطيه الحرية في اختيار اللحن او تنغيم مقاطع الكلمات مع السرعة التي يختارها ارتباطا بالوظيفة الاجتماعية والعرف الصوتي الاجتماعي لترتيل القرآن ، على ان يتقيد المقرىء تقيدا لا انحراف فيه بالجانبين الاخرين المحددين بدقة في قواعد التلاوة ، وهما : اعطاء الحرف حقّه ومستحقه ، اي الاهتمام بايقاع الحرف وصوته ، وموسيقيا نقول : الاهتمام بالجانب المترو ـ ريثميكال والفونوتيكال •

ولاعطاء التصور العام لمعطيات موسيقى التلاوة نذكر بعض النتائج التي توصلنا اليها من دراسة وتحليل تلاوة المقرىء العراقي الحاج محمود عبدالوهاب المؤلفة من ثلاثة عشرة آية من سورة طه •

مـن سـورة طـه

بسم الله الرحمن الرحيم

(قال أهبطا منها جميعاً بعضكم لبعضٍ عدوٌّ فامّا يأتينّكم مني هُدىً فمن أتّبع هُداي فلا يضلُّ ولا يشقى ــ ١٢٣) (ومَن اعرض عن ذكرى فانّ له معيشةً ضنكا ونحشرُهُ يوم القيامة اعمى ــ ١٢٤) (قال ربّ لِمَ حشرتني اَعمى وقد كنت بصيراً ــ ١٢٥) (قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسَى ــ ١٢٦) (وكذلك نجزي مَنْ اسرف ولم يؤمن بايات ربّه ولعذاب الاخرة اشدّ وابقى ــ ١٢٧) (افلم يهدِ لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم انّ في ذلك لآياتٍ لاولي النّهى ــ ١٢٨) (ولولا كلمة سبقت من ربّك لكان لزاماً وأجلٌ مسمّىً ــ ١٢٩) (فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن انائى الليل فسبّح واطراف النهار لعلك ترضى ــ ١٣٠) (ولا تمدّن عينيك الى ما متّعنا به ازواجاً منهم زهرة الحيوةِ الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خيرٌ وابقى ــ ١٣١) (وأمُر اهلك بالصلوة واصطبر عليها لانسئلك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ــ ١٣٢) (وقالوا لولا يأتينا بايةٍ من ربّه أَو لَمْ تاتهم بيّنةُ ما في الصحف الاولى ــ ١٣٣) (ولو انّا اهلكناهم بعذابٍ من قبله لقالوا ربّنا لولا ارسلت الينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى ــ ١٣٤) (قل كلٌّ متربصٌ فتربصوا فستعلمونَ مَنْ اصحاب الصّراط السّوِيّ ومَنْ اهتدى ــ ١٣٥)

صدق الله العظيم

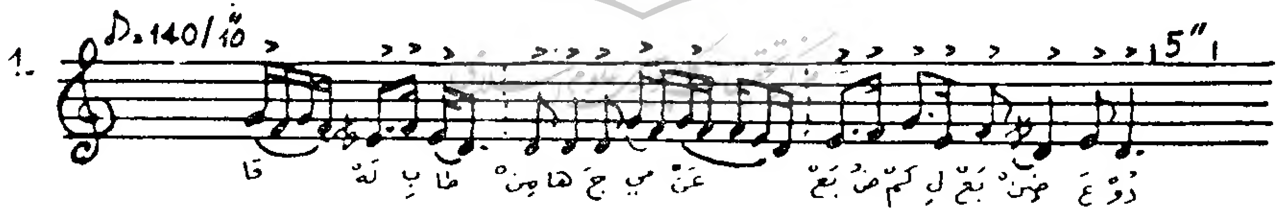
ان المقرىء لا يخرج عن قواعد التلاوة بما يتعلق بالجانب الايقاعي (Rhythmical aspect) إلاّ في مقطعين لفظيين فقط من المقاطع اللفظية (Syllables) الخمسمائة وثلاثة المرتّلة • فالمقرىء قد تقيّد بأطوال الاحرف التي تحدّدها قواعد التلاوة بنسبة تكاد تكون مطلقة • ويلاحظ زيادة عدد مقاطع التلاوة مقارنة بعدد مقاطع الآيات ويعود سبب ذلك الى اعادة المقرىء لبعض كلمات النص عند تقسيمه للآية الواحدة الى اكثر من مقطع (أو جزء) ترتيلي • فثمانية آيات منها تقع في جزئين ترتيليين ، وواحدة منها في ثلاثة اجزاء ترتيلية • علما ان التلاوة هذه تسبقها الاستعاذة وتختتم بالتصديق المؤلفتان من عشرين مقطعا لفظيا لم ندخلهما ضمن نتائج التحليل ومعطيات الجانب الايقاعي •

ولوحظ ان الفرق في عدد المقاطع اللفظية للآيات المرتلة جاء بسبب تأكيد المرتّل على محتوى النص او بسبب تجزئته لنص الآية الواحدة الى اكثر من جزء ترتيلي • فأكبر عدد للمقاطع اللفظية جاء في المقطع الترتيلي رقم (١٤) الذي يمثّل القسم الاول من الآية رقم (١٣١) وهو (٣٦) مقطعا لفظيا • ونصها : (ولا تَمُدَّنَّ عينيك الى ما متّعنا به أزواجاً منهم زَهْرَةَ الحياةِ الدنيا لِنَفْتِنَهُم فيه •) بينما اقل عدد للمقاطع اللفظية جاء في المقطع الترتيلي رقم (١٥) الذي يمثل القسم الثاني من الآية رقم (١٣١) ، وهو (١١) مقطعاً ونصها : (ورِزقُ رَبِّكَ خيرٌ وأبقى •) •

ولا يتشابه الجانب العروضي ، اي طريقة توزيع اماكن الضغط او النبر او الاكسنت Accent ، في الآيات المرتلة من سورة طه • ويعود سبب التباين والتنوع في اماكن الضغط الى اختلاف كلمات المقطع الترتيلي الواحد والى اختلاف عدد احرف الكلمة الواحدة ثم اختلاف اطوالها • فأختلاف الجانب العروضي او الجانب العروضي الايقاعي Metri-rhythmical aspect ناتج من اختلاف عدد الكلمات وعدد أحرفها واطوالها في المقطع الترتيلي الواحد

الذي قد يمثل آية واحدة او جزءا منها • لذا نجد الجانب العروضي الايقاعي للتلاوة او احدى آياتها يتحول في اثناء الاداء الترتيلي من الوزن الثنائي الى الثلاثي ، او من كونه اعتيادي الطابع يقع النبر في بدايته الى سنكوبي الطابع يتأخر النبر فيه عن موقعه الاعتيادي • وبأختصار نقول انه يأتي بانماط مختلفة جدا نتيجة لحصول الضغط على كل حرف (او مقطع لفظي) من النص المرتّل•

ولاجل توضيح الجانب العروضي (او المتريكا) وتنوعها لنأخذ المقطع الترتيلي الاول من سورة طه كما رتلها الحاج محمود عبدالوهاب فنجد اننا يمكننا تقسيمه الى ثلاثة اجزاء • فبينما نجد قد جاء اعتياديا في الجزء الاول يتحول الى طابع سنكوبي في بداية الجزء الثاني وفي نهايته ، وكذلك في وسط الجزء الثالث • وفيما يأتي نعيد كتابة المقطع الترتيلي الاول من سورة طه على المدرج الموسيقي مع توضيح اماكن الضغط او النبَر التي لم تؤشر في التدوين الأساسي للتلاوة •



ان عملية تثبيت السرعة (التمبو) للمقاطع الترتيلية للتلاوة عند التدوين الموسيقي عن الشريط المسجل (وتدعى العملية (Transcription هي العملية التالية المرهقة حقا ، وذلك بعد عملية تحديد المسار اللحني والبناء الايقاعي للاحرف (او المقاطع اللفظية) • ومن الجدير ذكره هو ان السرعة النسبية (او التمبو الرلاتيف (Relative tempo)) المثبتة في بداية المقاطع الترتيلية للتلاوة او على اجزاء محددة منها قد جاءت وفق مقياس مترونوم مالتسل (Melzel Metronom) • وان درجة دقته

تختلف من مقطع لآخر ، رغم بذل اقصى الجهود الممكنة لتحديده بالصـــورة الاكمل واعادة تدقيقه اكثر من مرة وفي اوقات متباعدة نسبيا •

وجاءت السرعة النسبية أقرب الى الثبات او ثابتة تقريبا في عشرة مقاطع ترتيلية ، وقد تغيرت في مقاطع اخرى من هذه التلاوة • فيزداد التغير في بعضها ويقل تدريجيا في البعض الاخر ، أي المقرىء يسرع أو يبطىء في اواسط المقاطع الترتيلية او في نهاياتها • ووجدنا ان تنـوع السرعة النسبية للتـلاوة ليست مسألة عفوية بل مرتبطة بمضمون النص من جهة وبالجانب التنغيمي اي اللحني من جهة اخرى • فارتباطه بالنص ناتج من ان المقرىء يغير سرعة المقطع الترتيلي هذا او ذاك لاجـل ان يوضـح كلمـة معينـة او جملة محـدودة من النص القرآني • وارتباطه بالجانب التنغيمي او المسار اللحني ناتج من ارتفاع نغمات اللحن او تغيير تقنية حركته •

ولمعرفة السرعة المطلقة او الثابتة (وتدعى (Absolute temoo طبّقنا معادلة الباحث كولينسكي (Kolinski M.) لهـا[١٨] • ووجدنـا انها تعكس بوضوح وبدقة درجة كثافة تتابع النغمات في المسار اللحني للمقاطع المرتلة • وتوصلنا الى النتيجة الآتية : كلما كان المقطع المرتّل قريبا الى المجرى اللحني المليزماتيكي كان رقم السرعة المطلقة هو الاعلى • وبشكل عام نجـد ان السرعة المطلقة منخفضة في بداية المقاطع المرتلة كما في بداية المقطع الترتيلي رقم (٢) و(١٧) وترتفع في نهاياتها كما في نهاية المقطع الترتيلي رقم (١١) و (٩) و(٣٠) • فيصل عدد النغمات الى الضعف او اكثر من الضعف لعدد المقاطـع اللفظية المرتلة وذلك بتأثير مباشر من الجانب اللحني •

وبما ان الصمت لا يقل أهمية وقيمة عن الرنين من الزاوية الموسـيقية في الاشكال والانواع الترتيلية الدينية والغنائية الدنيوية ، ولاهمية احتـلال السكتات او اماكن الصمت في سورة طه النسبة العالية من زمن التـــلاوة الكلي ، اي بنسبة ٤٣ر٩٣٪ حاولنا ان نبحث عن المبرر الموسيقي لها ، والبحث

عن الدوافع النسبية المسببة لها ٠ فوجدنا ان اطوال السكتات الأربعة والعشرين بين المقاطع الترتيلية الخمسة والعشرين لتلاوة سورة طه للمقرىء الحاج محمود عبدالوهاب ــ بما في ذلك الاستعاذة في البداية والتصديق في النهاية ــ يتحكم في اطوالها عاملان :

اولاً : عامل النص ، فالسكتة تطول عندما ينتهي نص الآية ٠

ثانيا : عامل اللحن ، فالسكتة تطول عندما يغير المقرىء المقامية (ويقال التونالتيّة أو التوناليتيّة) او عندما يوسّع المقرىء المجال اللحني (ويقال الأمبيتوس) ٠ وقد يشترك عامل النص واللحن في آن واحد فيزداد طول السكتة او الصمت بين مقطع مرتّل وآخر داخل الترتيل العام ٠

وللسكتات في الترتيل القرآني تأثير ظاهري ومباشر على مسامع واحاسيس المتلقين ، فضلا عن فائدتها المباشرة على المقرىء المرتل نفسه ، كنيله الراحة الفسلجية وتصوره للحن القادم ومراجعته نص المقطع السابق ومساره اللحني ٠

وبما يتعلق الامر بالجانب اللحني لتلاوة الحاج محمود عبدالوهاب من سورة طه نذكر ان لحن آيات التلاوة مع لحن الاستعاذة والتصديق قد تكوّن من (٧٣٢) نغمة كان زمنها الكلي (٢٩٩ر٧) ثانية اي بمعدل ٤١٪ من الثانية للنغمة الواحدة ٠ وان زمن اطوال المقاطع الترتيلية قد تراوح بين (٢ر٦) ثانية و(٢٣) ثانية ، وبالتالي اختلفت اطوال النغمات فيها فتراوحت بين (٢٥ر٠) من الثانية و(٤٦ر٠) من الثانية ٠

ويتألف المسار اللحني الكلي للتلاوة من خمسة عشرة نغمة تقع بين النغمة سي كار الصغيرة (b^+) وتدعى نغمة (عراق) ، وبين نغمة مي اثنين (e'') وتدعى نغمة (حسيني شد) اي يتألف المسار اللحني من اوكتاف واحد زائدا رابعة تامة او بعد من نوع الاثني عشر ٠ ويتكون هذا المسار اللحني الكلي من عدد من الهياكل النغمية الرباعية (وتدعى الكفار تتونالنية)

المتداخلة بعضها ببعض او المتتابعة بعضها وراء بعض • ويتغير في المسار اللحني موقع النغمة الأساسية (او المركزية) التي لا تتطابق مع النغمة النهائية احيانا في كل مقطع ترتيلي •

ويُصعب دراسة المسار اللحني الكلي هذا لو جردناه من السكتات (اي فترات الصمت) التي تتبع كل مقطع ترتيلي • لذا دراسة الجانب اللحني للتلاوة وتحليله يتطلب استيعابه كما جاء متسلسلا في التلاوة كما يضطر الباحث الى تجزئة بعض المقاطع الترتيلية الى أجزاء لحنية (تونالنية) اصغر • فمن دون ذلك تختفي الصورة الحقيقية لتتابع النغمات ، والهيكل النغمي ، والنغمات المركزية والاولية والنهائية كوسائل ومنطلقات هامة لتحديد ، مقامية (تونالنيّة) التلاوة •

انّ تحديد حركة النغمة المركزية تشير بوضوح الى البناء اللحني لمقاطع التلاوة الذي جاء كتعبير عن البناء الكثار° تتونالني (او التراخوردي)، الذي تتصف به موسيقى حضارات الشرق المتعاقبة • وعندما تتحد النغمة المركزية مع النهائية في مقطع ترتيلي ما يزداد احساسنا برسوخ مقاميته (بمعنى الجنس الواحد ويقال تونينا ــ Tonina) • وفي حالة عدم اتحادهما نشعر بان التونينه غير مستقرة وقابلة للتغيير في المقطع المرتل • وعن طريق عدم التطابق هذا يذوّب المقرىء حدود التونينا الاولى (الجنس الاول) لينتقل الى الثانية ثم بعد حين الى الثالثة ، وهكذا حتى نهاية التلاوة عندما يعود المقرىء الى التونينا الاولى (او الجنس او المقامية الاولى) •

وللنغمة الأولى أهمية خاصة في التلاوة فعن طريقها يثبت المقرىء حدود المسار اللحني ويوسع المجال الصوتي لكل مقطع ترتيلي • ويتفاوت المجال النغمي **Ambit** لمقاطع التلاوة الترتيلية بين أربع وست نغمات ، ويقل في مقطعين الى ثلاث نغمات • ونجد حدي الجنس (او الهيكل التونالني) في جميع المقاطع المرتلة تقريباً هما اللذان يحددان البناء اللحني للمقطع ، وأليهما تتحرك النغمات الاخرى والقافزة منها خاصة • وقد يتوسع المجال النغمي في بعض

المقاطع الترتيلية ، ويعني هذا اضافة نغمة واحدة او اكثر فوق رابعة المسار اللحني ، او نغمة او اكثر تحت النغمة المركزية •

وعندما تتنوع نغمات المجال النغمي الى نغمات من نوع نصف التون (او الدرجة) وربع التون (او ثلاثة أرباع التون) جنباً الى جنب ، كأن ترد نغمة (سي بيمول) ونغمة (سي بيمول كار) ــ ويقال في المصطلحات النغمية اللفظية نغمة عجم وعراق او نغمة عجم وأوج ــ فيعني هذا ان المقطع الترتيلي قد احتوى على اكثر من هيكل تونالني ، اي اكثر من جنس نغمي ، ولا يعني هذا الامر حصول ما يُعرف بمصطلح المسار الكروماتيكي داخل الهيكل التونالني • ومع ذلك فأن مثل هذا التتابع للهيكل التونالني نادر الوقوع ، وقد حدث مرة واحدة في المقطع الترتيلي رقم ٩ فقط ، ومع نص الآية الكريمة رقم ١٢٨ •

لقد جاءت نوعية الاجناس التونينات (او المقامات) في المقاطع الترتيلية الخمس والعشرين لتلاوة سورة طه للحاج المقرىء محمود عبدالوهاب بالطرائق الاتية :

اولا : اشتراك عدة مقاطع ترتيلية متتالية في تونينا واحدة (كأن تكون من نوع البَيات) على الرغم من تباين المجال النغمي في كل منها احيانا ، واختلاف النغمتين النهائية والابتداء ايضا •

ثانيا : انفراد مقطع ترتيلي معين بتونينا خاصة به ، واختلفت فيه النغمات الاساسية الثلاثة (ونعني المركزية والنهائية والاولية) عن المقطع الترتيلي السابق واللاحق ، وذلك كما في المقطع رقم ٤ •

ثالثا : وقوع اكثر من تونينا في مقطع ترتيلي واحد ، ونتيجة لذلك احتوى على اكثر من نغمة مركزية وذلك كما في المقطع الترتيلي رقم ٩ و٢٣ عندما يُرتّل المقرىء نص الآيتين ١٢٨ و١٣٥ (اي الاخيرة) •

رابعا : ولوحذفنا فترات الصمت بين مقطعين مُرتّلين او اكثر (فترات

الصمت محددة اطولها بالثواني في نهاية تدوين كل مقطع ترتيلي .) لتكـوّن لدينا هيكلين نغميان مرتبطان ارتباطا متصلا (ارتباط پلاگالنْي كما يُقـال باليونانية) . ولو حدث مثل هذا الحذف للسكتات ــ وهي حالة لا تحـدث في هذا الاسلوب من الترتيل ــ بين مقطع الاستعاذة (رقم ١) والمقاطع الترتيلية الثلاثة التالية لأستعرض المقرىء فيها المسار اللحني المعروف باسم البَيـات (ويُقال البَياتي) المؤلَّف من النغمات : رى١ ، مي كار١ ، فا١ ، صول١ ، لا١ ، سي بيمول١ ، دو٢ اضافة لتوسيع المجال النغمي نحو الاسفل بنغمة دو١ ونغمة سي كار الصغير . اي توسيع المسار اللحني بجنس بَيات ثالث يقـع تحت جنس البَيات المركزي تنقصه نغمته الاولى وهي نغمـة لا الصـغير . ويمكن توضيح المسار اللحني هذا على المدرج بما يأتي :

لقد تألفتّ الاشكال (او الأنـواع) التونينية للتلاوة من خمسة أجنـاس من مجموعة الاجناس العربية الثمانية المعروفة ، وهي : البَيات والنَهاوَنـد والرَسْت والسيگاه والعَجَم ، وذلك بغض النظر عن درجات استقرارهـا النغمية ذات الاهمية الكبيرة في تحديد اسمائها في التراث الغنائي ــ الموسيقي (الغناسيقي) العراقي . ان الاجناس الثمانية والعشرين التي تكوّن مجموع المقاطع الترتيلية للتلاوة جاءت اجناس كاملة في ثمانية منها ، وناقصة من النغمة الاولى او الرابعة في اربعة اجناس ، وجاءت موسعة في اربعة اجناس ، وقـد احتوى احدها على النغمة الاولى والثانية والسابعة تحت الاولى ، اي توسع بنغمة تحت الاولى ونقص منه النغمة الثالثة والرابعة للجنس . وبشكل عـام نجد ان المقرىء في بداية التلاوة ونهايتها اكثر استقرارا في استعراضه للاجناس

(او للتونينات) وكان اكثر تنوعا في وسط التلاوة ، وذلك بين المقطعين الرابع والعاشر ، حيث يغير ّ المقرىء النغمة الثالثة او الثانية للجنس او يتم التنوع بواسطة تغيير النغمة المركزية ، فينتقل بذلك بين جنس البَيات على نغمة لا١ والرَسْت على نغمة صول١ وغير ذلك .

ان لحن التلاوة عبارة عن مجرى لحني إنسيابي حرّ غير مجزأ الى وحدات زمنية منتظمة تتناوب في ضغوطها (شدّتها) اي غير مقسّم الى مازورات (او بارات) . ان المجرى اللحني للتلاوة محددا بايقاع النص اي بأطوال احرف الكلمة وفقا لقوانين التلاوة . واستطاعت اللوحة رقم ٢ المعدّة من قبلنا (سنة ١٩٧٨م) من تثبيت الخط اللحني للمقاطع الترتيلية الخمس والعشرين وتحديد خاصية البناء اللحني عن طريق تحديد النغمات الهامة في كل مقطع ترتيلي .

ولو نظرنا الى لحن التلاوة من زاوية الحركة التقنية لهيكله فنجد المقرىء قد اتبع فيها اكثر من اسلوب او نَمط ، وتكاد تكون الانماط متداخلة في كل مقطع . فتقنيات بناء اللحن وحركته قد تكون من نمط المتموجة (Wavy , Waved) وتعني تحرك اللحن بين نغمتين فقط في اكبر مساحة نغمية ، او تكون من نمط الدوّار (Revoling) اي حركة اللحن اكثر ما تكون حول نغمة واحدة من نغماته . او من نمط المتدفق (Fluent) وفيه يسير اللحن بدون ابعاد قافزة ويتحرك على الأغلب بابعاد من نوع الخطوات (اي الثانيات والمتطابقة النغمات Unison) . او يكون من نمط الالقائية (Recitative) او السَرْدية حيث يسير اللحن على نغمة واحدة ، او من نوع المعترضة (Interruption) حيث الحركة اللحنية الانسيابية الهابطة الطابع بأبعاد التدرج ، اي من نوع الثانيات والمتطابقات ، تقابلها حركة قافزة ببُعد واحد نحو الاعلى بأحد الابعاد القافزة أي من نوع الثالثات او الاكبر منها .

وكمثال على بناء اللحن وحركته من نمط المعترضة نورد الجزء الاخير من المقطع الترتيلي رقم ٢٣ عندما يصل المقرىء فيه الى ترتيل قوله تعالى : فستعلمون مَنْ اصحاب الصراط السوي ومَنْ اهتدى) حيث يبرز فيه بُعد قافزمن نوع الخامسة التامة (Perfect 5th) وثالثة الرَسْت (Rast 3rd) .

23. ♪=152 ♪=100 0,8"

مَنْ أَنْ حا بُصْ صِ را طِ سَ وِيْ يِ وَ مَنْ نِهْ تَ هْ دى

ومن زاوية ارتفاع اللحن تبعا للنوتة المركزية نجد ان الطابع العام للمقاطع الترتيلية هو ان اللحن فوق النغمة المركزية (ونحدّده بمصطلح زائد Positive) . اما اذا اخذنا كل مقطع ترتيلي على انفراد لوجدنا اللحن يتحرك تحت النغمة المركزية في مقطع واحد (ونحدده بمصطلح ناقص Negative) ، ويتحرك حول النغمة المركزية في ثلاث حالات (ونحدده بمصطلح متعادل Equal) .

واذا اردنا ان نقيّم مسار اللحن من زاوية تماسكه وتبلوره نجد انه قد جاء بخاصية الليگاتورا (Ligature) والمازماتيكا (Melizma) بنسبة متوسطة او اقل من المتوسطة ، ولا تبرز خاصية الزخارف والتحليات (Ornament) . وللوصول الى ما يُحدّد المسار اللحني من زاوية تبلوره بصورة ادق هو ملاحظة نسبة عدد المقاطع اللفظية الى عدد النغمات في المقطع الترتيلي الواحد . فكانت النسبة العامة هي ٧٣٢ نغمة الى ٥٢٣ مقطعا لفظيا ، اي جاءت بنسبة ٧١٫٤٥٪ لجميع مقاطع التلاوة الترتيلية ، مما يدل على ان التلاوة بشكل عام هي اقرب ما تكون الى الطابع المقطعي (السيلابيكي

Syllabic) • وعندما يتقارب عدد المقاطع الى عدد النغمات في المقطع الترتيلي كما في رقم ١١ ترتفع النسبة الى ١٥ر٩٦٪ ويصبح مقطعي او سيلابيكي الطابع • وعندما تقل النسبة الى ٤٤٪ كما في الرقم ١٥ يرتفع عدد النغمات مقارنة بالمقاطع اللفظية ويعني ان المقطع اصبح ملزماتيكي الطابع •

ان التقييم التالي للحن التلاوة هذه هو النظر اليه من زاوية تركيبه البُعدي (الانترڤاني Interval) وتحديد اعداد ابعاده وانواعها واصنافها ، ووضع التفسير المنطقي المطلوب لمخرجاتها •

فكانت نسبة الابعاد الصاعدة الى الهابطة هي ٠٩ر٤٠٪ الى ٩١ر٥٩٪ ونسبتها العددية ١٨٦/٢٧٨ • وكانت نسبة ابعاد الخطوات او التدرج الى القافزة هي ٥٠ر٨٧٪ الى ٥٠ر١٢٪ ، ونسبتها العددية ٤٠٦/٥٨ • ويوضح هذا التباين في نسب الابعاد او اعدادها إتجاه الانعطاف اللحني للتلاوة الى جانب الملامح الاخرى التي برزت عند تحديد مسارها اللحني •

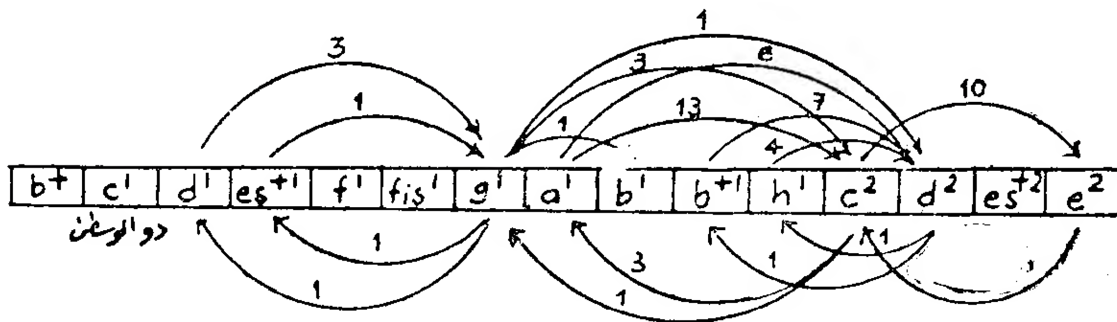
فطراز اللحن هو من نوع الهابط بشكل عام الا انه قد ظهرت انماط اخرى من الانعطاف اللحني في المقاطع الترتيلية ، مثل النمط الصاعد كما في بدايات المقاطع الترتيلية ، والنمط المستوي او على شكل اقواس في اواسط المقاطع الترتيلية •

ويظهر من المقارنات الرقمية للتركيب البُعدي للتلاوة ان عدد الابعاد الهابطة الى الصاعدة من نوع التدرج (او الخطوات) هو حوالي الضعف (اي ٢٦٩ هابطة الى ١٣٧ صاعدة) ، بينما الحالة جاءت معكوسة في أبعاد القفز فهي اكثر من خمسة اضعاف (اي ٩ هابطة الى ٤٩ صاعدة) • ان لهذه المقارنات الرقمية للأبعاد تفسير يرتبط بمنطقية تحقيق المسار اللحني للتلاوة • فالمسار اللحني للتلاوة يرتفع بأبعاد قافزة من نوع الثالثات (اي الثالثة الصغيرة وثالثة الرَسْت والثالثة الكبيرة) ومن نوع الرابعة والخامسة التامتين • ثم يأخذ المسار اللحني بالهبوط التدريجي عن طريق ابعاد التدرج من نوع المتطابقة والثانية (الثانية الصغيرة وثانية البَيات والثانية الكبيرة) •

ان تقنية حركة اللحن وبنائه المثبتة انماطها في فقرة سابقة قد اوضحها التركيب البُعدي بدقة عن طريق الفرق النوعي والعددي للابعاد . كما ان تحديد نغمات الابعاد القافزة التي يقفز المقرىء من خلالها الى الاعلى او الاسفل يوضح درجة اهميتها في رسم التدرج المقامي (التونيني) في المسار اللحني للتلاوة ، ومدى مطابقتها مع الهيكل المقامي للاجناس اللحنية المختلفة المستعملة .

ومن الجدير ملاحظته وأخذه بنظر الاعتبار عند اي تقييم هو ان المقرىء في هذه التلاوة لا يقفز الى الاعلى من جميع نغمات المسار اللحني المؤلّف من خمس عشرة نغمة عند تعامله مع الابعاد من نوع الثالثات ، بل يقفز من احدى نغمات الهيكل النغمي للاجناس المستعملة فقط . والحالة هذه مطابقة عند هبوط المسار اللحني نحو الاسفل ، وكذلك مطابقة تماما ، بل اكثر وضوحا ، عند تعامل المقرىء مع الابعاد من نوع التامة (القافزة) كالرابعات والخامسات.

والشكل الآتي يُراد منه توضيح حركة الابعاد الصاعدة والهابطة من نوع التامة والثالثات (اي القافزة) واعدادها كمخرجات لتلاوة الحاج محمود عبدالوهاب من سورة طه ، (وهي سورة مكيّة وتسلسلها ٢٠ وعدد آياتها ١٣٥ آية) .



(يُقرأ المسار اللحني اعلاه من اليسار ، ودُوّنت أسماء النغمات بالابجدية الالمانية المشابهة لاسماء الاحرف الموسيقية بالابجدية الانجليزية عدا الحرف b = مي بيمول و b^+ = سي كار و h = سي و es^+ = مي كار و fis = فا دييز . والاقواس العليا

تشير الى حركة الابعاد الصاعدة والاقواس السفلى تشير الى الحركة الهابطة للابعاد . وتشير الارقام العربية الى عدد مرات القفز نحو الاعلي او الاسفل اثناء ترتيل التلاوة) .

وخلاصة لما ورد في هذه الدراسة يُظهر ان في تلاوة القرآن الكريم ، كتراث ترتيلي تقليدي ، ثوابت ومتغيرات بما يتعلق بالجانب الايقاعي . وما ظهر من ثوابت في ايقاع الاحرف (او مقاطع النص) لدليل قاطع على تمسّك القراء بالتقاليد الفنية الأصيلة للموسيقى الدينية العربية ـ الاسلامية . ولعلها توضح جوانب مهمة ايضا من خصائص الموسيقى العربية للعصور التي سبقت ظهور الاسلام والخصائص اللحنية للشعوب الشرقية التي تأثرت بها او اثرت فيها عبر الحضارات العربية ـ الاسلامية المتعاقبة .(١٩)

اما المتغيرات في الجانب العروضي (اي مواقع النبر او الأكسنت ـ المتريكال) والسرعة النسبية (اي سرعة جريان المسار اللحني) والسرعة المطلقة (نسبة الكثافة النغمية للمسار اللحني) ، ومواقع الصمت بين المقاطع الترتيلية ، وما يتعلق الامر بالجانب اللحني وغير ذلك مما لم يرد في هذه الدراسة ، فانها عناصر ومكونات تعكس تطور اداء التلاوة عبر القرون الاربعة عشرة الماضية . وتوضح تأثيرات العناصر الموسيقية الاخرى الداخلة والمتفاعلة فيها ، وخاصة عنصر اللحن واختيار المقام اللحني لموسيقى التلاوة ككل .

وتُساعد معطيات دراسة موسيقى التلاوة دراسة تحليلية كما هو متّبع في المراكز البحثية العالمية ومعطياتها التحليلية بل تُسهم بدور رئيس في القول الفصل بشأن اي حديث حول الاصالة الفنية في الموسيقى العراقية المعاصرة ، لكونها الخزين المتوارث الاكثر رصانة وتماسكا وتبلورا وحفظا على تقاليد نطق الاحرف العربية في مختلف مجالات وظيفتها في الفنون القولية ، والبناء النغمي المقامي بشكل عام . ومازالت دراسات الموسيقى الدينية في بداياتها ، ولاجل نهوضها لابد من المزيد من الدعم والرعاية وتوفير المستلزمات على مختلف المستويات الرسمية والاجتماعية .

الهوامـــش

(١) د. يوسف فرحان دوخي : الاغاني الكويتية ، منشورات مركز التـراث الشعبي لدول الخليج العربية ، المطبعة الاهلية ، الدوحة ١٩٨٤م . في ص ٢٣٠ يخبرنا المؤلف حول مدلول بعض العبارات التي يرددها رجـــال البحر كقولهم (هو يا مال) او (هو يا مالي) .

(٢) للاستزادة راجع سايمون جارجي : نقاط منهجية لتحديد مفهوم الموسيقى الشعبية وخصائصها في منطقة الخليج والجزيرة العربية . بحث قـــدم في ندوة التخطيط لجمع وتوثيق الموسـيقى والرقـص الشـعبي فـــي ١٥/١٢/١٩٨٤ ، الدوحة ـ دولة قطر . نشر البحث فيما بعد في الكتاب الثاني لسلسلة ندوات التخطيط لدراسة التراث الشعبي لمنطقة الخليـج والجزيرة العربية ، الصفحات ٦٣ــ٧٢ من الطبعة الاولى ١٩٨٥م .

(٣) جاء في المصدر السابق ص٤ باسم « التركيـب العروضـي : الرقصـــي والايقاعي او الحركات الرقصية » . انظر ايضا الصفحة ٦٦ من الكتـــاب الثاني لسلسلة ندوات التخطيط لدراسة التراث الشعبي ، المصدر السابق.

(٤) ان اغاني العمل الواردة في كتاب (التراث الشعبي في ميسان) الصفحات ٦٩ ــ ٧٤ ، خير مثال على تكيف العنصر اللغوي والعنصر الصوتي لطبيعة الفعل الحركي المؤدى وايقاعه المنتظم المتواصل ، وذلك مـــن خـــلال اداء الاهزوجة (الهوسة) عند انجاز الفلاحين اعمالهم المختلفة الشـــــاقة . للاستزادة راجع المصدر .

(٥) سايمون جارجي : المصدر السابق ، ص ٦ .

(٦) ويقال : « ان الخليل اكتشف قوانين النظم بينما كان يستمع في البصـرة لصوت مطرقة حداد وهي تسقط على السندان في اتساق » . للاستزادة انظر : د. شكري محمد عياد : موسيقى الشعر العربي ، الطبعة ٢ ، مطبعة النهضة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١٢ .

(٧) الحاج هاشم محمد الرجب : الابوذية ، اصدار مركز الفولكلور العراقي ــ وزارة الارشاد ، بغداد ١٩٦٢ ، ص ١٧ــ١٨ . انظر كذلك : منتخبات الابوذيات الكبرى في الغزل والنسيب . جمع وتقديم علي الخاقانـــي ، منشورات دار البيان ، ط١ ، مطبعة دار السـلام ، بغـداد ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١م ، ص ٧ .

(٨) يصعب تحديد بدايات البحث الموسيقي المعاصر بدقة ، وكانت البداية على الارجح في القرن الثامن عشر عندما بدأ الاخوان جريم والباحث هردر جمع ودراسة الاغاني الشعبية (Volkslied) والفنون القولية المختلفة . وتباور المنهج التحليلي الموسيقي فيما بعد عندما طبقت نتائج الموسيقى النظرية المتطورة في البحث الموزيكولوجي . ويعتبر منهج الباحث ادلر النقدي المعلن عنه لاول مرة سنة ١٩١٢ م في كتابه (الاسلوب في الموسيقى Der Stil in der Musik) والمطبق سنة ١٩٢٤ في مؤلفه (مرجع تاريخ الموسيقى) من المناهج المعروفة الاولى . ولا يمكن تصوير منهج ادلر من دون المنهج التحليلي الذي جلبه في الواقع الباحث ريمان من (النظرية حول المؤلف) . وتمكن عدد من الباحثين بعد ذلك من ابتكار منهجا للبحث الموزيكولوجي وضع على اسس علمية رصينة وثابتة ، وبذلك اوجدوا من العلم الموسيقي نظاما علميا اجتماعيا مستقلا عرف باسم المنهج الاثنومرزيكولوجي .

(٩) انظر مقالة الباحث العراقي الشيخ جلال الحنفي المنشورة في مجلة (التراث الشعبي) سنة ١٩٧٥م بعنوان (موسيقى التلاوة) . وهي في الاصل نص محاضرته الملقاة في المؤتمر الدولي للموسيقى العربية المنعقد ببغداد عام ١٩٦٤م .

(١٠) تم لقائي بالباحثة د. لويس ابسن الفاروقي في الدوحة ـ دولة قطر خلال جلسات ندوة التخطيط لجمع وتوثيق الموسيقى والرقص الشعبي في كانون الاول سنة ١٩٨٤م . والتقيت بها مرة ثانية (قبيل مقتلها هي وزوجها) في مدينة ڤانكوڤر في كندا في تشرين الثاني سنة ١٩٨٥م عند حضور اللقاء السنوي الثلاثين لجمعية علوم موسيقى الشعوب (SEM) ممثلا عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية بالدوحة/دولة قطر .

(١١) انظر كتاب د. توما حسن حبيب (الموسيقى العربية) المنشور سنة ١٩٧٥م بالالمانية في برلين .

(١٢) في دراسة مطولة انجزتها سنة ١٩٧٨م للحصول على شهادة الكانديدات باشراف البروفيسور د. جوزيف كرسانك في جامعة كومنيوس في مدينة براتيسلافا في جمهورية سلوفاكيا كان الجزء الاول منها مخصصا لموسيقى التلاوة ، وقد اعتمدت الدراسة على مسوحات ميدانية وتحليل اثنوموزيكولوجي كامل لثلاث تلاوات عراقية مختارة من جيل ما بعد الملا عثمان الموصلي .

(١٣) انظر مجلة التراث الشعبي (العراقية) ، العدد الخامس لسنة ١٩٧٥م ، ص ٤٤ .

(١٤) الشيخ جلال الحنفي : التجويد من اقدم قواعد النوطة الموسيقية ، الورقة الثانية ، شنغهاي ١٩٧٥م .

(١٥) اتبعنا في الدراسة التحليلية لموسيقى التلاوة والمولد النبوي مخطط الباحثة السلوفاكية الدكتورة أليتسا ألشكوفا المنشور بعنوان : أسس التحليل الاثنوموزيكولوجي **Essential Ethnomusicological Analysis** في مجلة الدراسات الموسيقية العلمية التابعة لاكاديمية العلوم السلوفاكية العدد ٦ ، السنة ١٩٦٣م ، الصفحات ١١٧ــ١٧٧ .

(١٦) خصصت في كتب قواعد التجويد فصول للمدود واحكامها ، كالمد الطبيعي والمتصل والمنفصل العارض واللازم .. الخ ، وكل نوع منها يحدد بحركاته التي يدرسها متعلم قواعد التجويد ويطبقها بين يدي شيخه . فالمد الطبيعي مثلا لا يجوز ان يزيد مداه الزمني على حركتين ، اي رفع اصبع وخفضه ، ويمد المد المتصل ست حركات على وجه الوجوب . وللاستزادة انظر كتاب الشيخ جلال الحنفي البغدادي الصادر بعنوان (قواعد التجويد والالقاء الصوتي) في بغداد سنة ١٩٨٧)م أو غيره من الكتب الموجزة ككتاب الحاج محيي الدين عبدالقادر الخطيب الصادر بعنوان (كفاية الراغبين في تجويد القرآن المبين) ببغداد سنة ١٩٧٧م .

(١٧) خصص المستشرق هنري جورج فارمر صفحات مطولة في كتابه (تاريخ الموسيقى العربية) استعرض فيها موقف الدين الاسلامي من الموسيقى ، ومن استعمال الانغام في ترتيل الآيات القرآنية الكريمة ، وذلك بالاعتماد على تفسير بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومواقف المذاهب الاسلامية وفقائها . وخصص الشيخ جلال الحنفي فصلا بعنوان (موسيقى التلاوة والمقرئون البغداديون) في كتابه (قواعد التجويد ..) المنشور سنة ١٩٨٧م . واستعرض فيه موضوع الترتيل بالنغمة . ومع ذلك فأن هذا الامر لم يأخذ بالمكانة التي يستحقها ، والتي تتناسب مع أهميتها في التلاوة وغيرها من النصوص ذات المحتوى الديني .

(١٨) لمعرفة طريقة الباحث الامريكي كولينسكي انظر مجلة اثنوموزيكولوجي العدد الرابع السنة ١٩٦٠ الصفحات ١٤ و ١٥ .
Mieczyslav Kolinski : Notes on " Inner Tempo and Melodic Temp " .

(١٩) ان مفهوم الثوابت والمتغيرات في الفنون يرتبط بحركة الابداع (الابتكار ، الخلق) الفني من جانب ، وبالميل الشديد نحو الحفاظ على الموروث الفني من جانب آخر . فكل ابداع فني جديد ماهو الا غصن نامي على شجرة الفن الاقدم ، وماهو الا اضافة نوعية وكمية متميزة للتراث والموروث السابق ، وهكذا تتابعت المدارس والتيارات والاساليب الفنية عبر عصور

الحضارة الانسانية . وضمن مسيرة الانسان المتلاحقة كانت هناك ثوابت ومتغيرات في الفنون الموسيقية وغير الموسيقية والعلوم الانسانية والصرفة الاخرى . وان الثوابت والمتغيرات في الفنون كما في غيرها تتناسب نسبة النقص او الزيادة فيها تبعا لحركة تطور الشعوب والامم والاقوام والمجتمعات وترتبط بها ، وهي بالتالي انعكاسا لها ورمزا لهويتها وشخصيتها .

فكل متغير حضاري ـ ثقافي حصل كان نتيجة لمتغير اجتماعي وسياسي واقتصادي وفكري وحسي ونفسي ، وهذا المتغير يأتي بالتالي بمتغيرات في انماط السلوك الاجتماعي والممارسات الحياتية والاحساس الروحي والتذوق الفني ، ويأتي بمتغيرات لا حصر لها ايضا في حياة المجتمع واحتياجاته اليومية المرتبطة بالروح والجسد والعقل والضمير والوجدان ، وبالتالي تلك الرغبة الملحة بالعيش بشكل افضل .

فهل مفهوم الاصالة يرتبط بنسب تلك الثوابت والمتغيرات فيما يؤدى من فنون الغناء والعزف والرقص الدنيوي والديني ؟ هناك تساؤلات عديدة اخرى بلا شك ، ولكن : كيف نحدد الثوابت الفنية ، وكيف نشخص المتغيرات في الفنون الموسيقية الدينية والدنيوية ابتكارا وأداءاً وتقبلا ؟ هل يمكن تحقيق المستوى المطلوب من النجاح في عملية التشخيص والتحديد للثوابت والمتغيرات الفنية من دون الاستعانة بحركة البحث العلمي الموسيقي، ومن دون تظافر جهود الباحثين المختلفة في مجالات الدراسات الانسانية والعلوم الصرفة ، وهي ليست قليلة على اي حال في اواخر هذا القرن ؟
ثم هل الثوابت والمتغيرات في الفنون الموسيقية مسألة ترتبط بجيل معين او عصر محدد ، وآنذاك يمكن تعميمها على الجيل التالي او العصر الاخر ؟ ام ان الثوابت هي التي تحدد الهوية والشخصية والاصالة (الوطنية والقومية) للشعب والامة ، والمتغيرات هي التي تحدد (او تشير) الى السمات الثقافية للاجيال المتعاقبة في شعوب أقطار الوطن العربي ؟ اي ، وبصياغة اخرى نقول : هل نعترف ضمنيا بوجود الثوابت والمتغيرات في كل ثقافة ، وهل نسبها ومستوياتها المختلفة هي مقياس الخصب او العمق الحضاري ، ومقياس الجمود والانكماش والتقوقع الثقافي ، ام أحد مقاييسها الاساسية ؟



تحديد أو معـاني المصطلحـات

السرعة المطلقة او الثابتة Absolute tempo : وتحدد كثافة المجرى اللحني مقارنة بعدد النغمات الى المقاطع ، او من خلال تحديد نسبة النغمات الى المقاطع اللفظية .

النبر او الضغط Accent : الضغط او الشدة الحاصلة عند اداء نغمة مـا في المسـار اللحني ، ومن خلاله نميز بين شدة نطق مقاطـع الكلمة او الجملة . فهو الفرق بين شدة نطق او عزف مقطع لفظي او نغمـة مقارنة بما يسبقها او يليها في البار الواحد او المسار اللحني .

المجرى اللحني المليزماتيكي Melismatic melodic line : وهو ذلك المجرى اللحني الذي يقابل كل مقطع فيه (او اغلب مقاطعه الغنائية) عـددا من نغمات مساره اللحني . فيصبح عدد مقاطعه اللفظية اقل بنسبة معينة من عدد نغماته .

الجانب العروضي الايقاعي Metri-rhythmical aspect ويتعلق باعطـاء كل حرف ما يستحقه من طول زمني اثناء تلفظه (القاءا او ترتيلا او انشادا او غناءا) والاهتمام باماكن تغير الطول تبعا لتبدل مواقـع الاحرف في الكلمة او وفقا لما سبقه او تلاه من احرف . ويتم كذلك بالتقيد الدقيق وبالحالات التي يفقـد الحرف فيهطوله الاعتيادي ، ومواقع الوقف مع اخذ الشهيق او من دون ، وكيفية تقطيع كلمات الجمل (الاشطر ، الايات) والوصل بينها .

مترونوم ملتسل Metronome Melzel : هو جهاز قياس السرعة (التمبو) الذي اخترعه العالم الالماني يوهان ملتسل (١٧٧٢ــ١٨٣٨م) . ويكتب اختصارا في التدوين الموسيقي بحرفي (أم) ، هكذا M - M او (م) واحدة . ويتبع عادة هذا الاصطلاح رقم يدل على سـرعة الزمن المعطى ، كقولنـا زمـن النـوار يسـاوي سـتين ، اي النوار يساوي واحد على ستين من الدقيقة (اي النوار يسـاوي ثانية واحدة) ، ويكتب المصطلح انذاك في المكان المحدد من التدوين الموسيقي كما يأتي : M.M ♩ = 60

الجانب الصوتـي Phonetical aspect : ويقصد به تلك الطريقـة التي تتم فيها كيفية اخراج الحروف او مقاطع النص النثري او الشعري الديني او الدنيوي ، اي كيفية نطق الاحرف العربيـة والمحافظة على صفات الحرف الذاتية وحالات اظهاره واخفائه وتحريكه .

السرعة النسبية **Relative tempo** : وتعني التغيير الحاصل في السرعة، وتقاس عادة بجهاز ميكانيكي معين ، او اي جهاز احدث منه كالجهاز الكهربائي او الالكتروني ، وينسب الى العالم ملتسل اختراع اول جهاز ميكانيكي لقياس سرعة جريان نطق الكلمات او النغمات او الضربات الايقاعية . وعرف جهاز ملتسل باسم مترونوم .

الجانب الايقاعي **Rhythmical aspect** ويقصد به تحديد الفرق بين اطوال الاحرف او المقاطع المكونة لكلمات النص الغنائي او الترتيلي الديني او الدنيوي .

مقطع لفظي **Syllable** : ويتكون عادة من حرف صامت واخر صائت قصير او طويل ، والمقاطع اللفظية على انواع ، وهي كالاتي :

١ ـ مقطع قصير مفتوح مثل (لَ) ، ويتألف من صامت (ل) + صائت قصير (الفتحة) .

٢ ـ مقطع طويل مفتوح مثل (لا) ، ويتألف من صامت (ل) + صائت طويل (الألف) .

٣ ـ مقطع طويل مغلق (لن) ، ويتألف من صامت (ل) + صائت قصير (الفتحة) + صامت (ن) .

٤ ـ مقطع مديد مغلق مثل (باب) ، ويتألف من صامت (ب) + صائت طويل (الالف) (+) صامت (ب) .

٥ ـ مقطع مزدوج الغلق مثل (بحر) ، ويتألف من صامت (ب) + صائت قصير (الفتحة) (+) صامت (ح) + صامت (ر) . وهكذا (فجر) . (وبئر)

المجرى اللحني المقطعي **Syllabic melodic line** : وهو ذلك المجرى او المسار او الاتجاه اللحني الذي يقابل كل مقطع فيه نغمة واحدة من لحنه ، أي عدد مقاطعه مساويا لعدد نغماته او يقترب لذلك .

السرعة **Tempo** : وتعني سرعة نطق (ترتيل ، انشاد ، غناء ، عزف) مقاطع الكلمات او نغمات اللحن او ضربات الايقاع (او الوزن الايقاعي) . وتعطينا بتنوعها السرعة النسبية . وتحدد سرعة الجريان اللحني او الانشاد الديني او الغناء الوجداني او الالقاء المسرحي ... الخ بمصطلحات يمكن تقسيمها الى ثلاث مجاميع اساسية هي السريعة والمتوسطة والبطيئة ، وفي الموسيقى المنهجية العالمية شاعت المصطلحات الايطالية منذ عصر الباروك ، ثم شاعت مصطلحات اخرى في الموسيقى الرومانتيكية وما تلاها من تيارات ومذاهب فنية .

الموسلغوي : مصطلح وضعه الباحث منذ مطلع الثمانينات للدلالة على نسيج التراث الموسيقي ـ اللغوي العراقي لفنون ضفاف الانهار والخليج والاهوار والبادية والارياف ، لان الموسيقى تنبثق فيها من العناصر الموسيقية لالقاء النص النثري او الشعري وطرائق انشاده وترتيله وغنائه ، ومن ايقاعات اداء الحركة التعبيرية وايماءات فن الرقص المرافقة .

الغناسيقي : مصطلح وضعه الباحث منذ مطلع الثمانينات للدلالة على نسيج التراث الغنائي ـ الموسيقي العراقي ، الذي تنبثق عناصر الموسيقى فيه من جمل المسارات اللحنية الغنائية التقليدية . فالموسيقى ذات طابع غنائي وتحمل جميع سماته الايقاعية واللحنية وان اشتركت في ادائها الالات الموسيقية التقليدية فقط .

ثانية البيات : مصطلح وضعه الباحث منذ السبعينات لتمييزه عن بعد الثانية الصغيرة (Semitone) وبعد الثانية الكبيرة (Whole tone) ، ويعتبر بعد ثانية البيات أحد مكونات المسار اللحني للموسيقى العراقية والعربية ـ الشرقية ايضا .

ثالثة الرست : مصطلح وضعه الباحث منذ السبعينات لتمييزه عن بعد الثالثة الصغيرة (Minor 3rd) وبعد الثالثة الكبيرة (Major 3rd). ويعتبر بعد ثالثة الرست أحد ملامح أبعاد الموسيقى العراقية والعربية ـ الشرقية الاساسية .

العرف الصوتي الاجتماعي : مصطلح وضعه الباحث منذ مطلع التسعينات ، وانجز فيه بحثا مطولا قدمه في المؤتمر العلمي لكلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد . وقصد به الاطار الخارجي لحدود التعامل والمناورة التلقائية او المبرمجة بالنغمات ولونها وشدتها وطبقاتها ، وبالايقاعات وأطوالها واوزانها سواء أكان هذا عند الكلام او ترتيل النص وانشاده او غنائه ، أم كان عند العزف على هذه الآلة الموسيقية او تلك .

ان موسيقى لغة التخاطب اليومي والموسيقى التراثية ذات الطابع الديني والى حد ما بعض انواع التراث الغنائي ذي الطابع الارتجالي الاستطرادي الدنيوي في العراق ترتبط بل تنبثق من حيث عناصرها الموسيقية الاساسية من ما هو متوارث ومتداول

بين الناس ومرتبط بمناخات حياتهم الاجتماعية والنفسية ، وبمخلف أصوات الكائنات الحية والظواهر الطبيعية ضمن واقع بيئي جغرافي وتاريخي محدد ، ويتطابق مع قيمهم الجمالية والذوقية .

ومن خلال ملامح (العرف الصوتي الاجتماعي) وسماته نحدد هوية اصوات المتحدثين وانغام المرتلين والمنشدين والحان المغنين والعازفين وكذلك نميز اساليب العزف التلقائية والمنهجية ضمن الاقليم او المنطقة الواحدة .

والعرف الصوتي الاجتماعي مع العرف التشكيلي الاجتماعي والحركي الاجتماعي انعكاسا ماديا لما هو روحي في المجتمع العراقي والمتجسد بمختلف تقاليده وعاداته واعرافه ومعتقداته .





دور التربية في نهضة اليابان

الدكتور عبدالله حسن الموسوي
كلية التربية ابن رشد
جامعة بغداد

تمهيـــــــــــد

خرجت اليابان من الحرب العالمية الثانية (في ١٤ آب ١٩٤٥) مستسلمة، ورزحت لاحتلال الحلفاء وبالاحرى للاحتلال الامريكي (١٩٤٥ ــ ١٩٥٢) بعد ان تحطمت مصانعها ودمرت مدنها وبنيتها الارتكازية واصبح الاقتصاد الياباني عاجزا تماما ، وكان التدمير النفسي اشد قسوة من التدمير المادي . لكن اليابان تمكنت ان تنهض من اشلاء هيروشيما (٦ آب ١٩٤٥) لتأخذ طريقها الى قمة المجد الاقتصادي في القرن العشرين[١] فكيف حققت اليابان كل ذلك وما الدروس المستنبطة من تجربتها الفريدة ؟

ولان التربية عطاء انساني يحقق للافراد والمجتمع تطويرا وارتقاء الى مستويات افضل فهي موضع اهتمام اطراف كثيرة ... كما لا يخص هذا الاهتمام بالتربية مجتمعا دون غيره في الوقت الحاضر ... ويزداد هذا الاهتمام وضوحا في مراحل التحول الاجتماعي والبناء الاقتصادي .

ولان اهم ما يميز هذا العصر عن العصور السابقة هو الثورة العلمية والتكنولوجية التي ادت وما زالت تؤدي الى تغيرات سريعة ومتناهية في نواحي العمل والتفكير مما يوقع على التربية العبء الاكبر في مواجهة عملية التغيير والتجديد ، وان عزلها عن مجال التجديد والتطور الحضاري الذي

(١) الدكتور ناجح خليل الراوي « نظرة الى تجربة اليابان في نقل التكنولوجيا » مجلة المجمع العلمي الجزء ٢ المجلد ٤٤ ، ١٩٩٧ ص٧ .

يمثل نقل التكنولوجيا في بعض جوانبها ـ يفقدها جوهر وظيفتها ، مما يستوجب ان تأخذ التربية بما يقدمه التطور التكنولوجي ، وهذا ما فعلته اليابان في العقود القليلة السابقة .

وتأسيسا على ذلك اجد ان الامر يستوجب البحث والتقصي عن الاسباب والدوافع التي حفزت اليابان الى أن ترتقي سلم التقدم . فاية تربية اتنهجته ؟ أهي عملية التبكير في محو الامية الذي بدأت منذ عام ١٨٧١ المقرونة بالالزام .. ومد سنوات الالزام ؟ ام انها ادارت ظهرها الى محو الامية الابجدي بعد ان استنفدت ما خططت له ولم تكتف بـه فتوجهت الى الامية الوظيفية واوصلت شعبها الى المستوى الثقافي الذي تريد ؟ ام ان هناك اسبابا ودوافع اخرى ...؟ . وللاجابة عن ذلك تستلزم العودة الى اليابان القديمة وصولا اليها وهي معاصرة ، ولنرى ماذا يقول **Edmond J. King** في كتابه « مدارسهم ومدارسنا » الذي يقارن من خلاله التربية في العالم ـ ومنها اليابان ـ مقارنة ببريطانيا « يعزى نجاح اليابان في مختلف الميادين التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية بالدرجة الاساس الى اهتمام اليابان المبكر بالتربية والتعليم والى نظام التعليم ومستوياته الممتازة »[٢] وقد اشار الدكتور الراوي الى ذات المفهوم اعلاه مضيفا « فقد تميز اليابانيون باختيارهم سن ١٠ـ١٤ سنة منذ عام ١٩٧٠ في الامتحانات العالمية في العلوم ، وكانت نسبة الملتحقين في التعليم ممن هم في السن القانونية عام ١٩٠٨ ما يقارب ٩٨٪ واهتم اليابانيون باعداد الفنيين والاطر الوسطى حيث تتاح للصفوة المتفوقة فقط ممن يجتازون امتحان القبول الجامعي الصعب نسبيا بالالتحاق بالجامعة (ويطلق اليابانيون على هذا الامتحان لقب ـ جحيم الامتحانات ـ) ويعد امتحان القبول واسطة للمحافظة على مستوى

---

(2) Edmond J. King "Other Schools and Ours" Comparative Studies for Today, fifth eddition, Holt Rinehart and Winston limited Sussex 1979, p. 444.

جيد في التعـليم العالي ، ونظرا لجـدية الطلبة اليابانيين فان ٤٠٪ منهم يكملون الدراسة الجامعية باربع سنوات مقارنة بـ ٢٠٪ فقط في امريكا(٣).

ولان العلم واحد حيثما كان والتكنولوجيا هي من تطبيقات نتائج العلوم وقوانينها ، والانسان هو المفكر الفاعل اولا واخيرا في التعلم واكتساب العلم والمهارات والفنون وهو القادر على ان يبدأ من حيث وصلت اليه الحضارات ، فعليه ان ينقل ويضيف ويبدع فيكتشف ويخترع ، وعلى العرب ان لا يروا العالم على انه الغرب الحضاري فقط ، فهناك حضارات اخرى وطموحات حضارية في جنوب الكرة الارضية ، وان لا ننسى ان العلاقات ، العربية الغربية فيها الكثير من التراكم الاسود متراكم العدوان(٤) فلنتجه قليلا نحو اليابان ونسبر غور اسباب تقدمها الحضاري لنكتشف دور التربية في هذا التقدم .

الخلفيـة الحضاريـة والقوميـة :

لقد ترسخت روح التلمذة الجادة في الامة اليابانية بشكل عام عبر المراحل التاريخية واستعدادها لان تقف موقف التلميذ المجد من الحضارات والنماذج المتقدمة ، كما استدعى الامر ذلك الموقف من دون عقدة نقص او استعلاء من جهة ومن دون التفريط في ثوابت ومقومات الشخصية اليابانية من جهة اخرى . فقد وقفت اليابان حضاريا موقف التلميذ من الحضارة الصينية قديما وتبنت التتلمذ لـ **Apprenticeship** بعد قرون طويلة من حضارة اوربا وامريكا حديثا .

ان نظام التربية والتعليم الياباني لم يولد من فراغ وانما يستمد دفعا قويا في روحه ودقته وصرامته وتصميمه على الكسب والتحصيل من هذه الروح للامة اليابانية التي تمتلك فضلا عن حسن التلمذة الدائمة قدرا

---

(٣) الدكتور ناجح الراوي مصدر سابق ص١٣ .

(٤) الدكتور ماهر اسماعيل الجعفري « نحو فهم عربي لعلم المستقبل » القادسية العدد ٥٢٦١ ، حزيران ١٩٩٧ .

كبيرا من الفضول المعرفي الذي يدفعها الى استطلاع ما لدى الاخرين من معارف وتجارب حتى فيما يتعدى النفع المباشر وعلى سبيل المثال ، فانهم قبل اختراع آلات التصوير كان الزائرون اليابانيون الى اوربا يحرصون على ان يرسموا ما يشاهدونه هناك بايديهم ، وقد خلفوا رسوما يدوية كثيرة من هذا النوع يندر وجودها عند غيرهم من الشعوب التي زارت اوربا في تلك الفترة ، كما تميزوا عن غيرهم من الشرقيين بالتخلص من الاستعلاء الثقافي تجاه الحضارات الاخرى فجاء انفتاحهم عليها صحيحا ومثمرا •

ومن العوامل المؤثرة في باورة طبيعة النظام التربوي الياباني ظاهرة التجانس والتماثل والتوحد في التكوين القومي الذي لا يعاني من تعدديات وتناقضات فئوية في تركيبه العرقي وبالتالي لم يتعرضوا لتعدد الولاءات الناجمة عن ذلك وتناقضها •

وفي القرن السادس عشر عندما شعروا بخطورة التبشير على القومية اليابانية ، أعيد اليابانيون (الذين اعتنقوا المسيحية واظهروا الولاء للاوربيين) الى اليابان وباقصى درجات الحسم ومنعوا من السفر كي لا يحتكوا ويتأثروا بالمبشرين(٥) •

ان الموقع الجغرافي المنعزل لليابان في اقصى آسيا حكم عليها هذا التجانس ، الذي ادى الى نشوء نظام تربوي تعليمي موحد خاضع لادارة واحدة وتوجيه واحد منذ ماقبل عصر النهضة الحديثة وحتى الان ، حيث لم تشهد اليابان انشطارا او انفصاما في نظامها التربوي بين نظام تقليدي ومدني حديث نجم عنه جيل ياباني جديد موحد في تكوينه وتعليمه وثقافته وافكاره ولغته وانتمائه ، وان رجال العصر الميجي اندمجت في شخصياتهم شخصية المجدد والمحافظ شخصية العصري والسلفي في تكوين واحد بحيث كان فرد النخبة الحضارية اليابانية عصريا مجددا في مجال التحديث والتقنية ، ومحافظا سلفيا

(5) Edmond, J. King, op. cit. Pp. 444—445.

في ميدان الاصالة والقيم اليابانية في وقت واحد • وكانت وحدة النظام التعليمي في المدرسة الابتدائية وحتى الجامعة منطلق نشوء هذا الجيل النهضوي الموحد[٦] •

البداية التاريخية للتربية اليابانية :

كانت التربية اليابانية معتمدة على المبادىء الكونفوشيوسية Confucian Principles واستمرت الى عهد طوكاجوا Tokugwa الذي امتد من سنة ١٦٠٣ الى سنة ١٨٦٨ وكانت اهم مبادىء التربية الكونفوشيوسية حب الخير والعدل وحسن المعاملة مع الاخرين ، اما نظام طوكاجوا فقد كان طبقيا والتعليم كان موجها على اساس اعداد طبقة المحاربين Samorai في سبيل اعدادهم للعلم والقتال ، وكان هذا النظام يؤكد البناء الاخلاقي للافراد والاعداد المهني لهم •

كان الاهتمام الاكبر لطوكاجوا في التربية لابناء المحاربين لكنهم لم يهملوا عامة الشعب ، بل كان لتعليم العامة تشجيعا ودعما ماليا بهدف بناء شخصية الافراد في ضوء المبادىء الكونفوشيوسية التي ستزيد من تألق المجتمع ، فكانوا يتلقون تعليمهم في اماكن خاصة وهي (اليتراكويا) و (الجوجاكو) وكانت منتشرة على نطاق واسع ، حيث كانت هناك نسبة عالية من افراد الشعب الياباني يعرفون القراءة والكتابة في نهاية عهد طوكاجاوا وبداية عهد ميجي •

عهد الاقطاع :

لقد اسست بعض المدارس من قبل الاقطاعيين منذ زمن قديم يعود الى سنة ١٦٢٠ وبحلول عام ١٧٥٥ كان جميع الصبيان الذكور التي كانت مرتبتهم

(٦) محمد جابر الانصاري : جذور التربية اليابانية وخصائصها المتميزة مع مقارنتها ببعض البدايات العربية في التربية ، رسالة الخليج العربي ١٩٨٩.

اعلى من مرتبة جندي مشاة يتلقون تعليما رسميا في واحدة من المدارس الاقطاعية التي بلغ عددها ٢٠٠ مدرسة ، فضلا عن مدارس المعابد ، او في احدى المؤسسات التعليمية(٧) .

عهـــد ميجـي :

بدأت النهضة الثقافية والعلمية والاقتصادية في هذا العهد ١٨٦٨ ـ ١٩١٢ بسبب انفتاح اليابانيين على الثقافة الغربية ونقل خبرات متطورة في مجال التعليم من اوربا الغربية ولا سيما من فرنسا وامريكا واستفادوا من رواد التربية المقارنة Comparative Education امثال مارك انطوان جوليان وهو راس مان وكالفن ستو وغيرهم .

اسس ميجي عام ١٨٧١ وزارة للتربية وصدر في عام ١٨٧٢ القـانون الاساسي للتعليم في اليابان ، وكان هذا العام من عهـد ميجي عاما تاريخيا وبداية حقيقية لتطـــور التربية والتعـليم في اليابـان الحديثة ، ويشـير Edmond King الى ان حب اليابانيين الحالي للتعلم يعود الى ما قبل ٣٠٠ سنة في الاقل ، ولم تكمن قوتها الاولى فقط في مدارس الساموراي او غيرها بل في مدارس ــ تيراكوي ــ او مدارس القرى المنتشرة في جميع ارجـاء الريف ، ان جميع هذه العناصر تشكل دعامة انجازات اليابان الشـاهقة في التربية والعلوم خلال السنوات الاخيرة .

وكما اشرنا في الصفحة الاولى الى ان عام ١٨٧١ كان عـام ألزامية التعلـيم للناس جميعا مـما نتج عن ذلـــك انشـاء ٥٣٧٦٠ مدرسـة ابتدائية في ارجاء البلاد لتقديم تعليم اولي حديث والزامي لجميع الاطفال من عمر السادسة وحتى الرابعة عشرة وانشاء ٢٥٦ مدرســة متوسطة و ٨ جامعات من اجل اتاحة فرصة التعليم امام الشعب الياباني كله(٨) .

(7) Edmond. J. King, op. cit. P. 445.

(٨) ادوين رابشاور ، اليابانيون ، ترجمة ليلى الجبالي ، مجلة عالم المعرفة ١٩٨٩ الكويت ص٢٤٠ .

نظام التعليم المركزي :

لقد اعترف اليابانيون كما يشير كتاب (مدارسهم ومدارسنا) Other Schools and Ours ان سر تقدمهم العلمي والاقتصادي لا يمكن ان يصل الى ما هو عليه الان من رقي من دون تربية وتعليم لذا فقد تم وضع اسس البنيان التربوي باكمله منذ عام ١٨٨٦ وتنفيذ اسسه ، وهكذا فقد تم التخطيط للمدارس الابتدائية التي تقود الى المدارس الثانوية ومعاهد ما بعد الثانوية بانواعها المختلفة وكليات اعداد وتدريب المعلمين والجامعات وتنسيقها بحيث يكون الشخص المناسب في المكان والزمان المناسبين بالضبط ورافق نظام التعليم المركزي صدور تشريعات تتعلق بمدارس تتفق مع المرحلة التي كان التعليم الياباني يستعد للانتقال اليها ، ففي هذه المدة كانت هناك محاولات لادماج الخبرة اليابانية مع معطيات الحضارة الغربية في امريكا . وفي بداية حكم Miji في ثمانينات القرن الماضي اعتمد على الخصائص القومية ، وادخل مقرر التربية الاخلاقية بأسم Shushin

القوانين التربوية :

لقد صدرت مجموعة من القوانين بين سنة ١٨٩٧ الى ١٩٠٦ وفي عام ١٩٠٣ صدر قانون تنظيم المدارس المهنية ، وقانون المدارس العليا للبنات وقد اكملت تلك القوانين الهيكل العام لنظام التعليم في اليابان . وفي العام نفسه تجاوزت نسبة الالتحاق بالمدارس الابتدائية ٩٠٪ اما في عام ١٩٠٧ فقد قررت الحكومة التشديد على تطبيق نظام التعليم الالزامي لمدة ست سنوات تطبيقا لمبدأ توفير التعليم لكل عضو في المجتمع الياباني ثم مدد الالزام الى تسع سنوات(٩) .

---

(٩) جمال اسد مزعل ، دراسات في التربية المقارنة ـ دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل ١٩٨٧ .

مكانة التربية لدى الشعب الياباني :

كانت اليابان حتى عام ١٨٦٨ مجتمعا اقطاعيا زراعيا ولكنها في عام ١٩٠٥ فاجأت العالم بانتصارها على روسيا القيصرية • وهي اليوم تظهر عملاقا اقتصاديا على الرغم من انها خرجت من الحرب وهي امبراطورية محطمة •

ويبدو ان مجتمع اليابان المعاصر مجتمع تؤدي التربية فيه رسالة مقدسة في توجيهه وان الفرد الياباني الذي يبغي النجاح عليه ان يسلك طريق التربية، وان هذه القناعات لم تأت من فراغ ، ولعل تعاليم كونفوشيوس لها تأثير كبير على اليابانيين في هذا المجال ، ولا يفوتنا هنا ان نذكر ان الطبقة الحاكمة ذاتها متأثرة بهذا الجانب المعنوي الذي لا يمكن اغفاله[١٠] •

ان اهتمام اليابانيين بالتربية وعدها مصدر تقدمهم الحضاري بكل ابعاده هو الذي دفعهم لان ينفقوا اكثر من ١٢٪ من دخلهم القومي على التربية ، بينما لا تتعدى الانفاق على النواحي العسكرية سوى ٧ر٧٪ فقط ، وفي هذا ما فيه من الدلالة الواضحة على الاولوية التي تعطى للتربية •

وفي مقابل ذلك نجد ان الولايات المتحدة تنفق على النواحي العسكرية سبعة اضعاف ما تنفقه على التعليمين الابتدائي والثانوي مجتمعين ، في الوقت الذي نجد فيه ان الامية الوظيفية تمثل مشكلة رئيسة فيها بينما هي منعدمة تماما في اليابان ، حيث لا يوجد انسان واحد يخيب في القراءة والكتابة ، وهذا يعكس الدور الذي توليه اليابان للتربية والذي نجم عنه هذا الانجاز الهائل •

وقبل عشرين عاما اشارت بيانات وزارة التربية اليابانية ان ٩٢٪ من

---

(١٠) اليابانيون ــ مصدر سابق ص٢٤٤ــ٢٤٥ •

التلامذة اكملوا السنوات التسع من التعليم الالزامي وواصلوا تعليمهم في المدارس العليا Technical Colleges وهذا يعني الدقة في تنفيذ الالزام والقناعة في مواصلة الدراسة •

ومقابل ٩٧٪ من الطلبة اليابانيين الذين انهوا المرحلة الثانوية نجد ٧٩٪ من الامريكان فقط قد انهوها • ونتيجة لهذا الاقبال الذاتي على التعلم نتيجة للتوعية التي تتولاها وسائل الاعلام اليابانية كافة نجد ان اكثر من الف معهد تعليمي يلتحق بها مليونا طالب وهذا يعني ان اكثر من ٤٠٪ من الشباب الياباني ملتحقون بنوع او آخر من التعليم العالي •

ومن الامور التي يتصف بها الشعب الياباني حبه وشغفه بالقراءة وفي كل وقت ومكان ، وان نسبة عالية تقرأ الصحف اليومية فهي تصل الى ٥٥٠ فردا من بين كل الف فرد وهي نسبة عالية تضع الشعب الياباني بالمرتبة الثانية بعد السويد •

وفي احصائية قديمة تعود الى عام ١٩٧٦ (والتي يمكن ان نستدل من خلالها على ما حدث من تقدم في نهاية التسعينات) تشير الى ان عدد الكتب المنشورة ٣٦٫٠٠٠ كتاب وهو رقم يأتي بالمستوى الثالث بعد امريكا وروسيا •

ومن اللافت للنظر ان صغار اليابانيين يحرزون درجات ونتائج اكثر تفوقا وامتيازا كما هو واضح من ادائهم في التقويم الدولي لاختبارات الانجاز التربوي وقد صنف اليابانيون بين افضل طلبة العالم اجمع في الحقول الخاصة بالرياضيات والعلوم وان لديهم معلومات افضل من نظرائهم في الولايات المتحدة الامريكية(١١) •

---

(11) Edmond J. King, op. cit. مصدر سابق P. 500

واخيرا لكي نضع الامر في نصابه لابد من الاشارة الى ان استاذالتاريخ في جامعة هارفارد Edwin Resichauer علق قائلا « انه ليس هناك شيء اكثر اهمية وادعى الى الاعتراف من انه خلف نجاح المجتمع الياباني نظامه التربوي »[١٢] .

قبل الدخول في تفاصيل هيكل النظام التربوي في اليابان اجد من المناسب استعراض واقع التربية وكالاتي :

اولا ــ التربية في اليابان قبل الحرب العالمية الاولى :

كما اشرنا من قبل فقد اهتم النظام الكونفوشي بالتعلم وجعل له افضلية ومنحه اولوية عالية أكدته المبادىء الخمسة الاتية : التعلم ــ حب الخير ــ العدل ــ حسن المعاملة او اللطف وتكامل الشخصية . واتسمت التربية بالاتي :

١ ــ اصدر مؤسس النظام (طوكوجاوا) مرسوما عاما (١٦١٥) يعلن فيه ويوضح ان تعلم فنون السلام يعد مساويا تماما لتعلم فنون القتال او الحرب ، وان كليهما يجب ان يتعلمها وان يتقنها الياباني وبناء على ذلك نجد ان حكومة اليابان قد دعمت المدارس والمعاهد لتعليم ابناء المحاربين ، وبلغ هذا النظام قمته عندما انشئت الكلية الكونفوشيوسية عام ١٩٣٠ ويتسم النظام التربوي فيها على انه مزيج من التربيةالاخلاقية والتربية المهنية وتنمية الجوانب الاخلاقية في الشخصية ، فضلا عن اكسابه المهارات التي يحتاجها للتمكن من خدمة الحكومة ، وبحلول عام ١٨٦٠ وجد ان هذا المنهج كان سائدا في اكثر من ٣٠٠ مدرسة منتشرة في مجموعة الجزر اليابانية[١٣] .

(١٢) بوشامب ، ادوارد ، ر. التربية في اليابان المعاصرة ، ترجمة محمد عبدالحليم مرسي ، الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج 1985 ص١٧ــ١٨ .

(١٣) بوشامب ادوارد د. التربية في اليابان مصدر سابق ص٢٣ــ٢٤ .

٢ ـ بدأت النهضة الثقافية والعلمية والاقتصادية مع عهد ميجي حيث انفتاح اليابان على الثقافة الغربية كما اشير سابقا ، ويمثل عهد ميجي ١٨٦٨ـ ١٩١٢ عصرا من اروع العصـور في تاريخ اليابان حيث حقق لليابان في بضع عشرات من السنين ما اقتضى تحقيقه مئات السنين في الغرب ، الا وهو اقامة امة عصرية ذات صناعات حديثـة ومؤسسـات سياسية حديثة واساوب مجتمع عصري .

لقد ادى ميجي اليمين الدستوري الامبراطوري عام ١٨٦٨ وكان مَعلما رئيسا من معالم التربية في اليابان ، ففي هذا الحين قال ميجي الشاب « ان المعرفة سوف يبحث عنها ويقتفى اثرها في كل انحاء العالم » واتخذ لتنفيذ هذا المبدأ ما يأتي :

أ ـ ارسال مئات الطلبة اليابانيين الى كل من بريطانيا ، فرنسا ، المانيا وامريكا ، وذلك بهدف تعلم اسرار التكنولوجيا الغربية .

ب ـ دعوة آلاف من الخبراء الاجانب الى اليابان بمرتبات مغرية وكانت مهمة هؤلاء الخبراء الاساسية هي مساعدة اليابانيين في انشاء اعداد كبيرة ومتنوعة من المعاهد والمؤسسات ، ابتداء من انشاء المصانع الى بناء شبكات السكك الحديد وتقديم طرق الزراعة الحديثة واساليبها[١٤] .

جـ ـ اسس ميجي وزارة التربية عام ١٨٧١ وبعد عام واحد اصدر القانون الاساس للتعليم في اليابان وكان مركزيا ، ويعـد هذا العام تاريخيا وتنطلق اهميته من كونه اعلانا من حكومة ميجي بتأييد مبدأ التعليم واعتباره عاما لجميع الناس لكي لا يكون هناك امي في القرى ولا عضو في الاسرة اميا ، وينبغي ان يدرك الاباء ان رعاية الاطفال ذات اهمية عندما يتلقون التعليم[١٥] .

---

(١٤) يوشاسب ادوارد . ر التربية في اليابان مصدر سابق ص٢٥ـ٢٦ .

(١٥) جمال اسد مزعل ـ دراسات في التربية المقارنة ص٢١٦ .

٣ ــ لقد انشىء عام ١٨٨٦ « نظام التعليم المركزي » وصدرت تشريعات تتعلق بمدارس تتفق مع المرحلة التي كان التعليم الياباني يستعد للانتقال اليها • وقد بذلت في هذه الفترة جهود نشطة لادماج التراث التعليمي الياباني مع معطيات الحضارة الغربية ولا سيما الخبرات التربوية في امريكا التي استندت اليها التغيرات التربوية في بداية حكم ميجي ، ثم توجهت اليابان بعد ذلك نحو الاعتماد على الخصائص القومية في تجديد مضامين التربية ويشير وزير التعليم الى ان معرفة الشعب المهنية ومهاراته تشكل رأس مال غير محسوس لاثراء الامة وتقويتها وان تعهد مثل تلك المعرفة والمهارات يشكل قلعة لصيانة استقلال البلاد كما هو الحال في تدريب جنود الجيش والبحرية »[١٦] •

ثانيا ــ التربية في اليابان بعد الحرب العالمية الاولى :

ازداد الطلب على الايدي العاملة تحت تأثير النمو الصناعي واصبحت الصناعة تتحكم في طبيعة التعليم ، واخذ هذا الاقبال يتجه نحو المؤسسات التعليمية في المدارس الثانوية والمعاهد العليا ، وولدت هذه الزيادة تحركا لاصلاح التعليم الثانوي ، وفي عام ١٩١٧ عقد مؤتمر للتعليم كان يهدف الى اعادة تنظيم نظام التعليم وتنقيحه الذي تأسس في عهد (ميجي) كي يكون اكثر توافقا مع احتياجات العصر •

وفي عام (١٩١٧ ــ ١٩١٩) قدم المؤتمر الذي اصبح هيئة ملحقة بمجلس الوزراء ثلاث توصيات بشأن التعليم الابتدائي وتوصيتين بشأن التعليم دون الجامعي ، وتوصية واحدة عن كل من التعليم الجامعي والتعليم المهني والتعليم بمدارس المعلمين ونظام التفتيش وتعليم النساء والتعليم الحرفي والتعليم بالمراسلة ونظام الدرجات •

---

(١٦) ماكوتو اسو ، ايكوو مانو ــ التعليم ودخول اليابان العصر الحديث القاهرة ١٩٧٦ ص٧ •

وفيما يتعلق بالتعليم الثانوي اجد من المناسب الاشارة بتركيز يتوافق مع اهتمام المسؤولين عن التعليم العام في العراق والبدائل المطروحة في وزارة التربية العراقية في مجال تنويع التعليم الثانوي في العراق • لقد أشار المؤتمر الى « ضرورة توسيع مجال الاختيار في موضوعات الدراسة في هذه المرحلة كي يستطيع الطالب اختيار ما يتوافق مع خطته في المستقبل على وفق الظروف الواقعية في المنطقة التي تقع فيها المدرسة ، وكذلك فتح الطريق لانشاء دراسات مختلفة لدراسة الفنون والاداب والتاريخ ودراسة التدريب المهني لكي يصبح التعليم ملائما وذا اثر فعال في الحياة الواقعية بعد التخرج » كان ذلك قبل ٨٠ عاما من الان !! اليست هـذه المرونة في تخطيط المناهج وتنويع التعليم احد الاسباب في رفعة اليابان ••؟؟

وعلى أثر هذه التوصيات اصدرت وزارة التعليم في نهاية سنة ١٩٢٤ تعليمات جعلت المستوى الدراسي لخريجي المدارس الحرفية مساويا لمستوى خريجي المدارس المتوسطة ، وفيما يتعلق بالتعليم دون مستوى الجامعة فقد اكدت التوصية تطبيق نظـام المدرسة العليا ذات السنوات السبع وهـذا النظام يتكون من دراسة ثلاث سنوات بعد الابتدائية ودراسة اعلى لمدة اربع سنوات بقصد تحسين برامج التعليم(١٧) •

ثالثا ــ التربية اليابانية قبل الحرب العالمية الثانية :

كانت المدرسة المتوسطة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية القناة الوحيدة التي تقود الى تعاليم اعلى ، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات والقبول فيها يستند الى امتحانات خاصة تجريها المدارس للمتقدمين للقبول فيها ، وبعد انهاء المرحلة المتوسطة على الطالب اجتياز امتحان قبول يُعد من قبل المدارس التحضيرية للجامعة او تسمى بالمدارس العليا ، وفي هـذا الامتحان يتم اختيار الصفوة •

(١٧) ماكوتو اسو ايكرو اماتو ، المصدر السابق ص٥٣ـ٥٨ •

اما الطلبة الذين انهوا المرحلة المتوسطة ولم يستطيعوا الحصول على المدارس التحضيرية فانهم سوف يواجهون الاختيارات الاتية : عدم الاستمرار بالتعليم ، التوجه الى سوق العمل ، الدخول في المدارس التقنية ، وتعد هذه مؤسسات جامعية صغرى ومدة الدراسة في المدارس العليا ثلاث سنوات ، وكانت هذه المدارس هي القناة الوحيدة التي تقود الى الجامعة[١٨].

ان السمة الرئيسة للنظام التعليمي في اليابان قبل الحرب العالمية الثانية هي وجود مستويات هرمية للمدارس والجامعات اليابانية . وكانت الجامعات الامبراطورية تحتل المكانة الاولى من بين ٤٥ جامعة كانت موجودة آنئذ وكانت جامعة طوكيو تحتل المكانة الاولى بين جامعات الامبراطورية ، اما الجامعات الحكومية فكانت تحتل المرتبة الثانية وتحتل الجامعات الاهلية المرتبة الثالثة[١٩] .

رابعا ــ التربية اليابانية بعد الحرب العالمية الثانية :

اعلنت اليابان استسلامها في آب عام ١٩٤٥ ، وقبلت باتفاقية بوتسدام ونفذت بنودها جميعا ومنها ما يهمنا في مجال بحثنا « ابعاد جميع العناصر التي كانت في السلطة في اثناء الحرب » وقام الجنرال ماك آرثر الامريكي بحملة اجراءات استهدفت تحديد اليابان من النزعة العسكرية وقام الامريكيون بهذا الاجراء اعتقادا منهم بان النظام التربوي في اليابان كان اداة رئيسة في تغذية التعصب القومي قبل الحرب ، وكانت الخطوة الاولى التي قاموا بها هي تسريح المعلمين الذين كانوا من دعاة التعصب والمتعاونين مع السلطات خلال الحرب ، والغوا برامج التعليم التي تغذي التعصب القومي وكذلك برامج الاعداد العسكري[٢٠] .

(١٨) جمال اسد مزعل ، مصدر سابق ص٢١٨ــ٢١٩ .
(١٩) جمال اسد مزعل ، مصدر سابق ص٢٢١ــ٢٢٢ .
(٢٠) اليابانيون ، مصدر سابق ص٢٤٢ــ٢٤٣ .

لقد دعمت سلطات الاحتلال الامريكي هذه الاجراءات بمجموعة قوانين في مقدمتها « لائحة ادارة نظام التعاليم في اليابان التي أعلنت في ١٩٤٥/١١/٢٢ وقد جاء في هذه اللائحة ما يأتي » :

١ ـ ينظر في جميع محتويات نظام التعليم نظرة انتقادية وسيتم تغيير المحتويات والتحكم بها في ضوء السياسة الاتية :

أ ـ التخلص من ايديولوجية التعصب القومي والبناء العسكري .

ب ـ غرس الافكار التي تدعو الى السلام ، واحترام كرامة الافراد واحترام حقوق الانسان وحرية الكلام والتجمع والحرية الدينية .

٢ ـ يتم تعيين الافراد في مؤسسات التربية والتعليم في ضوء ما يأتي :

أ ـ ابعاد الافراد النشطين وذوي النزعات القومية والعسكرية .

ب ـ الغاء اي تمييز بين الطلبة والمعلمين وموظفي الدولة استنادا الى عوامل الجنس والقومية والاعتقاد السياسي .

٣ ـ اعادة النظر في مجمل العملية التربوية في ضوء السياسة الاتية :

أ ـ اعادة النظر بالمناهج والكتب والاساليب التعليمية في ضوء المتطلبات العصرية بعيدا عن التعصب القومي والنزعة العسكرية .

ب ـ هدف المناهج تربية الافراد على الاحساس بالمسؤولية والمواطنة في ضوء المعطيات الجديدة .

ج ـ اعادة النظر باسرع وقت في نظام التعليم مع اعطاء اهتمام للتعليم الابتدائي واعداد المعلمين حيث هي بداية التغيير .

وفي عام ١٩٤٦ تم استقدام بعثة تربوية امريكية سميت بالبعثة التعليمية الامريكية الاولى لتحديد اجراءات تغيير النظام التربوي الياباني ، وقد ضمت البعثة ٢٧ خبيرا ، ومما جاء في تقريرها :

١ ـ تغيير الادارة المركزية الى ادارة لا مركزية .

٢ ـ تغيير اهداف التعليم الى اهداف ليبرالية وفردية .

٣ ـ مراجعة مكثفة للبرامج التعليمية لتحقيق هذا التغيير .

٤ ـ توسيع سلطات الادارات المحلية في الاشراف على التعليم .

٥ ـ اعتماد نظام دراسي يتكون من ٦ سنوات للابتدائية و٦ ثانوية و٤ جامعية .

٦ ـ اصلاح نظام اعداد معلمي التعليم العام وتدريبهم .

٧ ـ توفير فرص متزايدة للقبول في الكليات والمعاهد ، والغاء نظام الصفوة .

وقد تم اعتماد هذه التغييرات في تشريعين جاء فيهما :

١ ـ تحديد اهداف التربية بانها تهدف الى التنمية المتكاملة للفرد من جميع الجوانب والعمل على رفعة الافراد وتقدمهم ، وحب الحقيقة ، والعدل وتقدير الاخرين ، واحترام العمل ، وتحمل المسؤولية ، وغرس روح الاعتماد على النفس ، وروح الاستقلال لدى الافراد .

٢ ـ السماح للافراد بانشاء مدارس خاصة خاضعة لقوانين التعليم سواء في البرامج والتنظيم او الملاك امعانا في اللامركزية .

٣ ـ تأكيد اهمية الاهداف الدينية ومكانة الدين في الحياة الاجتماعية(٢١) .

(21) Edmond. J. King "Other Schools and Ours" op. cit. PP. 450-451.

هيـــكل التعـــليم :

كان التعليم في اليابان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية يتميز بانه ذو مسارات متعددة (Multy Track System) وكان من ملامح هذا النظام انه يقوم باعداد الشباب ليخدموا في قطاعات العمل المنتج ، بينما يعمل على اعداد عدد محدود لتحمل المراكز القيادية • وكان السلم التعليمي قبل الاحتلال الامريكي على الشكل الاتي :

١ ـ التعليم الابتدائي ٦ سنوات ، وهو تعليم مجاني والزامي •

٢ ـ التعليم المتوسط ٥ سنوات •

٣ ـ التعليم فوق المتوسط ٣ سنوات •

٤ ـ التعليم الجامعي لمدة ٣ـ٤ سنوات[٢٢] •

اما التعليم اليوم في اليابان كما يوضحه المخطط في الصفحة التالية فانه عبارة عن ميراث يرجع في اصله الى (الاصلاحات التربوية) التي اخـذت مكانها في فترة الاحتلال الامريكي والى المدة التي اعقبت عام ١٩٥٢ بعـد توقيع معاهدة السلام وقد عـُدّل بعد الحرب العالمية الثانية ليوافق المفاهيم والسـُلـّم الامريكي وعلى الشكل الاتي :

ـ التعليم الابتدائي ٦ سنوات ، وهو تعليم مجاني والزامي •

ـ التعليم ما قبل الثانوي ٣ سنوات ، وهو تعليم مجاني والزامي •

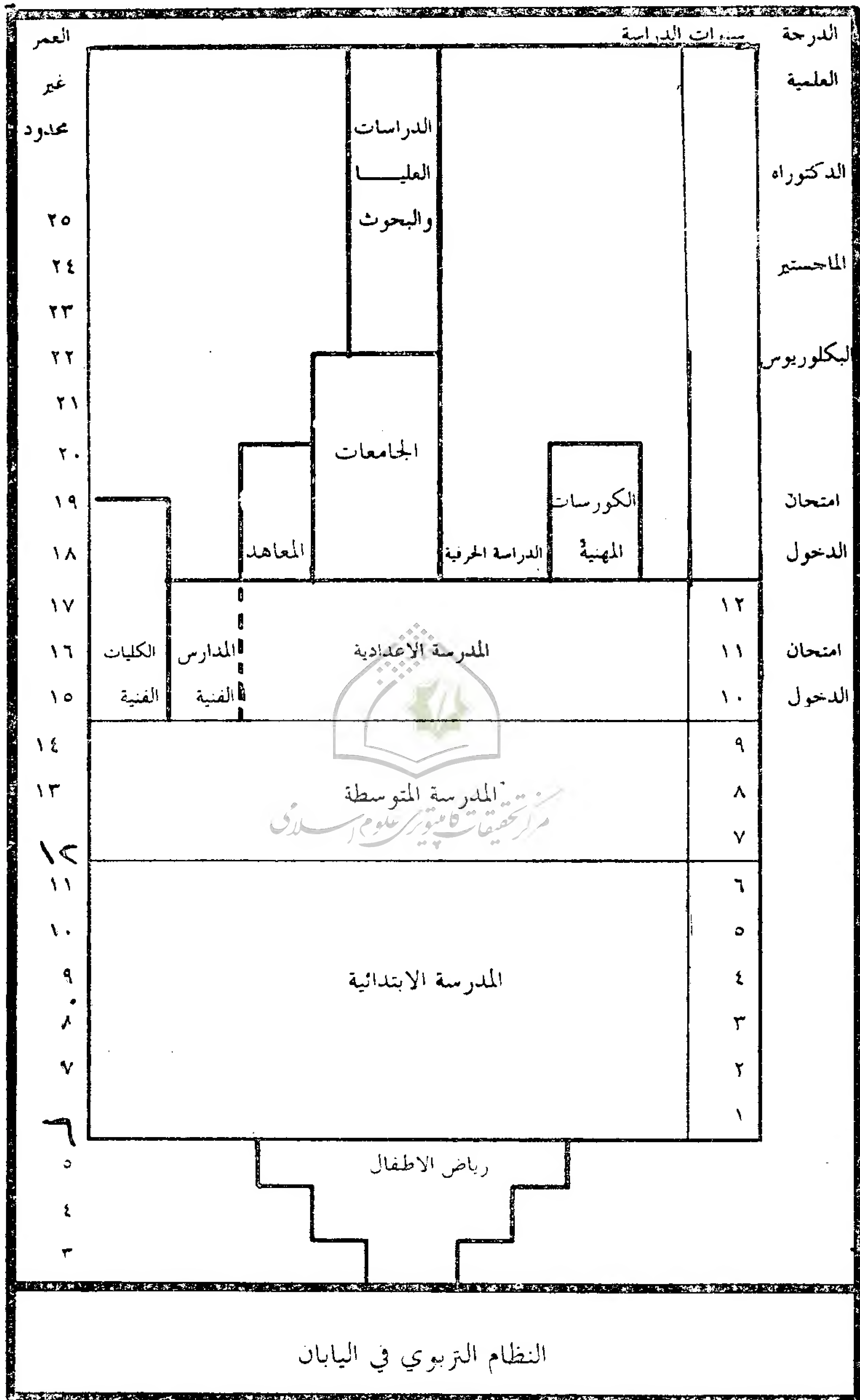
ـ التعليم الثانوي ٣ سنوات •

ـ التعليم الجامعي معاهد ٢ـ٣ سنوات ، كليات ٤ سنوات[٢٣] •

---

(٢٢) الدكتور ناجح الراوي ، مصدر سابق ص١٤ •

(23) Edmond. J. Kinb, P. 447.



Edmond. J. King

وفي السنوات الاخيرة ابتدأ اليابانيون بالحديث عن ثوراتهم العلمية الثلاث ، الاولى في عهد ميجي ، والثانية ما بعد الاحتلال الامريكي ، وثالثا المدة الحساسة لاواخر السبعينات ، وهم يرون انهم في هذه المرحلة يجب ان لا يستنسخوا تربويا بل يجب ان ينتجوا شيئا يربى وينمو داخليا وتبنوا فكرة التلمذ Apprenticeship لجميع مناحي الحياة ولجميع اليابانيين ورفض فكرة المستهلك Consumer ، حيث يتعايش الياباني مع الجو الذي يضمه في اي حقل من حقول الحياة بعد ان ارسلوا الكثير من ابنائهم الى انحاء الدنيا وحتى مصر وطننا العربي ليتعلموا ويتقنوا العمل الذي جاءوا من اجله ليعودوا الى اليابان لينتجون ما يشبه (او احسن) بينما يبقى الاستهلاك سمة من سمات بقية الشعوب ومنها شعبنا العربي .

وما دمنا ضمن الحديث عن الهيكل التعليمي في اليابان فلابد من الاشارة الى ان اليوم الدراسي الياباني طويل ولمدة خمسة ايام ونصف اسبوعيا ، واجازة الصيف تزيد قليلا عن شهر ، ويتسم النظام التدريسي بالحزم الشديد ، ولهذا فان قدرة اليابانيين على الاستيعاب في مرحلة التعليم الاساسي تفوق قدرة اي شعب آخر ، وان جهاز التعليم في اليابان يجذب العناصر الكفوءة والمتميزة ، والمدرسة اليابانية تعلم الطالب كيف يدخر نقوده للمستقبل وتشجع على العمل الجماعي[٢٤] .

ولكي تكون الصورة واضحة لدى القارىء فاجد أنه لابد من تفصيل مراحل التعليم العام والجامعي بما يفسر مخطط الشكل السابق :

اولا — رياض الاطفال Kindergarten [٢٥]

يشير Edmond King في كتابه « مدارسهم ومدارسنا » الى ان اليابان لابد ان تكون الدولة الوحيدة في العالم التي فيها اختبارات ما قبل مرحلة

---

(٢٤) الدكتور ناجح خليل الراوي ، مصدر سابق ص١٤ .
(25) Edmond J. King مصدر سابق P. 459.

رياض الاطفال ، وهذا الاهتمام الخيالي بالذكاء عند الاطفال كان سببا لرغبة الاباء والامهات الطموحين والعوائل المزدهرة في التأكد من ان اطفالهم سوف يدخلون الروضة الملائمة .

وتعد رياض الاطفال المرحلة الاولى من سلم النظام التربوي والتعليمي في اليابان ، وهي مؤسسات تقبل الاطفال الذين أكملوا سن الثالثة من عمرهم وحتى سن السادسة وتهدف الرياض الى :

١ ــ غرس العادات الضرورية للتعامل الاجتماعي وللحياة السعيدة .

٢ ــ تطوير خبرات الحياة الجماعية وغرس الرغبة للمشاركة والعمل الجماعي .

٣ ــ تمكينهم من الفهم الصحيح للحياة الاجتماعية وما يتعلق في يومهم الحياتي .

٤ ــ تنمية امكانية الاطفال اللغوية .

٥ ــ تمكينهم من التعبير عن افكارهم من خلال الموسيقى والرقص والرسم وتحقيق ذلك يتم من خلال المجالات الستة الاتية :

الصحة ــ المجتمع ــ الطبيعة ــ اللغة ــ الموسيقى ــ والفن .

وتعد رياض الاطفال التابعة للمؤسسات الاهلية اكثر من تلك التي تتبع الرسمية الا ان البرنامج في جميع ابعاده موحد[٢٦] .

اليــوم في الــرياض :

تنظم نشاطات الاطفال التربوية من الساعة الثامنــة والنصف صباحا حيث يفتتح بوقت من اللعب الحر يستمر حتى العاشرة ، ثم مدة استراحة قليلة يعقبها اجتماع خاص يمــارس الاطفــال فيه فعاليات مختلفة وبعدها

---

(٢٦) بوشامب ، ادوارد ، التربيــة اليابانيــة المعــاصرة ، مصــدر سابق ص٣٧ــ٣٨ .

وقت تقديم غذاء ويقضون بعد ذلك مدة في اللعب ثم يبدأون بتنظيف قاعاتهم استعدادا للعودة الى منازلهم في الساعة الواحدة ظهرا(٢٧) •

ثانيا ـ المرحلة الابتدائية :

تهدف المدرسة الابتدائية الى تزويد الاطفال بتعليم اولي عام استنادا الى نموهم العقلي والجسمي ، وحدد قانون التربية اهداف المدرسةالابتدائية كالاتي :

١ ـ تكوين قدرات الفهم الصحيح لدى الاطفال حول الظروف التي تخص بيئتهم المحلية وتمكينهم من التعاون فيما بينهم وتكوين القدرات التي تمكنهم من العمل المستقل المستند الى خبراتهم في الحياة الاجتماعية سواء داخل المدرسة او خارجها •

٢ ـ تنمية الفهم الصحيح لدى الاطفال حول الظروف التي تخص بيئتهم المحلية وتربية الاطفال في ضوء التعاون بين الدول •

٣ ـ تزويد الاطفال بأسس المعارف والمهارات التي تخص العيش ويحتاجونها في حياتهم اليومية •

٤ ـ تكوين امكانات الفهم واستخدام التعبير الصحيح في اللغة اليابانية في في الحياة اليومية •

٥ ـ تكوين امكانات الفهم والتعامل العلمي لدى الاطفال مع الظواهر الطبيعية التي تواجههم في حياتهم اليومية •

٦ ـ تنمية الادراك والمهارات في الموسيقى والفنون الجميلة والاداب التي تغني حياة الافراد •

---

(٢٧) جمال اسد مزعل ، دراسات في التربية المقارنة ، مصدر سابق ص٢٢٨ـ٢٢٩ •

٧ ــ تعويد الطفل على الادراك والاستخدام الصحيح للعلاقات الرياضية في الحياة اليومية •

معلومات تخص المرحلة :

ــ مدة الدراسة ست سنوات الزامية وكذلك بالنسبة للمعوقين •

ــ تقديم السلطات المحلية مساعدات مالية لمن يواجه صعوبة من اولياء الامـــور •

ــ انشاء المدارس بشكل كاف لاستيعاب الاطفال بالريف والمدينة •

ــ انشـــاء المدارس الاهليـــة وتحت اشـــراف الســـــلطات التربويـــة المختصة •

ــ يبدأ اليوم المدرسي من الثامنة والنصف صباحا وحتى الثالثة عصرا •

ــ يحتوي المنهج ــ اللغة اليابانية ــ المواد الاجتماعية ، الرياضيـــات العلوم ، الفن ، الاقتصاد المنزلي ، التربية البدنية والتربية الاخلاقية •

ــ تنتهي المرحلة بامتحانات نهائية تحدد من خلالها نوع المدرسة[٢٨] •

ثالثا ــ المرحـــلة المتوســـطة :

وهي مرحلة تعد امتدادا لمرحلة الالزام ومدتها ثلاث ســـنوات وحدد قانون التربية المدرسية ان هذه المرحلة تهدف الى تزويد الطلبة بتعليم عام مع مراعاة النواحي العقلية والجسمية وهدفها الاتي :

١ ــ تنمية الخصائص الضرورية لاعداد افراد يمارسون دورهم في المجتمع والدولة •

٢ ــ تزويد الطلبة بالمعارف والمهارات الاساسية للمهن واحترام العمل مع تمكينهم من اختيار نوع التعليم الذي يتفق مع امكاناتهم •

٣ ــ العمل على تمكين الطلبة من النشاط بفاعلية مناسبة داخل المدرســـة

(28) Other Schools and Ours, P. 447.

وخارجها ، والعمل على تنمية الخصائص التي تجعلهم قادرين على اتخاذ قراراتهم .

معلومات تخص المرحلة :

- عدد الساعات الدراسية الاسبوعية ٣٥ ساعة .
- تشمل المواد الدراسية اللغة اليابانية ، المواد الاجتماعية ، الرياضيات ، العلوم ، الموسيقى ، الفنون الجميلة ، التربية الصحية ، الفنون الصناعية ، التربية الاخلاقية ، نشاطات خاصة ، مواد مختارة ، لغات اجنبية وموضوع مهني .
- اليابان في منهجها هذا تتفق مع بريطانيا في Comprehensive Schools
- يلزم الطلبة بالاسهام بالنشاطات والسفرات العلمية .
- تنتهي المرحلة بامتحانات عامة تؤهل مجتازيها الدخول الى المدارس الثانوية العليا ، ويتجه جزء من الخريجين الى العمل .

رابعا ـ المرحلة الثانوية :

تسمى المدرسة الثانوية العليا وتهدف الى اعطاء الطلبة تعليما عاما ، وتعليما تقنيا عاليا استنادا الى امكاناتهم العقلية والجسمية واعتمادا على اسس التعليم العام وتهدف المدرسة الى :

١ ـ تكوين خصائص الشخصية للطلبة بما ينسجم ومتطلبات المجتمع والدولة ، فضلا عن تعميق نتائج المرحلة المتوسطة .

٢ ـ تكوين القدرات والخصال التي تجعل من الطالب قادرا على اتخاذ قرار مناسب يخص مستقبل تعليمه على وفق امكاناته وقابلياته .

٣ ـ تعمل على تزويد الطلبة بالثقافة العامة وامدادهم بالمهارات التقنية .

٤ ـ تنمية الادراك العميق والامكانات العالية في كيفية تحمل المسؤولية

هناك ثلاثة انواع رئيسة من المدارس الثانوية العليا

أ ــ المدارس الثانوية ذات الدوام الكامل full-time

ب ــ المدارس الثانوية ذات الدوام الجزئي part-time

جـ ــ المدارس الثانوية بالمراسلة[29] correspondence

معلومات تخص المرحلة :

ــ المدارس الثانوية العليا ذات الدوام الكامل هي النوع الرئيس للمدرسة اليابانية ، وهي على ثلاثة انواع .

أ ــ مدارس ثانوية اكاديمية وتشكل ٤٠٪ من المجموع الكلي .

ب ــ مدارس مهنية وتشكل ٢٤٪ من المجموع الكلي .

جـ ــ مدارس ثانوية شاملة وتشكل ٣٦٪ من المجموع الكلي .

ــ مدة الدراسة ٣ او اربع سنوات كل حسب البرامج المعدة للمرحلة .

ــ تبلغ ساعات الصف الاول الاسبوعية ٣٢ ساعة والصف الثاني ٣١ ساعة للبنين و ٣٣ ساعة للبنات ، اما الصف الثالث فـ ٣٠ ساعة[30] .

خامسا ــ التعليم العالي :

حدد قانون التربية المدرسية مهام التعليم العالي بما يأتي :

أ ــ انها مراكز تعليمية تهدف الى تزويد الطلبة بتعليم عال في المجالات التقنية والثقافية .

ب ــ تنمية الامكانات العقلية وتطوير القيم الخلقية لدى الطلبة .

جـ ــ تضم الجامعات اختصاصات مختلفة غير انه يمكن للجامعة ان تكون

(٢٩) بو شامب ، ادوارد ، مصدر سابق ص٤٦ــ٤٧ .

(٣٠) جمال اسد مزعل ، مصدر سابق ص٢٣٠ــ٢٣٦ .

متخصصة في ميدان واحد فقط ، مثل الاختصاصات التقنية اوالهندسية او الاقتصادية او غيرها[٣١] •

كما تستطيع الجامعات تنظيم دراسات مسائية الى جانب الدراسات النهارية ، ومدة الدراسة في الجامعة اربع سنوات واكثر من ذلك في تخصصات اخرى ، والقبول فيها يشبه القبول في جامعاتنا العراقية في كثير من المجالات ، الا ان ما يميز الجامعات اليابانية هو اجتياز الطالب لامتحان دقيق وصعب تعده الكلية شرطا للقبول فيها ، ويتعرض الطلبة لمنافسة شديدة للقبول في الجامعات الشهيرة — طوكيو مثلا — وهكذا يتم اختيار النخبة الافضل •

اما عن ترتيب الجامعات اليابانية فكل منها له مركزه العلمي الخاص به ، وتحتل جامعة طوكيو مكان الصدارة بين الجامعات اليابانية حيث تضم اشهر الاساتذة في الاختصاصات كافة ، ثم تأتي بعدها الجامعات الامبراطورية ومنها جامعة — كيوتو — وتلي هذه جامعات خاصة ذات شهرة عالية مثل جامعة — كيو — •

وقاعدة الهرم الجامعي يحتوي على مئات من المعاهد والمؤسسات التعليمية العالية • فضلا عن Jonior Colleges التي تقدم برامج تعليمية تستغرق مدة سنتين او ثلاث سنوات في ميادين متنوعة كالزراعة والعلوم الانسانية والتربية والادب والميكانيك والكهرباء وغيرها •

وسياق الدراسات العليا يشبه الى حد كبير ما هو عليه الحال في العراق من حيث المؤهل الجامعي ولكن يسبق (الدخول للدراسات العليا) امتحان فيه الكثير من الصعوبة والجدية وهنا تكون المنافسة على اشدها لتخرج منها الصفوة المختارة لتحصل على اعلى الدرجات العلمية والذين سيتبؤون المناصب الادارية والعلمية والتدريس في الجامعات[٣٢] •

---

(31) Other Schools and Ours, P. 447.

(32) Other Schools and Ours, Pp. 469—471.

معلومات تخص المرحلة

صنف البرفسور تيتسو ياكومياباشي التعليم العالى الى سبع مجاميع :

١ ـ الجامعات التسع العليا متعددة الاختصاصات ـ جامعات امبراطورية مخصصة للتعليم المتقدم والبحوث .

٢ ـ استحدثت حوالي ٤٠٪ من الجامعات الرسمية المركبة عام ١٩٤٩ لكي تصلح للتربية العليا من خلال دمج الجامعات الرسمية ذات الاختصاص الواحد مع الكليات التقنية .

٣ ـ ٣٠٪ من الجامعات الرسمية ما زالت ذات اختصاص واحد متميز في حقول التكنولوجيا ، الفنون الجميلة ، اللغات الاجنبية والعلوم الاجتماعية .

٤ ـ ٢٧٤ جامعة خاصة فيها اختصاص واحد او اختصاصات متعددة .

٥ ـ (٨٣) جامعة رسمية (نسوية) منها (٧٣) متخصصة بالفن اللبرالي والقليل منها متخصص بالطب والصيدلة وما الى ذلك .

٦ ـ (٨) جامعات رسمية للدراسات التربوية اضافة الى (٣٨) جامعة تخصص في التربية لتوفير معلمين في المناطق الريفية .

٧ ـ (٤٩٧) كلية للاحداث غالبا ما تكون صغيرة الحجم وفيها اقسام قليلة الاختصاص ، اغلبها له علاقة بالمهن النسوية والمنزلية .

٨ ـ ٧٠٪ من المسجلين في التربية العليا (التعليم العالي) في جامعات خاصة بعضها معروفة دوليا ومؤثرة جدا في سلم التعليم والعمل الياباني .

سادسا ـ اعداد المعلمين :

على الرغم تشابه مقررات الدراسة ومستوياتها في مؤسسات اعداد المعلمين في اليابان بصفة عامة مع تلك الموجودة في الدول المتقدمة ، الا ان الامر الذي يلفت النظر في التجربة اليابانية ، هو ان وضع المعلم الياباني كان وما

زال مرتفعا اجتماعيا واقتصاديا ، حتى انه في مرحلة ما بين (١٨٧٨ـ١٨٨٧) كان حوالي ٨٠٪ من الطلاب يلتحقون بمدارس او معاهد اعداد المعلمين من طبقة الساموراي ، وفي نهاية عصر ميجي (١٩١٢) كان معظم الطلاب الذين يلتحقون بمدارس اعداد المعلمين Normal Schools من عائلات غير الساموراي ، ومع ذلك فقد اتصفت مهنة التعليم دائما بالقداسة والاحترام في اليابان(٣٣) .

ويتم اعداد المعلمين بالشكل الاتي :

١ ـ الكليات الجامعية المتوسطة تقوم باعداد معلمي رياض الاطفال والصفوف الاولى من المرحلة الابتدائية ولمدة سنتين او ثلاث سنوات بعد الثانوية

٢ ـ الكليات الجامعية اي كليات التربية ، وهذه تتولى اعداد معلمي المرحلتين المتوسطة والثانوية والصفوف الاخيرة من المرحلة الابتدائية، ولمدة اربع سنوات ، ويدرّس في المرحلة الثانوية العليا (الاعدادية) من لديهم درجة الماجستير ولا يحق لاحد التدريس في اية مرحلة من المراحل من دون شهادة تأهل تربوي صادرة عن مجلس التعليم وبشروط معينة(٣٤) .

اما نسبة عدد التلامذة لكل معلم في عام ١٩٨٢ وحتى مرحلة التعليم الالزامي فقد كانت ٢٥ تلميذا لكل معلم انخفضت في عام ١٩٨٤ الى ٢٤ تلميذ .

اما النسب في مراحل التعليم العام لسنة ١٩٨٠ فقد كانت ٢٤ في الرياض و ٢٥ في التعليم الابتدائي و ٢٠ في المتوسط والثانوي و ١٩ في الاعدادي

(٣٣) احمد ابراهيم احمد ـ التربية المقارنة ـ دار المطبوعات الجديدة ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص١٨ .

(٣٤) باعباد علي هود ـ نظم التعليم وفلسفاتها في دول العالم ـ دراسة مقارنة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٩٣ .

من التلامذة لكل معلم مع وجود فروق طفيفة بين المدارس الحكومية الرسمية والمدارس الاهلية[٣٥] .

خصائص التربية اليابانية :

١ ــ يستمد النظام التربوي الياباني مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح امته واحتياجات وطنه ، ولا يأتي انعكاسا لنماذج تربوية خارجية الا فيما يتعلق بالتقنيات والوسائل العملية التي هي عامل مشترك بين جميع الامم وهذه التقنيات والوسائل لم تستوردها اليابان الا بعد تجريدها من انحيازاتها القيمية ومن خلفياتها الايديولوجية .

٢ ــ استمد النظام التربوي الياباني انطلاقته من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة فعلا ولم يدمرها او يهملها ليبدأ من نقطة الصفر على خطى نماذج مقتبسة من الغرب .

٣ ــ يعد التعليم في اليابان خدمة وطنية عامة وواجبا قوميا يتجاوز اي جهد فردي او فئوي وانه في مناهجه وتوجيهاته يمثل عامل التوحيد الاهم لعقل الامة وضميرها ، ولا يسمح فيه بتعدد المناهج والفلسفات التربوية .

٤ ــ لم تأخذ اليابان بالنزعات الليبرالية والنفسية الغربية في التوجيه الفكري للاجيال وفي ضبط سلوكها العملي والاخلاقي وظلت متمسكة بقيم الانضباط الموحد في الفكر والسلوك .

٥ ــ لم تأخذ اليابان ببريق الدراسات النظرية الغربية من فلسفات وحقوق وانسانيات ، بل انصرفت الى تأسيس قاعدتها العلمية التقنية الصناعية وما زال التعليم المهني متقدما على النظري ، ونقطة القوة في النظام التربوي الياباني ليست جامعاته وانما معاهده التقنية المتوسطة التي تمثل عموده الفقري .

(٣٥) جمال اسد مزعل ، مصدر سابق ص٢٥٢.

٦ ـ استطاعت اليابان ان تجمع بين شعبية التعليم وارستقراطيته الفكرية ، بمعنى ان التعليم اتيح للجميع في قاعدة الهرم التربوي لتزويد الامة باليد العاملة المتعلمة ، وتمت الموازنة بين تعليم العامة واعداد النخبة •

٧ ـ لم تأخذ اليابان ولم تنبهر باللغات الاجنبية ، وتبنت فكرة « لا يمكن لاي امة ان تبدع علميا الا بلغتها الام ، ولا يستمع العالم الى امة تتحدث بلغة غيرها » •

٨ ـ على الرغم من مركزية التوجيه الفكري القومي في النظام التربوي الياباني فانه يقوم على مرونة ولا مركزية ملحوظة ، ووفقوا بين مركزية التوجيه ولا مركزية التنفيذ في معادلة متوازنة •

٩ ـ تعد مهنة التدريس في اليابان من المهن المربحة اقتصاديا حتى بالقياس لاعمال القطاع الخاص ، وبين خمسة يابانيين يتقدمون لمهنة التدريس لدى الدولة يفوز واحد منهم فقط بشرف المهنة وامتيازاتها المعيشية ، وقد ادى ذلك الى الحفاظ على مستوى نوعي متفوق للمعلم الياباني ، ادى بدوره الى تنمية نوعية للعملية التربوية باسرها •

١٠ـ اليابان لم تنسق وراء نزعة تحويل الثقافة العامة للامة الى منشط من مناشط الاعلام كما حدث في الكثير من بلدان العالم الثالث ، بل بقيت مهمة دعم الثقافة الى وزارة التربية والعلوم والثقافة[٣٦] •

الدروس المستنبطة من تجربة اليابان :

ماذا تعلمنا من رحلتنا في عالم التربية في اليابان ؟

الاول ـ لقد رأينا من دون اي شك ان التربية تعتمد ككل والى حد بعيد على التأثيرات الثقافية لاصالة الموروث التربوي الياباني وليس اسهل على

(٣٦) مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ رسالة الخليج العربي ، العدد ٢١ ١٩٨٧ ص٤٢ـ٤٦ •

الفرد معرفة عمق وأصالتها في حضارة العرب والمسلمين ، مدرسة الرسول العظيم ما يغنينا عن التقليد ٠

الثاني : اهتمت اليابان منذ وقت مبكر باصلاح نظام التربية والتعليم وعلينا اصلاح نظامنا التعليمي وان نجذب خيرة الشباب لهذا القطاع وان نعد طلبتنا للتفكير والحوار والابداع بدلا من التلقي « الببغاوي » ٠

الثالث : الاهتمام الجدي والنوعي بمؤسسات البحث العلمي والتطوير والصرف على هذا القطاع بسخاء(٣٧) ٠

الرابع : اصبح التعليم هو الذي يحدد دور الفرد ومركزه في عصر الجدارة والتفوق الياباني ، ولا شك في ان معدلات التعليم العالية ومستوياتها الممتازة من اهم الاسباب التي تقف وراء نجاح اليابان في مواجهة تحديات الغرب المتفوق في القرن التاسع عشر تكنولوجيا على اليابان ٠٠٠ والواقع انه لا يوجد سبب رئيس او اساسي لنجاح اليابان اكثر من نظامها التعليمي(٣٨) ٠

الخامس : من خلال هذا النظام التعليمي وهيكله اصبحت اليابان واحدة من اكبر امم العالم في مستواها التعليمي العالي ٠

السادس : بالنسبة لكل فرد في اليابان اصبحت الصلة الوثيقة التي تربط بين التحصيل العلمي والنجاح في الحياة امرا مسلما به ٠

السابع : ان اندفاع الياباني نحو التعليم كان عاملا مهما في عملية تنظيم النسل في اليابان ، لان الناس يعتقدون ان انجاب عدد قليل من الاطفال يجعلهم قادرين على الانفاق عليهم للوصول الى مستوى التعليم العالي ٠

الثامن : ان نسبة الشباب الذين يلتحقون بالجامعة في اليابان اكبر كثيرا من نسبتها في دول غرب اوربا ٠

---

(٣٧) الدكتور ناجح الراوي مصدر سابق ص٢٣ ٠

(٣٨) ادون رايشاور ـ اليابانيون ـ ترجمة ليلى الجبالي ـ مجلة عالم المعرفة العدد ١٣٦ الكويت ١٩٨٩ ص٢٣٩ ٠

التاسع : ما زال التعليم في اليابان من اقوى النقاط ، بل هو بالقطع المحور الذي يرتكز عليه النظام الاجتماعي الياباني .

العاشر : ان افضل الجامعات اليابانية وأشهرها تكلف الطلبة اقل قدر من المصروفات ، بينما افقر الجامعات تكلفهم اعلى المصروفات وهو عكس النمط الامريكي[٣٩] .

الحادي عشر : لقد كان اليابانيون يتعلمون من الامريكان والاوروبيين ولكن بعد السبعينات حاول الامريكان والاوربيون ان يتعلموا من اليابانيين من دون جدوى ، لانه ليس من السهل الحصول على المعلومات من اليابانيين[٤٠] .





(٣٩) ادوين رايشاور ، مصدر سابق ص٢٤٥ـ٢٥٠ .

(٤٠) الدكتور ناجح الراوي ، مصدر سابق ص٢٠ .

المصـــــــــادر

١ ــ احمد ابراهيم احمد ــ التربية المقارنة ــ دار المطبوعات الجديدة ، الاسكندرية ١٩٨٨ ٠

٢ ــ ادون رايشاور ــ اليابانيون ــ ترجمة ليلى الجيالي ، مجلة عالم المعرفة العدد ١٣٦ الكويت ١٩٨٩ ٠

3. Edmond. J. King "Other Schools and Ours" Comparative Studies for Today Fifth Eddition Holt Sussex 1979.

٤ ــ باعباد علي هود ، نظم التعليم وفلسفاتها في دول العالم ، دراسة مقارنة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٩٣ ٠

٥ ــ بو شامب ادوارد ــ التربية في اليابان المعاصرة ، ترجمة محمد عبد الحليم مرسي ، الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٥ ٠

٦ ــ جمال اسد مزعل ــ دراسات في التربية المقارنة ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ١٩٨٧ ٠

٧ ــ ماكوتو آسو ايكوو ماتو ــ التعليم ودخول اليابان العصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٦ ٠

٨ ــ د٠ ماهر اسماعيل الجعفري « نحو فهم عربي لعلم المستقبل » صحيفة القادسية العدد ٥٢٦١ حزيران ١٩٩٧ ٠

٩ ــ محمد جابر الانصاري ، جذور التربية اليابانية وخصائضها المتميزة مع مقارنتها ببعض البدايات العربية في التربية ، رسالة الخليج العـــربي ١٩٨٩ ٠

١٠ــ مكتب التربية العربي لدول الخليج ، رسالة الخليج العربي العدد ٢١ ، ١٩٨٧ ٠

١١ــ د٠ ناجح خليل الراوي ــ نظرة الى تجربة اليابان في نقل التكنولوجيا ، مجلة المجمع العلمي الجزء ٢ المجلد ٤٤ ، ١٩٩٧ ٠

قـراءة في منهجيـة
«المعجـم الطبـي الموحـد»

الدكتور مجيد محمد علي القيسي

« المعجم الطبي الموحد » واحد من المعجمات العلمية العربية التي حظيت بتقدير الاطباء بعامة والعلميين الاخرين بخاصة ، منذ ان صدرت طبعته الاولى في بغداد عام ١٩٧٣ ، وكان عدد مفرداتها ، آنئذ ، متواضعا • غير انه كـان سفرا ثابت الاركان واضح الغاية • ثم تبعتها الطبعتان الثانية والثالثة بعـد اعوام قليلة ،وقد تضاعف عدد مفرداتهما ضعفين واكثر •

وهاهو مشروع الطبعة الرابعة بين ايدي المختصين والنقاد لقراءته وابداء الرأي فيه • فقد ضم بين دفتيه اكثر من مائة وخمسين الف مفردة ، وهو رقـم يثلج الصدور ويعزز الثقة بقدرة العلميين العرب على العطاء الاصيل الثر في ميدان رفيع الشأن هو ميدان تعريب العلوم ، متى ما توفرت الارادة الحقيقية الثابتة والاخلاص في العمل •

لقد اتخذ المؤلفون مبادرة فريدة في بابها وهي استئناسهم بآراء نخبة من علماء الطب لاستمزاج آرائهم في منهاجه واسلوبه والفاظه • وهذه ، بلا شك ، خطوة نادرة وعظيمة الفائدة • فهي تؤكد ثقة القائمين له بقدرتهم على تجـاوز الصعاب التي كانت وماتزال ، حتى الساعة ، تعترض صناعة المعجمات وتعطـل سير عملية تعريب التعليم في المعاهد العلمية العربية العليا •

لقد كان من حسن الطالع ان اتصفح بانعـام هذا (المعجم) النفيس وان اختار من بين مفرداته الكثيرة مجموعة يسـيرة ، وهـي الخاصـة بالحرفـين (D) & (E) ، فشرعت في تفحصها ودراستها بتأن ، معتبرا إياهـا

عينة نموذجية ، وبدأت بتسجيل ملاحظاتي وخواطري الموجزة عن منهاجه واسلوب صياغة الفاظه واختيار دلالاتها العلمية ، وبخاصة ما يتصل منها بمصطلحات العلوم الطبيعية ، كالكيمياء العامة والسريرية والاجهزة والمعدات، مما يندرج ضمن مجالات اهتمامي وهمومي في صناعة المصطلح العلمي بعامة والمصطلح الكيميائي بخاصة ، ومن منظور لغوي اصطلاحي بحت •

لقد وجدت « مشروع المعجم » متقن الصنع ، جميل الاخراج ، زاخرا بالمفردات والمعاني الدقيقة ، في حدود ما توفر له من مناهج واساليب ومن ملاك عامل متواضع العدد •

ومع كل هذا الاطراء الذي أسبغ على « المعجم » فقد وجدنا ان قلم القوامين على اعداده قد سها ، قليلا ، حين تناول المصطلح الكيميائي المركب والمؤلف من بضعة مقاطع ، فجاء بناؤه مشوشا ومبهما • ولم تسلم من السهو حتى مصطلحاته البسيطة ، وهو ما سنفصله لاحقا •

وتتلخص هفوات « مشروع المعجم » في خروج بعض مصطلحاته على اصول وقواعد اللغة العربية ، من حيث البناء والاعراب ، وفي حاجتها الى مرجعيةاصطلاحية معتمدة،عربية او دولية،وفي افتقارها الى السمات الأسرية التي تميز بعضها عن البعض الاخر • فكثير من المصطلحات الأسرية الدولية (الانكليزية مثلا)،والتي نقلها «المعجم» الى اللغة العربيةقد فقدت تلك السمات اثناء اجراءات النقل ، مثلما حصل لاسرة الخمائر (**enzymes**) وللكثير من مصطلحات الكيمياء السريرية كما سنرى •

وليس « المعجم الطبي الموحد » بدعا في هذا الشأن • فمعظم المعجمات العلمية العربية تعاني من هذا النقص الخطير ، حتى تحولت مصطلحاتها الى عبء ثقيل الوطأة على حافظة الدارس العربي • بل واستثقلتها حتى ذاكرة الحاسوب ، لافتقارها الى التناسق والقياس والمنطق ، وهي الاسس التي قامت عليها علوم الحوسبة والمعلوماتية وتطبيقاتها في صناعة المصطلح •

ولم يغفل العلميون العرب عن وجود تلك الاغلاط والاوهام في المصطلح العلمي العربي . فقد تناول عدد منهم بالنقد المعجمات الطبية المتداولة (١) وكذلك المعجمات الكيميائية (٢) ، فأكدوا حاجتها الى منهجيات علمية واضحة وثابتة ، والى مرجعيات قياسية دُوَلِيَّة يمكن الاهتداء بها (٣ ، ٤) . كما طالب بعضهم بتنقية المصطلح العربي من الترادف والتكرار والتقلبات العشوائية (٥) .

ومن الجدير بالتنويه ، ان المصطلح المنهجي ، وسواء أكان عربيا ام اجنبيا ، يتسم بخصائص أُسرية قوامها التناسق والتنظيم والتناغم والتمايز . فكل أسرة من الاسر الاصطلاحية تحمل في هيكلها العلامة الفارقة الثابتة التي تميزها عن سواها من الأُسَر ، وبخاصة المركبات الكيميائية والظاهرات والمفاهيم والمعدات . فعلامة الكحولات هي (ol —) والخمائر (ase —) والسكرات (ose —) والاحجار والخامات (ite —) . اما في امراض الدم ومتلازماته وظواهره فهي (emia —) وفي البول (uria —) وفي الاورام (oma —) كل ذلك كان في العلامات اللاحقة (suffixes) اما في العلامات السابقة (prefixes) فهناك في الطب مِعَوي (entero —) ومِعَدي (gastro —) وفي الكيمياء فوق (per —) وتحت (infra) ومتعدد (poly —) وتحولي (meta —) وهدمي (cata —) وبنائي (ana —)

اما العلامات الفارقة التي تميز الافراد من المصطلحات في نطاق الأُسْرَة الاصطلاحية الواحدة فتقدر اعدادها بالالوف . ومن امثلتها في الكيمياء : ثُنائي إِيْن (diene) وثلاثيُّ إِين (triene) ، فهي هنا (ثُنائي — di) و (ثُلاثي — tri) ، إذ تشترك بينهما العلامة الفارقة لاسرة الالكينات وهي (ene —) . فأين هي العلامات العربية الفارقة للمصطلح العلمي العربي ؟.

والحقيقة التي لا مناص منها ، انه بغير هذه المنهجيات الاصطلاحية المعيارية تصبح تسمية الألوف ، بل والملايين من مصطلحات الكيمياء والطب وعلوم الحياة والمعادن ضرباً من ضياع الجهود ومدعاة للأضطراب • وهو ما تنبه اليه علماء الغرب قبل اكثر من نصف قرن فعمدوا الى دراسة المصطلح دراسة منهجية (systematic) فأقاموه على ثلاثة ركائز رئيسة هي العلم المختص (الكيمياء مثلا) وعلوم اللغة وعلوم المصطلح • والغرض الذي توخوه من كل ذلك ، تسهيل مهمة العالم في فهم وحفظ واستذكار وتوثيق وفهرسة هذا العدد المذهل من المصطلحات بسرعةويسر ، وتسخير الحاسوب للقيام بتلك المهمات العسيرة ، الى جانب قيام هذه الآلة المفيدة بصياغة المصطلح ذاته واختبار صحة بنائه وتعيين موقعه في المنظومة الأصطلاحية الكبرى •

ستتركز ملاحظاتي حول منهاج « المعجم » ولغته واسلوبه ، لا على تقويم مفرداته الكثيرة المتباينة • فمثل هذا العمل هو من صاب اختصاص المراجعين والمحكمين الذين تصطفيهم الهيئة المشرفة على « المشروع » من بين الأطباء ذوي الخبرة الواسعة والدراية الحسنة في مجالات الطب واللغة والمصطلح • لذلك اراني ملزما باحترام الحدود التي رسمتها لقلمي منذ البداية في اختيار نماذج قليلة من مصطلحات الحرفين (E) & (D) التي ظهر الخطأ فيها واضحا ، فحاولت مناقشة بنائها اللغوي والاصطلاحي واقتراح البدائل المناسبة ، ما امكن ذلك •

وتسهيلا للقارىء الكريم في متابعة الالفاظ فسيكون عرضها الفبائيا ، وكما وردت في متن (المعجم) •

واخيرا ، ليكن معلوما ، ان الملاحظات والاقتراحات التي تضمنتها هذه الدراسة سوف لن تنال من المكانة الرفيعة التي يتبوءها هذا المؤلف النفيس في المحافل العلمية والمعاهد العليا • ذلك ان عملا بهذه السعة لابد ان يسهو القلم في قليل او كثير من الفاظه • وعسى ان تساهم هذه (القراءة) المتواضعة في ازالة الهفوات العابرة والاقتراب به من الكمال الذي هو غاية لا تدرك •



* نازِعـةُ الأسيل 1 de 2 acyl 3 ase

يلاحظ المنقب في مصطلحات (المعجم) ان اللجنة المؤلفة لم تلتزم بمنهج واضح وثابت لنقل المركبـات الكيميائيـة الى اللغـة العربية ، وفي مقدمتهـا الخمائر التي يحلو لـ (المعجم) ان يدعوها (إنزيمات) •

فمن المعروف بين المختصين ان تسمية المركبات الكيميائية المعقـــدة والمؤلفة من عدد من المقاطع او الالفاظ المتتابعة تحتاج الى مهارات في علـوم اللغة والمصطلح ، وكذلك في علوم الكيمياء ، بطبيعة الحال • فان حصل وتولى الامر طبيب وأصاب بعض النجاح ، فان ذلك ليعد عملا طيبا ، وذلك لصعوبة تسمية المركبات الكيميائية باللغة العربية ، حتى بالنسبة الى الكيميائيين •

يشير التحليل البنائي والدلالي للخميرة المذكورة الى وجود ثلاثة مقاطع بثلاث دلالات متميزة • لكن (المعجم) نقل دلالتين منها فقط وهما (نازعـة de —) و (أســـيل — acyl —) واسقط اللاحقة (— ase) مع اهميتها البالغة ، باعتبارها العلامة الفارقة التي تميز أُسْرَة الخمائـر • فان حصل وعثر عليها الدارسـين في كتاب الطب او في الكيمياء لما عرف انهـا من هـذه الأُسْرَة ، لظنهـا احدى الآلات او المواد النازعـة للاسيـل من خارج الخمائر • وكان على (المعجم) ان يسميها (خَميرةُ نَزْعِ الاسيل) او (إنزيمُ نَزعِ الاسيل) وهي تسمية منهجية قياسية تناظر الاسم الدوَلي بعدد الدلالات الكيميائية •

وكرر (المعجم) هذا الاسلوب المرتجل في عدد من الخمائر حين قـال ، على سبيل الترجمة :ـ

نازِعة الأميد	deamidase
نازِعة الأمين	deaminase
نازِعة الكربوكسيل	decarboxylase

وفي ضرب آخر من الخمائر اتخذ (المعجم) نهجا في التسميات مختلفا عن السابق ، حيث نقلها الى العربية بحروفها ولفظها ، فقال :ـ

ديهيدراتاز	dehydratase
ديهيدراز	dehydrase
أمينو آسيلاز	dehydropeptidase (= amionacylase)

ولم يذكر لنا (المعجم) السبب في هذا التنقل المباغت ما بين الترجمة والتعريب اللفظي ، ولمركبات متماثلة ومن أُسَرَة واحدة !.

ولقد شعرنا ، ايضا ، بان (المعجم) كان قد واجه بعض العسر وهو يحاول ايجاد اسماء مناسبة للخمائر المعقدة . وهو ما عانت منه معجمات عربية كثيرة . فقد قال في الخميرة :ـ

bata - hydroxybutyric dehydrogenase

نازعة الهدروجين البيتاهدروكسي بوترية .

ثم قال في الخميرة :

glucose - 6 phosphate dehdrogenase

نازعة الهدروجين الغلوكوز ـ٦ـ فسفاتية .

وقبل الشروع في تحليل ابنية هاتين التسميتين وتعيين دلالتيهما ، ينبغي ان نؤكد احدى الحقائق اللغوية الثابتة للعربية وهي المتعلقة بالاهمية البالغة للاعراب في فهم معنى الجملة وتحديد دلالاتها العامية . ومثل هذا الامر البالغ الاهمية يحتاج اليه كل من المصطلحي والقاريء . لكن المسؤولية الاولى انما تقع على عاتق المصطلحي .

فلكي يمتلك من يتولى وضع المصطلح ناصية الاعراب ، فان عليه ان يلم بمباديء النحو وقواعد اللغة العربية الماما كافيا ، وان يكون عارفا بطبيعة المادة الكيميائية المطلوبة للتسمية .

وللمباشرة بتسمية المادة الكيميائية فان على المصطلحي ان يبدأ ، اولا ، بتعريفها ببضع عبارات ، ومن ثم يأخذ باختزال تلك العبارات ، ليحصل منها على عبارة موجزة دالة ، تكون له بمثابة المرشد ، حين يبدأ بنقل الاسم من اللغة الاجنبية الى العربية ، دلالة في مقابل دلالة . ولن تكتمل التسمية المنهجية الا بعد اعرابها . وتعرف هذه الطريقة في التسمية بطريقة الاختزال (٣ ، ٦).

والمثال الاول الذي ورد ذكره في (المعجم) هو لخميرة تتوسط وتساعد على مناقلة الهدروجين بين المادتين : (بيتا ـ هدروكسي بيوترات ...) و (أسيتي أستيات ..) داخل جسم الكائن الحي ؛ في الكبد وفي الكُرَيّات الحمْر (٧) .

وأقرب تسمية منهجية تفي بالغرض هي تلك التي تذكر اسم (خميرة أو إنزيم) ، مضافا الى مصدر الفعل (نَزَعَ) ، والمضاف ، بدوره ، الى الهِدْروجين على سبيل التخصيص . ومن ثم تضاف العبارة برمتها ، او تخصص بحرف اللام ، لتتصل بما يقع عليه الفعل ، وهما المادتان المذكورتان ، لتصبح التسمية في النهاية : (خميرةُ نَزْعِ هِدروجينِ بيتا ـ هدروكسيِّ البيوتيراتِ) او (خميرةُ نَزْعِ هِدروجينِ بيتا ـ هدروكسيِّ الحامِضِ البيوتِري) او على سبيل الاختصار : (خميرةُ نَزْعِ هدروجينِ بيتا ـ هدروكسيِّ البيوتِري) .

وما دامت التسميات المنهجية المذكورة قابلة للاعراب ، فيصبح ادراك معانيها في غاية اليسر .

اما المثال الثاني فقد اضطرب (المعجم) في تسميته ايما اضطراب ، وهو امر متوقع في مثل هذه التسميات الكيميائية المعقدة . فلكي يفهم القاريء معنى هذا (الانزيم) عليه ان يُوَفّقَ في اعراب العبارات العربية المقترحة : (نازعة الهدروجين و (الغلوكوز ـ ٦) و (فسفاتية) .

والواقع ، فان اعراب العبارات الثلاث ليس بالامر الهين إن لم يكن متعذرا .

وقد يكون هذا الشكل الاصطلاحي الذي يتعلق بمنهج (المعجم) من حيث الاساس ، غير ذي خطر كبير على مستقبل هذا المؤلف النفيس لضآلة عدد اغلاطه من مستوى هاتين التسميتين ، لكنه تحول الى معضلة مزمنة في معجمات الكيمياء . والامثلة على ذلك لا تحصى . ويكفي المرء من ذلك ان يعرف بان معجما مرموقا كان اطلق على المبحثين المختلفين : (radiation chemistry) & (rediochemistry) اسما واحدا هو (الكيمياء الاشعاعية) . كما عَرَّبَ معجم كيميائي آخر المركب : (bromoaniline) باسم (بروم الأنيلين) ، اي بخلاف الاسم الصحيح وبعكس المعنى المقصود ، بدلا من القول (أنيلينُ برومِيٌّ) او (برومِيُّ الأنيلين) .

افلا يثير السقوط في امثال تلك الاغلاط الجسيمة والاصرار عليها وتكرارها الدهشة والتساؤل ، على كثرة ما كتب فيها لاجتنابها ؟

* ثنائي اتيل امينو اتيل سلولوز DEAE — Cellulose

لدينا على هذه التسمية ملاحظتان ، الاولى ان لفظة (ethyl) قد نقلت الى العربية بحرف (التاء) المثناة ، لا بحرف (الثاء) المثلثة . وهذا النوع من النطق شاع في عدد من اقطار العرب .

والنطق بـ (الثاء) شائع في الانكليزية والتزم به (الايوپاك) في نطق التسميات الكيميائية الدولية ، ومنها لفظة ethyl

اما الملاحظة الثانية فتتصل بنمط غريب وجدته فاشيا في معظم المعجمات العلمية العربية ، وهو الاكتفاء بنقل مرادف واحد من مترادفات المصطلح المقصود ومحاولة نك اسراره ان كان رمزا ، كالمثال المنقود .

وهذا الاسلوب في النقل ان صلح لتحرير الكتب والمقالات الثقافية العامة ، فهو لايصلح لصناعة المصطلح العامي . فالقاريء ، هنا ، يريد من

المعجم ان ينقل اليه جميع المترادفات الاجنبية الى العربيـــة ، من غير استثناء ، وبخاصة المرادف الاصل ، حتى وان كان رمزا •

فالمصطلح المذكور يدخل في حظيرة الرموز العلمية المركبة ، والعربيــة لا ترفض التعادل معها • فهي تقول فيه (ثأأأ ــ ساولوز) • وهو صـــورة عربية صادقة للرمز الدولي •

ولا يفوتنا بهذه المناسبة ان نقترح على لجنة (المعجم) بان تثبت في نهاية المؤلف مسردا بالرموز الواردة فيــه ومفكوكاتها جــريا على عـــادة الكتــب والمعجمات الدولية ، اتماما للفائدة •

وكرر (المعجم الطبي الموحد) هذا النمط من التعريب فاكتفى بذكــــر المرادف دون الاصل • من ذلك قوله :

دابســـــون	diaminodiphenylsu'phone (= dapsone)
أمينو اسيلاز	dehydropeptidase (= aminoacylase)
ثنائي السلفيدريل	desulphurase (= desulphhydrylase)

ويلاحظ القاريء الكريم ، هنا ، بان (المعجم) نطق الاسم الدولــي : (سلفهيدريل) بحرف الياء لا بالهاء فقال (سلفيدريل) •

❋ لا مُعَاوَض　decompensated

❋ لا مُتبائِر　defocussed

تعد قواعد الصرف واحكامه من اكثر ما يحتاج اليــه العاكفــون علــى صناعة المصطلحات العلمية • فهي نبع لا ينضب لكثرة عددها وتنوع صـــيغها وسعة وظائفها الدلالية •

والمصطلحي الحاذق مطالب بان يختار ما يدل على المعنى العلمي بدقــة ومهارة ومن غير تعسف او تجاوز لحدود الميزان الصرفي المطلوب •

والدارس للمعجمات العلمية العربية ويطالع مصطلحاتها ، كثيرا ما يعثر على الوان من ذلك التجاوز •

والواقع ان تجاوز (المعجم) لقواعد الصرف لا يعتد به لضآلته ، لكنه قد يكدر صفو مصطلحاته الاخرى •

فقد لجأ (المعجم) الى صيغة (فاعَلَ) التي تدل على المشاركة والموالاة (التتابع) والتكثير في وظيفة الفعل •

ويراد بالمشاركة ان يفعل احدهما بصاحبه فعلا فيقابله الاخر بمثله • حينئذ ينسب للبادىء نسبة الفاعلية وللمقابل نسبة المفعولية (٨) • ومن امثلة هذه الصيغة : (عادَلَتِ القاعِدَةُ الحامِضَ) و (القاعِدَةُ مُعادِلةٌ الحامِضَ) • اذاً فالحامِضُ (مُعادَلٌ) بالقاعِدةِ •

من ذلك يتبين أن المعنى الذي قصده (المعجم) وتضمنته لفظة (decompensated) لا يدخل تحت اي من الاغراض الثلاثة لصيغة (فاعَلَ) ومشتقاتها • لذلك فالتعبير عنه بلفظة (مُعارَض) ليس له ما يسوغه • وكان عليه ان يلجأ الى الفعل (أعاضَ) او مضعفه (عَوَّضَ) بمعنى إعطاء الشخص شيئا بدل ما ذهب منه (٩) • وهو ما ينطبق على المعنى المقصود تمام الانطباق ، ليقول في المصطلح المنقود : (لا مُعاض) او (لا مُعَوَّض) •

واتخذ (المعجم) نهجا مماثلا حين قال (لا مُتَبائِر) ، وبصيغة اسم الفاعل في مقابل : (defocussed) ، وهو في الاصل من اسماء المفعولين بدلالة اللاحقة (— ed)

وصيغة (تَفَاعَلَ) تفيد ، هي الاخرى ، معنى المشاركة والمطاوعة والتدريج • والمعنى الذي سعى اليه (المعجم) لا يدخل في أي منهما • ويكفيه ، لتحقيق غرضه ، الفعل المتعدي المألوف (بَأَرَ بَأْراً) او الفعل المضعف (بَأَّرَ تبئيراً) ، ان كان غرضه المبالغة •

والفعل (بَأَّرَ) من الافعال المستحدثة التي جرى اشتقاقها من اسم جامد هو (بُؤْرَة) ومعناها في الاصل (الحُفْرَة) . لذلك نرى ان الصيغة المناسبة لما يقابل defocussed هي(غَيْرُ مُبَؤَّرٍ اولامبؤر)، وبصيغة المبالغة : : غَيْرُ مُبَأَّرٍ او لا مُبَأَّر) .

اما صيغة (لا مُتَبائِر) التي جاء بها (المعجم) فلا تخلو من فائدة . فهي تفيدنا في (إنكار المطاوعة او التدريج) . كأن نقول : (بأرتُ المِجْهَرَ فَلَمْ يَتَباءَر)، فهو ، اذاً ، (غَيْرُ مُتَبَائِر) او (لا مُتَبائِر). وشتان ، في المعنى ، ما بين هذه وتلك .

* كُحُول صِرْف dehydrated alchol

الرأي الذي سأذكره بخصوص هذه التسمية التي تَصَرَّف فيها (المعجم) تصرفا حرا قد لا يُرْضي المصطلحي وانما يرضي المترجم المحترف .

فكثيرا ما نرى المترجمين يصولون ويجولون في باحة الترجمة ليؤكدوا بان الترجمة المقبولة هي التي لا تتقيد بالمعنى الحرفي للكلمة الاجنبية فتستعير احدى معانيها المجازية القريبة ، طالما ان هذه الخطوة توفر السرعة في العمل والفيض في الانتاج . وكلاهما مطلوبان ضمن المعايير المهنية السائدة .

ولاشك ، ان في هذا القول الكثير من الصدق والمنطق ، لكن النظر فيه من زاوية علوم المصطلح يعطي صورة غير دقيقة ، وقد تكون مغلوطة ومضللة احيانا .

والترجمة المتصرفة قد تنفع في مجال الفن والادب والثقافة ، لكنها شديدة الضرر في العلوم المضبوطة exact sciences .

وعبارة (كحُولُ صِرْف) التي اقترحها (المعجم) عبارة سليمة ، واضحة ويألفها القارىء ، ويعرف انها تعني (كُحولٌ نَقِيٌّ) او (كُحولٌ صافٍ) على وجه الشمول . فهناك من القراء من ينظر الى (نقاء) الكحول

من الشوائب ، ومنهم من ينظر في (صفاء) لونه او هيئته • ولكن ليس بينهم من يظن بان هذا الكحول قد تم تجفيفه بـ (إنتزاع الماء) منه ، وهو ما قصدته التسمية الاجنبية القياسية •

وقد لا نزعم بان تسمية (المعجم) ليست سليمة من حيث صياغتها ومعناها العام • لكننا نرى ان دلالتها الكيميائية مبهمة وناقصة •

ففي مثل هذه الاحوال ، فان على المصطلحي ان يختار تلك اللفظة التي تعبر عن الدلالة الدقيقة الخاصة بها من غير ان ينصرف الذهن الى سواها ، حتى وان كانت صحيحة نسبيا •

فعبارة (كحُوْل" مَنْزُوعُ الماءِ) ، اذاً ، اقرب الى معنى المصطلح الانكليزي من عبارة (كحول صرف) ، ففيها يكمن معنى (النقاء) وأسلوب التنقية (بنزع الماء) • كما يسهل ارجاعها الى الاصل الانكليزي من غير لبس

* تَجْفاف" مُفْرِط الصُودَميَّة **hypermatramic dehydration**

هذا المصطلح هو واحد من مصطلحات كثيرة العدد تشترك بين الكيميائي والطبيب •

وظاهرة الـ **(hypernatremia** عَرَض ينجم عن وجود زيادة غير طبيعية من عنصر الصوديوم في الدم • وما يهمنا ، هنا ، هو الاسلوب الامثل لنقل هذا المصطلح الى العربية •

لم تختلف المعجمات الطبية العربية في تسميات علمية مثلما اختلفت واضطربت في تسمية مصطلحات الكيمياء والكيمياء السريرية • ولقد تناول هذا المشكل الاصطلاحي عدد من الكتاب بالنقد (١ ، ٤) لكن الاختلاف فيه ما يزال قائما ، وفي جميع الطبعات المتتالية لهذا (المعجم) •

لقد انقسم المصطلحيون في تسمية هذا المصطلح وامثاله على فريقين • فريق اختار النقل اللفظي والنحت اسلوبا ، بينما فضل الفريق الاخر الترجمة •

فقد احتفظ اصحاب النقل اللفظي باللاحقة (emia —) الاجنبية ثم الحقوها باسماء المواد الكيميائية الموجودة في الدم • وحاولوا ترجمة السابقة (hyper —) بلفظة (فَرْط) تارة وبلفظة (زِيَادة) تارة اخرى •

والظاهر ان اصحاب النقل اللفظي والنحت ليس لديهم تصور واضح وبعيد النظر عما ستكون عليه تسميات مباحث الدم في المستقبل ، وهي غير معروفة العدد • كما ستتناول مركبات كيميائية جديدة غاية في التراكيب والتعقيد اللفظي ، بحيث يتعذر نطقها على اللسان العربي وهي ملحقة بلفظة (إيميَة) وفي تركيب مزجي طويل ومعقد ، كما سنرى •

وكان (المعجم) في طبعاته السابقة قد اخذ بالنقل اللفظي تارة وبالترجمة تارة اخرى • لكنه اصبح اكثر ميلا نحو الاسلوب الاول في طبعته الثالثة وفي هذه الطبعة التجريبية • فما قاله :

carboxyhemoglobinemia	كربوكسي هيموغلوبينَمِيَّة
hyperglycinemia	فَرْط الغْلَيْسينَمِيَّة
hypercholesterolemia	فَرْط الكوليسترولِمْيَّة
hypercalcemia	فَرْط الكِلْسَمِيَّة
hyperkalemia	فَرْط البوتاسمية

اما (قاموس حتي الطبي) (١٠) فقد فضل الترجمة على التعريب اللفظي، فكان له في ذلك سبق الريادة والمثاب • ومما قاله في المصطلحات السابقة :

carboxyhemoglobinemia	أُكسيبحمور الكربون في الدم
hyperglycinemia	
hypercholestrolemia	فَرْطُ كولسترول الدَّم
hypercalcemia	فَرْطُ كَلْسيوم الدَّم
hyperkalemia	فَرْطُ بوتاسيوم الدَّم

ولا يختلف اثنــاء في ان التسميــات المترجمة التي فضلها (حتى) هــي الاقرب الى عقل القاريء العربي ووجدانه ، والايسر على النطق والفهـــم والحفظ من المصطلحات المعربة لفظا والتي اقترحها (المعجم) • ولا حاجــة بي للاتيان بالدليل القاطع ، فهو يكاد ينبيء عن نفسه من المقارنة بين المنهجين وامثلتهما •

ولقد اظهرت الممارسة العملية في تدريس العلوم بالعربية بان الطلبــة العرب ما نفروا من شيء بقدر نفورهم من المصطلحات المركبة تركيبا مزجيا ، وبالاخص إنْ كان بعض مقاطعها اجنبيا كالمصـطلحات المنقــودة • وكانــوا يتحاشون النطق بها علنا ، خوفا من الوقوع في الخطأ وإثارة سخرية زملائهم • ومن تلك المصطلحات : (كَهْرَطيسي وكَهْرَجابي وكَبْعالمَ وصَغْخَلِيَة وثُنْشَكْل وارتِفاعْياس !) (١١) •

والتركيب المزجي الوحيد الذي اضْطُرّ الدارس العربي علــى الاخــذ به ما كان نطقه سلسا مأنوسا وان ظل من الاستثناءات المفروضة على اللســان العربي • من ذلك نذكر : (كَبْرِتيدْ sulphide) و (قَرْنين keratin).

ويعد التركيب المزجي الاعجمي الذي فضله (المعجم) على منهج (حتي) عسير النطــق وعصياً على الاشــتقاق والقيــاس ، لــذلك نرى ان ترجمة المصطلحات المختومة باللاحقة (emia —) ونظرائها منهج سليم ويلبي المطالب والشعارات التي تنادي بالحفاظ على سلامة اللغة العربية ، بشرط ان يخضع الى التوحيد والترميز والتقييس ليتقبله الذوق العربــي وتســتوعبه الذاكرة ، وتكون هيئته الاصطلاحية صورة دقيقة وامينة لنظيره الدولي ، هذا لغته العربية وذاك لغته الانكليزية •

واول خطوة في هذا السبيل ، الاقتصاد في استعمال الحروف في بنية المصطلح كحروف الجر والعطف • فبدلا من عبارة : (أكسيجمور الكربــون

في الدم) يقال : (أُكسيءُ يَحْمور الدّم الكربوني) • وبدلا من (فَرْط البيلروبين في الدّم) يقال : (فَرْطُ بيلروبين الدّم) • وبدلا من (قِلّة الهرمون الجنسي في الدم) يقال : (قلة هرمون الدم الجنسي) • بشرط ان لايؤدي الأقتصاد في الحروف الى اللبس في فهم المصطلح •

اما في مجال توحيد المصطلحات فينبغي الثبات على المصطلح الذي يتم اختياره وعدم تغييره بحسب الاهواء • فلا يقال ، مثلا ، (تَدَنّي) تارة و (قِلّة) تارة اخرى •

وتعد خطوة التقييس من اخطر الخطوات في بناء المصطلح العلمي العربي• فهي التي تلم شتاته وتوحد ماتشرد منه ، حتى ينتظم في أُسَر ومجموعات متميزة ، تكون الاساس الثابت لنظام دقيق لفهرسة المصطلح وتوثيقه •

فاللغة العربية بدأت ، في نشأتها الاولى ، لغة فطرة وسماع ثم تطورت الى لغة قياس واطراد •

وللقياس ، بمفهومه الواسع ، خصائص لغوية واصطلاحية كثيرة ، لكونه يقام على اسس من المنطق والعقل ، ويتسم بالوضوح والتناسق والاطّراد ، كما يستند الى مرجعية اصطلاحية معتمدة ، كما نوهنا بذلك سابقا •

ولقد تأكد لنا ، ان للعربية باعا طويلا في التعبير القياسي عن الظاهرات والمفاهيم والامراض والمتلازمات ، قد تعجز عن الاتيان بمثله اللغات الاوربية• من ذلك ، مثلا ، مباحث الدم التي نحن بصدد مناقشتها •

فقد عرفت العربية الاسم واسم المصدر والمصدر والمصدر الصناعي ، وخصت كلا منها بدلالة خاصة (١٣) • وعرفت ايضا صيغة (فُعال) وصيغة (فِعال) للدلالة على الوجع والمرض •

والمصدر الصناعي اسم او حرف لحقته ياء النسبة مردفة بالتاء للاستدلال به عن الظاهرات والمفاهيم والنظريات والعلل وغيرها • وقد عرفته العربية في لفظة (الجاهلِيّة) منذ أمد بعيد •

فان كان المصدر يعبر عن حالة الفعل او الحدث ، وهو مجرد عن الزمان ، فان المصدر الصناعي يعبر عن الكيفية التي يكون عليها الأسم او الحرف ، من حيث طبيعته وبناؤه ودلالته وعلله . وبذا فهو يتجاوز الوصف الشكلي الظاهر الى ما هو ابعد غورا في مجال الفكر والنظرية والتعليل .

فان انت ذكرت ، مثلا ، لفظة (نِسْبَة) فسوف يخطر ببالك مصدر الفعل (نَسَبَ) الذي يصف الحدث . وان قلت (نِسْبي) لنسبت الى هذا الحدث واجعلت من النسبة وصفا ظاهرا لشيء ينطوي على (نِسْبَة) . اما ان قلت (نِسْبِيَّة) لتبدل حال اللفظة ودلالتها تبدلا جوهريا ، ولا نصرف الذهن الى تصور مفاهيم او افكار او نظريات او تعليلات بعيدة الغور . وهو ما يجعل من المصدر الصناعي اداة اصطلاحية بليغة للتعبير عن الظواهر الطبيعية والحياتية والطبية . هذا فوق ما يتميز به من خصائص قياسية ونموذجية في التعبير الاصطلاحي والرمزي ، بعيدا عن الصور السردية المترهلة .

ولعل الدارس المتطلع الى الجديد ليس بحاجة الى برهان بان عبارة (دُمائِيَّةُ الكِلْسِ المُفْرِطِ) و (دَمِيَّةُ الكِلْسِ المُفْرِط) لافضل من عبارة (كِلْسَمِيَّة) الاعجمية ، ذات الدلالة العربية الغامضة . بل ولعلها افضل من عبارة (فَرْط الكِلْسِ في الدم) .

وسبب هذا التفضيل ان العبارة القياسية السابقة قد صيغت بالاسلوب الاصطلاحي الرمزي المكتنز الذي يوافق الذاكرة البشرية ويناسب صناعة المعجمات والقواميس والحاسوب ، بينما تناسب العبارة الثانية الشروح والمتون والتعريفات الخاصة بتحرير الكتب والمقالات .

ولكل تلك الميزات النادرة للمصدر الصناعي ، فانه يفضل على اللواحق الاسمية الاوربية من نحو : (ism , sis , ia , y , ation) والتي لا تعبر إلا عن مصدر الفعل فقط ومن غير تخصيص او تعليل . كما انها لا تميز ـ بذاتها ـ

بين الظاهرة الحميدة والظاهرة المرضية ، او بين الحدث ونتائجه • والتمييز الوحيد الذي تظهره لا يتصل بذاتها وانما بالمقطع الذي تلحق به ، سواء أكان حشوة (infix) او سابقة (prefix)

واستعمال اللواحق الاسمية الاوربية كان وما يزال فوضى في صناعة المصطلح الاوربي •فلو اخذت المصطلحين (hypogonadia) &(hypernatremia) لوجدتهما يتفقان في المعنى مع اختلاف اللاحقتين • وبعكس ذلك ، فقد تختلف دلالة اللاحقة الاسمية الموحدة باختلاف الجذر الذي يلحق بها ، بحيث يتعذر على القارىء ، ومهما بلغت قدراته المهنية والتخصصية ، ان يدرك معنى المصطلح من مجرد التطلع الى هيئته ، بخلاف المصطلح العربي • واليك هذه الامثلة :

(١) تَخْليق • تَرْكيب — synthesis

(٢) حَلُّ الدَّم ، إنْحِلالُ الدَّم — hemolysis

(٣) فَرْطُ العَرَقِ • رُحَضَاء — hyperidrosis

(٤) شُحَام — lipidosis

(٥) فَرْطُ الڤيتامين — hypervitaminosis

(٦) فُطار ، داءٌ فُطْري — mycosis

فمن ينظر مليا في المصطلحات الانكليزية هذه لا يسعه ان يعرف ، من هيئتها ، اياً منها يعبر عن الظاهرة العلمية المألوفة او المرض الوبيل او الوجع العابر او المتلازمة مالم يستشر المصادر الطبية او الكيمائية ، بين الحين والاخر لكونها عرضة للنسيان ، بالرغم من وجود العلامة الفارقة المزعومة (sis)

والمصطلحي العربي له من حرية التعبير والتصرف ما يمكنه من نقل المصطلح الانكليزي الواحد الى العربية بعدد من الدلالات العلمية المتميزة ، باستعمال الصور والابنية الصرفية العربية العديدة •

فلفظـــــة (lipidosis) مثلا ، قد تنقل الى العربية باربعة مستويات او انواع من الدلالات المتخصصة هي :

(١) دلالة تشير الى ظاهرة علمية بسيطة ، بصرف النظر عن تعليلهـــا او تنظيرها ، وذلك باستعمال المصدر العادي (تَشَحُّم) •

(٢) دلالة تشير الى مفهوم علمي عميق الغور مع تعليلاته ونظرياته ، وذلـك باستعمال المصدر الصناعي (تَشَحُّمِيَّة) •

(٣) دلالة تشير الى مرض او علة والاكتفاء بوصفها الظاهر ، باســــتعمال صيغة (شُحَام) •

(٤) دلالة تشير الى مرض او ظاهرة مرضية او متلازمة مع توكيد اسبابهـا واعراضها وعلاجها ، باستعمال صيغة المصدر الصناعي (شُحامِيَّة) •

ونحن لو طبقنا هذا الاسلوب على مصطلح (المعجم الطبي الموحد) وهو (hypernatremia) وشقيقه المصطلح (hypernatremic dehydration) المنقود ، لقلنا في الاول :

(١) فَرْطُ صوديوم الدَّم •

(٢) دَمِيَّةُ الصوديوم المُفْرِط •

(٣) دُماءُ الصوديوم المُفْرِط •

(٤) دُمائِيَّةُ الصوديوم المُفْرِط •

اذاً ، فأمام أصحاب (المعجم) اربعة خيارات للتعبير عن ذلك المصطلح• وقد يروق لهم ، ومن منطلق طبي مهني ، المصطلحان الثالث والرابع • امــا المصطلح الثاني الشقيق فيعبر عنه بان تتقدم لفظة (تَجَفاف) المصطلحـات الاربعة •

لقد جرى تطبيق هذه المنهجية القياسية على عدد كبير من مصطلحات الكيمياء ولعلي اذكر هنا التسميات المنهجية للمصطلحات الواردة في الصفحة (   ) من المقالة ، مكتفيا بالجانب السريري فقط ، على سبيل الترجمة :ـ

دُماءُ أُكسيِّ يَحمورِ الكربون	carboxyhemoglobinemia
دُمائيَّة أُكسيِّ يحمورِ الكربون	

او على سبيل التعريب :

دُماءُ كربوكسيِّ الهيموكلوبينِ (٣ ١ ٢)	carboxyhemoglobinemia (1 2 3)
دُمائيَّة كربوكسيِّ الهيموكلوبينِ (٣ ١ ٢)	
دُماءُ الكلايسينِ المُفرِطِ	hyperglycinemia
دُمائيَّة الكلايسينِ المُفرِطِ	
دُماءُ الكوليسترولِ المُفرِطِ	hypercholesterolemia
دُمائيَّة الكوليسترولِ المُفرِطِ	
دُماءُ الكالسِ المُفرِطِ	hypercalcemia
دُمائيَّة الكالسِ المُفرِطِ	
دُماءُ البوتاسيومِ المُفرِطِ	
دُمائيَّة البوتاسيومِ المُفرِطِ (٣ ٢ ١)	hyper kale mia (1 2 3)

وحين يتفحص القاريء الكريم هذه التسميات المنهجية سيجد عباراتها بسيطة وموحدة ومميزة وعلى نسق واحد مُنتظم ، كما ان دلالاتها

الكيميائية السريرية مفهومة وواضحة لا تحتمل اللبس والاشتراك • وهي فوق ذلك ، تستجيب لاصول وإجراءات الفهرسة العربية السريعة ، بعكس مقابلاتها العشوائية ، لكي تناظر الفهرسة الانكليزية •

* تَيامُن dextrogyration

* مُيَمِّن dextrorotatory

من اكثر الاغلاط شيوعا في صناعة المصطلح العلمي العربي الاتجاه نحو اختصار عدد الدلالات العلمية نتيجة لاسقاط بعض مقاطع المصطلح الاجنبي بذريعة الاقتصاد في التعبير •

ولقد وجدت معظم المعجمات العربية تأخذ بهذا الاسلوب الذي لا يخلو من ضرر • وقد يكون ، احيانا ، شديد الخطر ، إنْ كان ما ينقل الى العربية اسماء اجهزة او مواد كيميائية او عقاقير طبية ذات خطر مباشر على حياة الانسان •

وفي الحقيقة ، ان اختزال عدد المقاطع واسقاط دلالاتها من الاسماء المترجمة الى العربية يعد اخلالا بالمنهج وخروجا على قواعد علوم اللغة والمصطلح ، ان لم يكن تجاوزا على الامانة العلمية التي تعد الركن الاساس في صرح البحث العلمي •

وسبق لنا ان اشرنا الى هذا الشكل الاصطلاحي حين تناولنا مسألة اسقاط العلامات الدلالية الفارقة (٦) •

ولعل القراء الكرام يتذكرون جيدا مصطلحا شائعا هو (electrode) ومشتقاته الكثيرة ، وكيف سلبه الارتجال العشوائي صفته الوحيدة التي تميز بها عن اقرانه ، حين دعوه (قُطْب) تارة و (مَسْرى) تارة اخرى ، باسقاط صفة (كهربائي) عنه • وكانت حجتهم المعتادة : الاقتصاد في اللفظ !

ولم يسلم الاوربيون ، على تظاهرهم بالمنهجية ، من الوقوع في هذا الخطأ ، حين قالوا (dynode) و (diode) ، وهما ، من الاقطاب الكهربائية في الغالب •

لقد اصبح من معاد القول بان المصطلح انما ينقل من لغة الى اخرى على اساس القاعدة الذهبية القائلة : (دلالة بدلالة) • وان اي اخلال بها لابد ان يزعزع اركان صناعة المصطلح •

ولا يعني التقيد بهذه القاعدة ان ينقل المصطلح حرفيا الى العربية ، مقطعا بمقطع او لفظة بلفظة • فمثل هذا النهج يعد مضرا بالترجمة ، وبجميع انواعها •

فمصطلح مثل (Co - Precipitation) ، والمكون من لفظتين وبثلاثة مقاطع وبدلالتين ، قد ينقل الى العربية بلفظة (تَراسُب) المفردة ، لكنها بدلالتين متميزتين ، هما دلالة المشاركة ، وعلامتها صيغة (تَفَاعُل) الصرفية ، ودلالة الرسوب وعلامتها الفعل (رَسَبَ) •

و (المعجم الطبي الموحد) لم يسلم ، هو الآخر ، من الوقوع في اشكالية إسقاط الدلالات العلمية ، وبالتالي الاخلال بالمعنى الدقيق للمصطلح •

فقد أسقط الموصوف (gyration) و (rotatory) من المصطلحين المنقودين واحتفظ بالصفة فقط وهي (—dextro) • ومع ان المصطلحين متماثلان في المعنى العام ومتقاربان في الدلالة الخاصة فقد دعا الاول (تَيامُن) والثاني (مُيامِن) وهما مترادفان ، حتى باختلاف الصيغة الصرفية • ولسنا نعلم لِمَ عبر بهما عن السابقة (—dextro) وبكيفية منهما واحدة • ولعله كان يرى تباين المصطلحين حتى اختار لهما زقتين مختلفتين ، مما اوقعه في خطأ اخر •

وكان (قاموس حتي) قد اقترح عبارة (دَوَران أيْمَن) الى جانب (مُيامِن) ولا بأس من أن تضاف اليها عبارة (تَدْوير مُتَيامِن) و (دَوَران مُتيامِن) •

dextrophobia ※ رُهابُ اليَمين

هذه التسمية لا غبار عليها من الناحية الفنية ، لكني لااراها مناسبة • فهي عرضة للالتباس • فكثير من الناس ، ومنهم الاطباء ، من تنصرف اذهانهم نحو الرهبة من حلف اليمَين او القَسَم • وكان (قاموس حتي) قد دعاها (رهبة أيمنية) ، وهي عبارة سليمة ايضا • وارى ان عبارة (رُهابُ التيامُنِ) عبارة دقيقة ولا تحتمل اللبس •

EDTA ※ إيديتات

حين قرأت لفظة (إيديتات) لتقابل (EDTA) سرح بي الخيال في ارجاء المنهجيات العربية العديدة لعلي اعثر فيها على اساس منطقي بنيت عليه هذه التسمية الكيميائية الغريبة ، فلم يحالفني النجاح • ومما أثار حيرتي وجود حرف (التاء) في خاتمة المصطلح الرمزي ، وهو عند الكيميائيين رمز للاملاح والزاجات في الغالب ، في حين عرّفها (المعجم) بكونها حامضا عضويا •

ولست اعلم ، حتى الساعة ، الاساس اللغوي الاصطلاحي الذي اقيم عليه صرح هذا المصطلح • وحسبته من اغلاط طباعة الحاسوب الذي يُزْعَمُ انه لا يعرف الغلط ! •

ولقد اكتشفت ، من قراءتي في مصطلحات (المعجم) ، ان اصحابه لهم مذهب إصطلاحي خاص في نقل الرموز الانكليزية الى العربية وتلفظها ، وكأنها كلمة تامة ، حتى وان خلت من حروف العلة • فقد قالوا في (DNA) دَنَا ، وفي (RNA) رَنَا ، علما بان الانكليز ، انفسهم ، لا ينطقونها هكذا ، وانما حرفا حرفا ، هكذا : (دي ان أيْ) •

و (الايديتات) هذه رمز من حروف البدء لاسم المادة الكيميائية المعروفة (ethylenediaminetetraacetic acid)وترجمته العربيةالمنهجية (أثيلينُ ثنائيٌ الأمينِ رُباعيٌ الحامِضِ الاسيتي) ورمزه بالعربية (أثرح) وبالانكليزية المعربة (إي دي تي أي) •

EIA (Enzyme Immuno Assay) (المُقايَسَة الأنزيمية المَنَاعية) EIA *

لدينا على هذه التسمية المرموزة ملاحظتان ، تختص الاولى برسمها بحروف لاتينية وهي تنقل الى اللغة العربية ، بينما تختص الثانية بالتسمية العربية المحصورة بين قوسين •

ومما يبعث على الدهشة والتساؤل إقدام اصحاب (المعجم) على نقل هذا الرمز الانكليزي وغيره الى العربية بحروف انكليزية ، وكأن اللغة العربية غير معينة بفن الترميز ، وهذا كتاب الله العزيز قد افتتح عددا من السور الكريمة برموز عربية محكمة البناء وشديدة الوقع في نفوس البشر • والواقع انه ما من قرار او توصية او منهجية عربية قد اجازت هذا الاسلوب الغريب في الترميز •

ومما هو جدير بالتنويه ان التعبير عن الرموز العلمية بالعربية لم يعد معضلة تشغل البال ، فقد كتب فيها الكثير من المقالات (١٣ ، ١٤ ، ١٥) •

اما ملاحظتنا على التسمية العربية ذاتها فتتعلق بضعف صياغتها واختلال مقاطعها • وهي مسألة اصطلاحية لا تُعرَفُ الا بمعرفة طبيعة المُقَايَسَة (assay) واساليب التعبير عنها باللغتين العربية والانكليزية •

ويُظْهِر لنا التحليل الدلالي للعبارة الانكليزية المذكورة وجود ثلاثة الفاظ بثلاث دلالات ، حيث تمثل اللفظة الاخيرة (assay) الموصوف الذي سبقته ، مباشرة ، صفته الرئيسة وهي (immuno—) • ثم اضيفت الصفة والموصوف الى لفظة (enzyme) التي تعد ، بدورها ، الصفة الثانوية •

فتصبح الصيغة النهائية للمصطلح العربي : (مقايَسة" مَنَاعِيَّة" خَميريَّة") وليس العكس ، كما وردت في (المعجم) • وسبب ذلك واضح ، اذ ان هناك انواعا من (المُقايَسات المَناعِيَّة) منها (المقايسة المناعية الاشْعاعِيَّة) و (المقايسة المناعية الكهربائِيَّة) •

اما الرمز العربي المقترح للتسمية العربية ، والبديل عن الرمز الانكليزي فهو (ق م خ) في مقابل (EIA) ، وهي حروف البدء من الفاظ المصطلح العربي المذكور •

* إستيزان ، مَوَازَنة equilibration

* مَيْزَنة • مُوازِنَة equilibrator

تتميز اللغة العربية بصفات فريدة قلما حظيت بها لغة اخرى في العالم ، وهي وجود هذا العدد الكبير من الاوزان الصرفية التي بلغت المئات • وكل زنة منها اختصت بمعنى معين • فقد ينقل الفعل الانكليزي البسيط الى العربية على صيغ فعلية كثيرة للتعبير عن دلالات مختلفة •

فلفظة (equilibration) مثلا ، هي مصدر للفعل الانكليزي (equilibrate) ، ويقابلها بالعربية لفظة (مُوازَنة) • وقد جاءت بصيغة التشريك (مُفاعَلة) لمقابلة (equi) ، وهي صيغة سليمة لفظا ومعنى •

لكن (المعجم) ذكر الى جانبها لفظة إسْتيزان) وجعلها مرادفة لكلمة (مُوازَنة) •

ولفظة (استيزان) مصدر للفعل المزيد (اسْتَوْزَنَ) • والمعروف ان زنة (اسْتَفْعَلَ) تخدم ستة اغراض ، منها الطلب والتحول والتكلف والمطاوعة • ولكن ليس بينها التشريك الذي قصده (المعجم) (٨) ، لذا فهي لا تصلح مرادفا لكلمة (موازنَة) •

اما لفظة (equilibrator) فهي في الاصل اسم آلة او جهاز او وسيلة لصنع المُوازنة . ويكفي القول فيها (مُوازِنة او مُوازِن) . وذكر (المعجم) لفظة (مَيزَنة) وجعل منها معنى ثانيا للمصطلح الانكليزي المذكور . ولسنا نعلم كيف سيتوصل القاريء الكريم الى معنى هذه اللفظة الغريبة وهي مجهولة الاصل ، وقد انكرتها امهات المعجمات العربية . كما انكر معجم (وبستر) الدولي ما يقابل هذه الكلمة باللغة الانكليزية .

※ مُتساوي المولِيَّة equimolar

هنا ايضا لدينا ملاحظتان على التسمية، احداهما تتعلق بلفظة (مُتساوي) والثانية بلفظة (المولية) .

فلفظة (مُتَساوي) اسم فاعل من الفعل (تَساوى) . ولهذا الفعل بضعة اغراض منها التشريك بين اثنين فاكثر . فيكون كل منهما فاعلا في اللفظ مفعولا في المعنى (٨) ، وهو الغرض الذي قصده (المعجم) من المصطلح المذكور ، دون سواه . لكن صياغته جاءت غير دقيقة .

وللتحقق من دقة الصياغة ، نذكر هذه الامثلة البسيطة : (تساوى وَزْنُ الذَّهَبِ ووَزْنُ الاثقالِ) ، و (وَزْنُ الذَّهَبِ ووَزْنُ الاثقالِ مُتَساويان) . اي انهما (مُتساويان بالوزنين) او (مُتساويا الوزنين) . اما اذا كان المخاطب بفعل المشاركة مفردا ، عندئذ يقال : (الذَّهَبُ مُساوي الاثقالِ بالوزنِ) و (الذَّهَبُ مساوٍ الاثقالَ بالوزنِ) ، وذلك باللجوء الى الفعل (ساوى) .

ولصيغة (تَفَاعَلَ) غرض آخر مرافق للتشريك وهو مُطاوعة الفعل. لكن لاستعماله شروطا وحدودا . نحو قولنا : (ساوى الذَّهَبُ الاثقالَ ، فتساوى) ، اذاً فهو (متساوٍ) .

لقد وجدت هذا الضرب من التعبير منتشرا في المعجمات المتداولة ، وهو الخلط بين التشريك والمطاوعة .

اما مصطلح (mole) فهو من المصطلحات التي اختصت بها علوم الكيمياء والفيزياء اكثر من غيرها • ونقلت الى العربية بلفظة (جُزَيء) اختصارا لعبارة (وَزْنٌ جُزَيْئي) او (وَزْن جُزَيئي غرامي) • ثم نقلت الى العربية بلفظة (مول) لعالميتها •

لنعد ، الان ، الى مصطلح (equimolar) ، فنقول : انه يختص بمادتين فاكثر ، من حيث تساوي اوزانها الجزيئية الغرامية (مولاتها) او تساوي تراكيزها الجزيئانيّة ان كانت من المحاليل • وهو ما يطلق عليه في الكيمياء بـ (الجُزَيْئانيّة) • وقد ذكرت بصيغة المصدر الصناعي ، تعبيراً عن (molarity) • وقد تسمى احيانا بـ (الجزيئية) •

ولفظة (موليّة) التي اختارها (المعجم) لتقابل (molarity) ليست دقيقة الدلالة وتحتمل اللبس والاشتراك مع شقيقتها (molality) وكلتاهما تختصان بالمحاليل • اذ من المحتمل ان تسقط المعجمات العربية في شراكها فتسميها (مولية) ايضا ، مع اختلافهما الشديد في المعنى • ولقد حاول بعض الكيميائيين الخروج من المأزق فدعا الاولى (مولاريّة) والثانية (مولاليّة) على سبيل التعريب اللفظي •

اما التسمية المنهجية الدقيقة المقترحة لمصطلح (المعجم) فنذكرها بالعبارات الاتية :ـ

في المعنى الاول : موادٌ مُتساوياتُ الجُزَيْئات او موادٌ متساوياتُ المولات •

في المعنى الثاني : محاليل متساويات الجُزيئانيّات او محاليل متساويات المولاريات •

وقد اتخذت لفظة (جزيئاني) لتقابل (molar) بدلا عن جزيئي •
اما للتعبير عن مادة واحدة فيقال :

في المعنى الاول : مادة" مُساويةُ الجُزَيءِ او مادةٌ مُساوية" الجُزيءَ

وفي المعنى الثاني : محلول" مُساوي الجزيئاني ٌ او محلول" مساوٍ الجزيئاني ٌ •

واما على سبيل التعريب فيقال :

مادة" مُساويةُ المولِ او محلول مُساوي المولاريِ •

وظهور الحركات على (المول) جاء للايضاح ، لان الاغلبية تراه ممنوعا من الصرف •

* كثرة حُمْر الدّم erythrocythemia

* كُرَيّة حمراء erythrocyte

لو تفحص القاريء هذين المصطلحين لاكتشف الخلل الاصطلاحي فيهما من غير عناء ، وهو اختفاء ما يشير الى دلالة (cyte) من المصطلح العربي الاول وظهوره في الثاني ، علما بانهما متماثلان في الاصل الدولي •

والخلل المشار اليه يكاد يكون سمة مشتركة بين معجمات عربية كثيرة • وعلته ، كما المحنا اليه مرارا ، غياب المنهج الواضح ، الثابت والدقيق لنقل المصطلح بكامل هيئته ودلالاته ، وعدم التفريط بأي جزء منه ، وهو ما يعد احد اركان البناء الأُسَري للمصطلحات •

ولعل الشيء بالشيء يذكر ، فقد يلاحظ القاريء الكريم ان (المعجم) قال : (كثرة حُمْر الدّم) لمقابلة (erythrocythemia) ولم يقل : (سائِتَمِيّة حمراء) او (كُرَيَّتَمِيّة حمراء) مُجاراة لطريقته الخاصة ، حين قال : (فَرْط الصُّودَمِيّة (hypernatramia) • (انظر في الصفحة ٣١٢) •

* أثــير ether
* أثْيَرَة etherification
* التخْديُر بالأثير etherization

تنحدر لفظــة (ether) من أصــل لاتينــي ثم انتشرت الى اللغات الأوربية ومنها الى اللغة العربيــة • ومعناها في الاصل (يتقد او يتأجج) ، وبالاستعمال الطويل صار لها عدد من المعانــي المختلفــة ، احدهما اسم ذلك العنصر الفيزيائي والفلسفي المطلق الــذي يمــلا فراغ الكون ، وفسرت بــه بعض الظواهر الطبيعية • واطلقوا الأسم ، ايضا على المركب الكيميائي المعروف الذي اتخذ منه الاطباء مادة للتخدير • ولقد عرف الفلاسفة العرب هذا المصطلح بلفظة (أثير) ، بتقديم (الثاء) على (الياء) •

وقام (المعجم) بمجاراة هذه التسمية التراثيــة من غير ان يتنبه الى ماقد تسببه من التباس بين المَعْنَيَيْن • كما اغفل التزام الكيميائيين ، عامــة بالمحافظة على الفاظ وتسميــات العنــاصر والمركبــات الكيميائية كما رسمها (الايوپاك) حتى وان نقلت الى جميع اللغات •

و(الآيوپاك) ينطق ether بتقديم (الياء) على (الثاء) ، لا العكس • وهي تسمية مناسبة للتميز بين المعنيين المذكورين •

اما اتخاذ لفظة (أثْيَرَة) مصــدرا لمقابلة (etherification) ومعناهــا تحويل المادة الى (إيثر) ، كيميائياً ، فهو اسلــوب عقيم ووعر المسالك لافتقاره الى القاعدة اللغوية العربية ، وللاختلاف الشديد ، بين اصول اللغة العربيــة ، كلغة اشتقاق واصول اللغة الانكليزية ، كلغة الصاق • لذلك جاءت معظــم المشتقات العربية من اللغات الاوربية ثقيلة على اللسان العربي ، حتى ملهــا الدارس العربي ونفر من التعليم بالعربية ، او كاد •

ولقد برهن (المعجم) نفسه على عقم هذا الاسلوب حين عجز عن الأشتقاق من المصطلح الشقيق (etherization) • فبدلاً من ان يجاري المصطلح الاول ليقول : (أيثَرَزَة) (!) قال بلغة عربية سليمة : (التخدير بالاثير) !•

ومما يلفت النظر ان (المعجم الطبي الموحد) يُعَدُّ من انصار الاشتقاق من الالفاظ الاجنبية • فحتى الالفاظ الانكليزية البسيطة التي لها معان واضحة في اللغة العربية ، لم تسلم من قلمه •

فقد دعا (dialysis) (ديال) و (دَيْلَزَة) ، مع العلم بان لفظة (تَنَافُذ) العربية تنطبق تمام الانطباق على المصطلح المذكور ، بناء ودلالة • ففي صيغتها الصرفية يكمن معنى المشاركة والتبادل والتفاضل والتتابع والتجزئة ، لمناظرة دلالة السابقة اللاتينية (dia—) • والمصطلح من الناحية العلمية التطبيقية ، يعني (نُفُوذ) مواد كيميائية معينة (يوريا مثلا) من خلال غشاء شِبْه مُنْفِذ ، وعدم نفوذ مواد اخرى (كُرَيَّات الدم مثلا) ، باستعمال محاليل خاصة ، وهي العملية التي تحصل في الكلية الطبيعية والكلية الصناعية •

فهل ، يا ترى ، هنالك مفردة دخيلة او معربة ابسط وابلغ وافصح من لفظة (تَنَافُذ) العربية ؟!

✻ ايثوموكسان	ethomoxane
✻ ايثونام	ethoname
✻ ايثوبروبازين	ethopropazine

هذه المصطلحات الثلاثة هي من الادوية التي ضم (المعجم) عددا لا يستهان به منها • ومعظمها اسماء وعلامات تجارية لمركبات كيميائية لها اسماء موحدة ، على نطاق العالم •

ووضع العلامة التجارية قد يختلف بين بلد وآخر ، او بين شركة واخرى حتى في البلد الواحد • وهي عرضة للزوال ، بعد حين ، اذا ما فقدت اهميتها واستبدلت بغيرها • وكان على لجنة (المعجم) ان تكتفي بذكر الاسم العلمي للدواء لثباته ، ان وجدت هذا الاجراء مفيدا للقاريء •

ومن وجهة نظر علوم المصطلح ، يعامل الاسم التجاري للدواء معاملة أسماء الاعلام لكونه ثابتا لا يتغير الا بتغير احوال المسمى • فهو موحد في جميع اللغات ولا تجوز ترجمته ، والا لفقد علَميته وهويته •

فوجود الاسم التجاري بين مفردات (المعجم) ، اذاً ، لا يفيد القاريء في مجال الاصطلاح العلمي وانما تنحصر الفائدة في مجال الاعلام الدوائي • خذ مثلا دواء (ايثوموكسان) فما الذي تغير في رسمه ونطقه عن الاصل الانكليزي ؟!

ولما كانت لاسم الدواء التجاري خصائص علَمية ثابتة ، فلا يجوز ايضا ، التغيير في رسمه او استبدال حروفه بحروف اخرى ، على طريقة قدماء العرب ، مثلما حصل لاسم (ايثوبروبازين) ، حيث استبدل حرف (البياء) المثلثة بحرف (الباء) الموحدة • فمثل هذه الخطوة قد تقود الى الالتباس والتخليط بين الادوية المتشابهة بالاسماء ، اثناء التداول او التوثيق ، مع ما قد يصاحب ذلك الاجراء من خطر اكيد • وكان على اصحاب (المعجم) ان يبقوا على حرف (البياء) لاسيما وان معظم مجامع اللغة العربية اجازت استعمال حروف اضافية في الابجدية العربية مثل (چـ وڤ وگ وپ) ، وفي مقدمتها المجمع العلمي في جمهورية العراق (١٦) •

فللاسباب السابقة نرى ان ترفع اسماء الادوية التجارية من متن (المعجم) وان شاء اصحابه غير ذلك ، فبأمكانهم وضعها في مسرد خاص بها في خاتمة (المعجم) ضمن ملاحقه ، على ان تردف باسمائها العلمية ومواصفاتها ومحاذيرها •

* يُفْــرِغُ evacuate

* تَفْــريغ evacuation

هذان المصطلحان هما اوضح مثال على التذبذب والتساهل في استعمال الاوزان الصرفية في بناء المصطلح • وكنا ناقشنا هذه المسألة باسهاب في الصفحة (٣٠٩) •

فقد عبر (المعجم) عن الفعل الانكليزي (evacuate) الذي يوحي للقاريء باستعمال بعض القوة الالية في استخراج الهواء من الوعاء الذي يحتويه ، وذلك بالفعل المتعدي (أفْرَغَ ، يُفْرِغُ ، إفراغ) ، ومعناه (أخْلى) ، واصله من الفعل البسيط اللازم (فَرَغَ) بمعنى (خَلا) •

وكان على (المعجم) ان يستعين بالفعل المضعف، (فَرَّغَ ، يُفَرِّغُ ، تَفْريغ) لاظهار معنى المبالغة في الفعل ، إن كان هذا هو غرضه من التسمية •
والملاحظ انه قد فعل ذلك من غير ان ينتبه الى الامر حين قال : (تَفْريغ) في المصطلح الثاني لمقابلة (evacuation) •

والتجوال الحر بين الاوزان الصرفية العربية لصناعة المصطلح ينبغي ان يكون على وفق خطة دقيقة ومرسومة ولغرض اصطلاحي محدد •

ومن المعروف ان لكل صيغة صرفية غاية محددة ومعنى خاص •

فمتى ما اختار صاحب المصطلح صيغة صرفية معينة ، فان عليه الالتزام بها في جميع مشتقاتها ، فلا يبدلها باخرى ، الا لسبب اصطلاحي وجيه •

* ايكــزا (10 قــوة 18) ، exa

مشكل التعبير عن الاعداد الكبرى والصغرى باللغة العربية من المشكلات الاصطلاحية المزمنة التي تغافل عن معالجتها العلميون واللغويون على حد سواء • وقد طرحت على بساط البحث اكثر من مرة من غير ان يتخذ بشأنها قرار حاسم •

والواقع ، ان قدماء العرب كانوا عرفوا بعض الاعداد الكبيرة والصغيرة. فقد قالوا (ألف ألف) في مقابل (المليون) (milli + illion) والتي تعني في اللاتينية (ألف ألف) ايضا • كما عرفوا (العُشْر) و (المِعْشار) كأصغر عدد مألوف لديهم •

ولم تكن للعرب ، ايامئذ ، حاجة ماسة لا بالاعداد الكبرى من نحو : (exa, peta, tera, giga, mega) ولا بالاعداد الصغرى من امثال : (nano, micro, milli, centi, atto, femto, pico,

لكن الحال قد تغير ، فباتت متطلبات البحث العلمي بمسيس الحاجة الى نظام عربي للاعداد يكون احد اعمدة التوثيق الاصطلاحي والمعجمية العربية المنشودة •

ولقد وفق المصطلحي الاوربي في استعارة اسماء الاعداد المذكورة من الاغريقية واللاتينية اليومية • ومعظمها الفاظ بسيطة ومألوفة مما يدل على معاني الكِبرَ والصِّغرَ ، فاتخذوا منها مصطلحات للعلوم •

ولا نظن بان اللغة العربية عاجزة عن امداد العلماء العرب ببضعة الفاظ مما يدل على الكِبرَ والصِّغرَ ، وهي اللغة المعرفة بثراء مفرداتها وسعة قواعدها •

لذا فنحن نضع هذا المشكل الاصطلاحي امام المؤسسات اللغوية والعلمية لدراسته دراسة جد وتحد ، في عالم لا يعرف سواهما •

* مُبادِل الأنيونات ، مُبادِلُ الصواعِد exchanger, anion

توحيد المصطلح العلمي العربي غاية سامية ، طالما سعى اليها العلميون والمعجميون العرب • وكان من اوائل من قدر اهميتها (المعجم الطبي الموحد) نفسه حين زين بها العنوان •

لكن من يستعرض مفردات (المعجم) يكتشف ان عددا قليلا منها لا يخلو من المترادفات ، ومنها التسمية المذكورة •

وليست هذه التسمية المزدوجة مما يختلف فيه اثنان ، لبساطة تركيبها ووضوح دلالتها . فلا هي بالرمز العالمي ولا هي من اسماء الاعلام التي لا تستجيب الى الترجمة .

ونحن لو وضعنا العبارتين المترادفتين المذكورتين على طاولة التشريح الاصطلاحي ،لتوقفناعند لفظة (الصّواعد)التي لاتوحي الى دارس العلوم بمعنى سوى صفة (الصعود) ، ومن غير ان تكون لديه اية فكرة عن تلك الاشياء الصاعدة . فقد جاء المصطلح المذكور على هيئة (صفة) من غير (موصوف) . فقد تقل (المعجم) الى العربية المقطع (an—) وأهمل المقطع (—ion)

وكان الكيميائيون العرب قد عرفوا هذا المصطلح ، ومنذ عقود طويلة ، تحت اسماء : (شاردةٌ صاعِدةٌ) او (شاردةُ الصُّعودِ) او (أيونٌ صاعِد) او (أيونُ الصُّعُود) . لكن من اكثرها انتشارا وقبولا بين الكيميائيين هو (الايون السالب) او (الشّاردة السالِبة) ، المعروفة في بلاد الشام .

ولفظة (الصّواعِد) إنْ جاءت بمفردها فقد تلتبس مع مصطلح آخر معروف بهذا الاسم ، ألا وهو (stalagmite) وهي تلك الاعمدة الكلسية التي تبدو للناظر وهي تصعد من قاع الكهوف نحو السقف .

* مُطْلِقٌ للعمَلِ — exergic
* مُطْلِقٌ للطاقةِ — exergonic

ملاحظاتي عن هذين المصطلحين المتناظرين في المعنى واللذين يبدوان لنا سليمين ، من حيث البناء ، ستكون عابرة وليست ذات خطر .

فالمعروف ان لحروف الجر اغراضا ومعاني خاصة بكل منها ، وفي مقدمتها حرف اللام . فمن اغراض هذا الحرف المتعددة معنى الاختصاص والنسبة ، كقولنا : (البطولةُ للشهداءِ) اي ان البطولة قد اختصت بالشهداء .

ولقد توسع كتاب العلوم في استعمال هذا الحرف وغيره من حروف ، حتى خرجوا به عن حدوده واغراضه المرسومة • فقد جاء في كثير من عباراتهم حرفا زائدا ، كما هو حال المثالين المنقودين حتى صار ، في بعض الاحيان ، مدعاة للالتباس في فهم المعنى المقصود ، لسعة مفهوم الاختصاص •

ففي هذا المثال : (المُساعَدةُ للطبيبِ) ، لا يعلم المرء ان كانت المساعدة قد قدمت الى الطبيب نفسه ام الى مريضه ، مرضاة له •

وباختصار ، فان وجود حرف (اللام) في المثالين المنقودين مدعاة للارتباك والالتباس ، لذلك فرفعه من المصطلح خير من الابقاء عليه •

وعبارة (مُطْلِقُ العَمَلِ) او (مُطْلِقُ الطّاقةِ) من العبارات السلسلة الواضحة المعنى ، ذلك ان دلالة التخصيص الناجمة عن الاضافة تجعل من المضاف اكثر التصاقا بالمضاف اليه ، فلا ينصرف الذهن الى سواها من دلالات بعيدة ، كوجود (اللام) مثلا •

والعربية ، بعبقريتها وقدراتها النادرة ، قد زودت الكاتب بادوات تعبيرية لا حصر لها ، منها استعمال صيغ اسم الفاعل بأساليب اخرى اشد وقعا في نفس القاريء حتى من العبارتين السابقتين ، كما هو الحال في عبارة (مُطْلِقٌ العَمَلَ) و (مُطْلِقٌ الطّاقةَ) ، والمنتشرة في تحرير الكتب والمقالات اكثر من انتشارها في لغة المعجمات •

لكن هنالك مواضع يكون فيها للحروف المختلفة وظائف اساسية لا يجوز اغفالها ، دفعا لأي التباس في المعنى •

خذ هذه العبارة ، على سبيل المثال : (bubble-separation method)
فلترجمتها علينا ان نقول : (طريقة الفَصْلِ بالفقاعاتِ) وليس (طَريقةُ فَصْلِ الفُقّاعات) وذلك لان فعل الفصل لا يقع على الفقاعات وانما بواسطتها ، فحرف (الباء) ، هنا ، جاء للاستعانة ، ووجوده لازم لتستقيم العبارة

اما في هذه العبارة التي ترادف سابقتها : **(bubble-tower method)**
فينبغي القول (طَريقةُ بُرْجِ الفُقّاعاتِ) لا (طَريقةُ البُرْجِ بالفُقّاعاتِ)، اذ لا حاجة للعبارة بحرف (الباء) ووجوده يشوه العبارة .

اما سبب الاختلاف فينصب على طبيعة كل من لفظة (بُرْج) ، وهي اسم عين من فعل لازم هو (بَرَجَ) ، ولفظة (فَصْل) وهي مصدر لفعل متعدٍ هو (فَصَلَ) .



في ختام هذه القراءة النقدية في معجم علمي عربي يُعَدُّ ، بصدق ، ثروة معجمية غنية ، قلما يجد القاريء نظيرا لها في عالم المعجمات والقواميس العلمية الحديثة .

وسبب ثرائه لا يقتصر على غنى ذخيرته من المفردات فحسب ، والتي ناهز عدد مفرداتها المائة والخمسين الف مفردة ، بشهادة اصحابه ، وانما يمتد الى سعة الموضوعات التي تناولها بالمسح والتنقيب والدرس .

وابلغ ما لفت نظرنا في منهج (المعجم الطبي الموحد) وخططه ، اهتمام اصحابه ورعايتهم الكبيرة باختيار معاني المصطلح العربي ودلالته الخاصة ، بالرجوع الى الاصول الاجنبية ، قديمها وحديثها ، والتحقق من دقتها قبل ان تنقل الى القاريء نقلا صادقا امينا .

وفي مجال استلهام التراث الطبي العربي والاسلامي ، وقطف ثمار ما غرسه السلف الصالح من الاطباء والحكماء العرب من علوم وفنون ومعارف ، يحتل (المعجم) مكان الصدارة بين نظرائه من المعجمات العلمية العربية ، وذلك بمحاولات اصحابه الحثيثة لترجمة المفردات اللاتينية واليونانية الى اللغة العربية ، تلك التي دعا البعض من العلميين الى الابقاء على عجمتها تحت ستار (عالمية) المصطلح .

اما الهفوات والسقطات التي اعترضت سبيلنا ، ونحن نطالع بعض مفرداته وعباراته المختارة ، فقد اقتصرت على شرود بعض أُسره الاصطلاحية عن المناهج القياسية المعتمدة دوليا او عربيا ، وهي ظاهرة شاذة لا تقتصر عليه فقط بل شملت معظم المعجمات العربية ، وكذلك التحرر من بعض القواعد والاصول العربية المعتمدة ، والالتجاء ، احيانا ، الى النحت والاقتراض من الدخيل والاشتقاق منه والقياس عليه •

ومع كل تلك الملاحظات العابرة ، سيظل (المعجم الطبي الموحد) يشغل المنزلة الرفيعة التي وصل اليها بجهود مؤلفيه الحثيثة الصادقة ، وبمساندة المؤسسات والهيئات الوطنية والقومية والدولية ، وبترحيب وتشجيع من الاطباء والكيميائين ، بل ومن جميع العلميين العرب •

وحسبي من حصاد هذه القراءة المتأنية والجهد المتواضع الذي بُذِلَ فيها ، أن ارى الطبعات القادمة وهي خالصة من كل ما يشوبها من هفوات ، ليقف (المعجم) على قدم المساواة مع المعجمات الطبية الدولية المرموقة •



المراجع

(١) قاسم ساره ، تعريب المصطلح العلمي ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٩ ، ع٤ ، ١٩٨٩ ، ص ٨١ .

(٢) المؤلف ، نقد مشروع معجم المصطلحات الكيميائية الموحد ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، ع٥١ ، ١٩٩٦ ، ص ٢١٣ .

(٣) المؤلف ، مناهج المصطلح الكيميائي العربي ومقاييسه ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، ع ٣٧ ، ١٩٨٩ ، ص ١٢١ .

(٤) المؤلف ، مشكلات المصطلح الكيميائي العربي ، المحاضرات العامة في جلسات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩٢ ، ص ١٥٩ .

(٥) صادق الهلالي ، تطوير منهجية وضع المصطلحات العلمية ، مداولة شخصية مع المؤلف .

(٦) المؤلف ، « المعجم الكيميائي الجامعي » مخطوط معد للطبع ، منشورات جامعة بغداد .

(٧) **7 - Emil.L. Smith, et al " Principles of biochemistry, McGraw - Hill Co., 1976, P. 539.**

(٨) احمد الحملاوي « شذا العرف في فن الصرف » ، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٤٢ .

(٩) ابراهيم مصطفى وجماعته « المعجم الوسيط » المكتبة العلمية ، طهران ، بلا تاريخ ، مادة عاض .

(١٠) يوسف حتي « قاموس حتي الطبي » ، ط٣ ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٧ .

(١١) مجيد عبدالحليم الماشطة ، كيف تجعل تعلم اللغات الاجنبية ...، وقائع مؤتمر التعليم العالي في الوطن العربي ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٧٦٣ .

(١٢) مصطفى الغلاييني « جامع الدروس العربية » المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ج١ ، ص ١٨ .

(١٣) مجمع اللغة العربية الاردني « مشروع مجمع اللغة العربية الاردني للرموز العلمية والعربية » ١٩٨٥ .

(١٤) المؤلف ، مشروع مجمع اللغة العربية الاردني للرموز ..، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج٢ ، مج ٣٩ ، ١٩٨٨ ، ص ٢٢٦ .

(١٥) احمد سعيدان ، نحو نظام عربي للرموز العلمية ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، مج ٣٠ ، ١٩٨٦ ، ص ٣٩ .

(١٦) المجمع العلمي العراقي ، خلاصة اعمال لجنة الاصول ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٠ ، ١٩٧٩ ، ص ٢٤٤ .

الاتصال الحضاري والتغير الاجتماعي
للجماعات الاثنية
ـ دراسة تطبيقية عن جماعات الغجر في العراق ـ

اعـــداد
الدكتور مزاحم جاسم مجيد الاشعب

المقـــدمـــة

لم تعد الحياة التقليدية لاية جماعة من الجماعات سـواء المحليـة او الاثنية «العرقية» او اي جماعـة اخرى ، قـادرة على مقاومة عوامل التغير . فالجماعات في حالة مستمرة من التغير . ولكن درجة هذا التغـيـر وأسلوبه يتفاوتان من مجتمع لآخر ، هناك جدل واسع بين الانثروبولوجيين وكذلك الاجتماعيين حول أسباب وعوامل تغير تلك الجماعات ، منهم من أشار بأن تغير هذه الجماعات ناتج عن دوافع ومؤثرات خارجية متمثلة بالاتصـال والاحتكاك بين هذه الجماعات والجماعات الاخرى ، وما ينشأ عن هذا الاتصال من استعارة أو انتشار عناصر ومركبات حضارية من مجتمع لآخر ، في حين اوضح اخرون بأن التغير يصدر عن دوافع تنشأ داخـل حضـارة الجماعة نفسها ، وما المؤثرات الخارجية الا عوامل مساعدة او معجلة للتغير ، أي أن التغير يحدث عن طريقة الاختراع والاكتشاف .

لقد أصبح التكامل بين الحضارة والاتصـال اكثر وضوحا من قبـل ، خاصة إذا عُدَّ مصطلح الحضارة محتويا مجمـوع مخططات الحيـاة التي يمارسها الانسان في كل مكان وزمان ، أي كل ما اضافه الانسان الى البيئة الطبيعية . وفي ضوء هذا ، فأن الاتصال بين الاشخاص والجماعات على حد سواء عنصر أساسي في أوجه الحياة كافة ومن ثم في الحضارة ، ويمكن اعتبار

دور الاتصال بمثابة دور الناقل الاساسي للحضارة ، ووسائل الاتصال هي أدوات حضارية تساعد على دعم المواقف او التأثير فيها ، وعلى نشر أو تعزيز العناصر الحضارية وأنماط السلوك وتحقيق التكامل الحضاري •

وبذلك يُعد الاتصال عاملا مهما في التأثيرات التي تحدث أو تساعد على أحداث التغيرات للجماعات الاثنية ، فالاتصال عملية اجتماعية ملازمة للانسان • وجدت بوجوده وتواصلت معه ، ثم بمقتضاها نقل وتبادل العناصر والمركبات الحضارية بين طرفين أو أكثر بشكل مباشر او غير مباشر من خلال وسائل أتصالية متنوعة ، يمكن ان تعتمد على الكلمات والرموز المسموعة والمرئية والمكتوبة التي تؤدي الى الانتقال والانتشار او انها تعتمد على الاحتكاك المباشر المستمر بين حضارتين أو اكثر مما يؤدي الى عملية التبادل والتفاعل اي التأثر والتأثير وفي ضوء هذا يمكن تقسيم الاتصال الى نمطين رئيسين:

(١) الاتصال الجماهيري « "Mass Communication" » :ـ ويتم بين شخص أو مؤسسة وجماهير عريضة متفرقة ، تنتقل بواسطته المعلومات والافكار من مصدر الارسال الى جهة الاستقبال دون أن يكون هناك تفاعل بينهم ، حيث لا يتسنى لجهة الاستقبال أن تشارك في العملية الاتصالية الا من خلال تلقيها ، وتتم عملية النقل عبر وسائل اتصالية متعددة كالاذاعة ، والتلفاز والصحافة والمجلات والنشريات والسينما بقصد الاعلام والمعرفة والاقناع والتأثير او الاحياء بأفكار واتجاهات معينة ويعد هذا النمط أتصالا منظماً وغير مباشر ، والانتشار Diffusion هو من نتائج الاتصال •

(٢) الاتصال الحضاري Cultural Contact هو الاحتكاك المباشر والمستمر بين الافراد من ذوي حضارات مختلفة مسببا تغيرات في الانماط الحضارية عند احد او كلتا الجماعتين ، ويستهدف هذا البحث التعرف على التغيرات الاجتماعية التي حدثت للجماعات الغجرية ، بأعتبارها

جماعة أثنية ، من خلال عملية أتصالها مع المجتمع العراقي من خلال المحاور الاتيـــة :ـــ

اولا : الاتصــــال الحضاري **Cultural Contact**

استخدمهذا المفهوم بمعانمختلفة من عدد من الباحثين في بريطانياوامريكا، Acculturation في الدراسات الامريكية يقابله مصطلح Cultural Contact في الدراسات البريطانية وقد استخدم أول مرة عام ١٨٨١ من قبل الباحث بـــاول Powell في بحثه « مدخل لدراسة لغات الهنود » ليشير الى الاستعارة الحضارية[١] .

ومنذ ذلك الوقت انتشر استعماله وتناوله عدد من الدارسين بمعـــان مختلفة ، رغم ان الدراسات الحديثة للاتصال الحضاري ، بدأت في عشرينات القرن الحالي ، كما يؤكد العالم هيرسكوفيتش Herskovits كرد فعل ضد المذهبين التطوري والتاريخي وكذلك ضد التعميـــمات المفرطـــة في أوربا ومذهب اعادة بناء الصورة التاريخية في امريكا ، التي تجاهلت العلاقة بين الحضارة وناقليها[٢] .

أ ـــ مفهوم الاتصال الحضاري :

لقـــد قـــدم كل من ريـــد فيلـــد Red filed ولنتـــون Liton وهيرسكوفيتش Herskovits اول تعريف منهجي للاتصال عام ١٩٣٥ جاء فيه « يتضمن الاتصال الحضاري تلك الظواهر التي تنشأ عندما يحـــدث اتصال مباشر ومستمر بين جماعات من الافراد ينتمـــون الى حضـــارات

(1) Unesco, 1972 : A Dictionary of Social Science.
مترجم الى اللغة اليونانية أصدار وزارة التربية اليونانية P. 749

(٢) أيكسه ، هولتكراش ، ١٩٦٠ قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور ترجمة محمد الجوهري ، اصدار دار المعارف ، مصر ١٩٧٢ ص٧٤ .

مختلفة ، ينتج عنه تغيرات في الانماط الحضارية لاحداهما او كلتيهما[٣] .
مؤكدين بأن التغير الحضاري يعدّ مجرد مظهر من مظاهر الاتصال في حين يكون التمثل Assimilation مرحلة من مراحل الاتصال في بعض الاحيان[٤] . اما « مالينوفسكي Malinowski » عالم الانثروبولوجيا الوظيفي ، فيرى بأن الاتصال الحضاري ليس عملية أخذ وعطاء غير مفيدة ، وانما عملية توجه بضغوط وقوى محددة ، وأصناف ان عملية الاتصال والتغير تكون بشكل صراع ، تعاون ، مصالحة ، ومن جرائها تحدث التغيرات التي تؤثر في كلتا الحضارتين المتصلتين[٥] .

في حين يرى « فورتس Fortes » عالم الانثروبولوجيا البريطاني ان الاتصال هو عملية تفاعل متصلة بين جماعات من حضارات مختلفة وينبغي الا يعتبر الاتصال مجرد نقل عناصر من حضارة الى أخرى . في حين أعتقد بعض الدارسين ان الاتصال حالة تمثل من جراء التقاء حضارتين ، ويمثل هذا الاتجاه « هوبل Hoebel » اذ عرف الاتصال بأنه « عملية تفاعل بين مجتمعين وعن طريق هذا التفاعل تعدل حضارة المجتمع الادنى تعديلا شديدا لتمثل حضارة المجتمع المسيطر » .

وتظهر وجهة النظر هذه الى حد كبير لدى « كروبر Kroeber » الذي يرى ان الاتصال الحضاري يشتمل على التغيرات التي تحدث في حضارة معينة بتأثير حضارة أخرى ، وينتج عن ذلك أزياء التشابه بين كلتا الحضارتين .

(3) Unesco, 1972. A Dictionary of Social Science. Op. Cit. P. 750.

(٤) أيكسه هولتكرافس ، ١٩٦٠. قاموس مصطلحات الانثروبولوجيا والفولكو ، مصدر سابق ص٧٤

(5) John Mcleish : 1872. The Theory of Social Change, London

(٦) ايكسه هولتسكرافس ، ١٩٦٠. قاموس مصطلحات الانثروبولوجيا والفولكور ، مصدر سابق ص١٤ .

وقد يكون التأثير متبادلا او من جانب واحد[٧] .

في حين أعتقد اخرون بأن الاتصال هو نقل حضاري مستمر ، ويعبر « وينيـــك Winick » عن وجهة النظر هذه حيث عرف الاتصـــال « الاتصال الحضاري هو العملية التي تنقل بها الحضارة خلال اتصـالات مستمرة ومباشرة بين جماعات ذات حضارات مختلفة غالبا ما تتمتع احداها بمدنية أكثر تقدما »[٨] .

اما مجلس بحوث العلوم الاجتماعية ، الذي يرى « يمكن تعـريف الاتصال الحضـــاري بأنه تغير حضاري راجع الى أرتباط اثنين أو اكثر مـــن الانساق الحضارية المستقلة » . وكذلك لدى « وستيرن Wstern » اذ يعرف الاتصال « بأنه عملية نمو او تغير حضاري تحدث حينما يؤثر نسق اجتماعي أقتصادي في نسق اخر تأثيرا بعيد المدى » وبعامة يمكن القول : ان اغلب دراسات الاتصال الحضاري تركزت حول الافكار الاتية :ـ

أ ـ اعتبار الاتصال عملية تفاعل مستمر .

ب ـ الاتصال الكامل وهي الفكرة المستوحاة من الاتصال المباشـر والمستمر .

جـ ـ اعتبار الاتصال نقلا حضاريا مستمرا .

د ـ اعتبار الاتصال تكيفا حضاريا .

و ـ اعتبار الاتصال الحضاري تغيرا حضاريا .

يعزى الاختلاف في تحديد مفهوم الاتصال الحضاري بين الدارسين الى طبيعة التأثيرات التي تحدث جراء ذلك الاتصال التي تحدد بالاتي :

---

(٧) المصدر نفسه ص ٧٥ .
(٨) المصدر نفسه ص ٧٧ .
(٩) المصدر نفسه ص ٧٩ .

اولا : في حالة كون الاتصال محدودا ، فيكون في صورة انتشار العناصر والمركبات الحضارية ، ويتم بواسطته تبادل الافكار والعادات والتقاليد والاشياء المادية بين حضارتين مختلفتين ، والذي يمكن اعتباره عملية أخذ وعطاء ، استيراد وتصدير •

ثانيا : في حالة كون الاتصال شاملا ، يؤدي الى عملية تداخل حضارتين مختلفتين • أي عمليات التغير التي تتم داخل هاتين الحضارتين من جراء تفاعلهما •

في ضوء التعريفات التي أشير اليها آنفا ، يمكن تحديد تعريف نستخدمه في تحليل طبيعة اتصال الجماعة الاثنية « "Ethnic Groups" » جماعة الغجر في العراق بأعتبارهم حضارة فرعية ، في المجتمع العراقي وحضارته العربية السائدة باعتباره مجتمعا شموليا ، فالاتصال الحضاري الذي نحن بصدده هو عملية تفاعل مباشر ومتواصل بين حضارتين احداهما تمثل الحضارة السائدة والاخرى حضارة فرعية ، ينتج عنه تغيرات حضارية ليعطي أنماط الحضارة الفرعية ، لكي تتكيف وتتلاءم مع الحضارة السائدة مع احتفاضها ببعض سماتها وعناصرها الخاصة بها •

ب ـ نتائج الاتصال :

ان للاتصال الحضاري نتائج مهمة ومختلفة في اثارها النفسية والاجتماعية خاضعة للظروف التي تتعرض لها الجماعات المتصلة وكما أشار أغلب دارسي الاتصال •

وتلاحظ من :ـ

١ ـ القبول "Acceptance" :

وهو أخذ عنصر حضاري او جزء من حضارة ، وقد يكون هذا القبول طوعا وتلقائيا او اجبارا قسريا •

٢ ـ التكيف "Adaptation" :

اي أكتساب احدى الجماعتين للانماط الحضارية للجماعة الاخرى •

وهو تكيف عنصر حضاري مع عناصر حضارية أخرى . ويعرف « بيلز Beals » التكيف بأنه نتيجة عملية الاتصال الحضاري وهو « يربط العناصر الاصلية والغريبة أما في كل منسجم أو مع الحفاظ على الاتجاهات المتصارعة التي تتصارع فيما بينها في السلوك اليومي ووفقا لمناسبات معينة »(١٠) . ويؤدي التكيف في بعض الاحيان الى التماثل الذي يطلق عليه التكيف من جانب واحد ، وبعامة يترتب على التكيف الامور الاتية :

أ ـ التمثل Assimilation :

هو تكيف عنصر حضاري او حضارة بأجمعها مع مركب حضاري أو حضارة أجنبية وذلك بشكل كامل ومن طرف واحد ويرى « بيلز Beals » ان التمثل يتحقق لدى بعض الافراد عندما يستبدلون حضارتهم الاصلية بحضارة أخرى استبدالا كاملا(١١) . ويرى « كروبر Kroeber » ان التمثل وظيفة من وظائف الاتصال الحضاري ويعني امتصاص أحدى الحضارات لحضارة أخرى أمتصاصا كاملا(١٢) .

ان تعريف ريد فيلد ولينتون وميرسكوفيتش للاتصال الحضاري الذي تمت الاشارة اليه أكد أنّ التمثل يكون في بعض الاحيان مرحلة من مراحل الاتصال وقدم مجلس بحوث العلوم الاجتماعية تمييزا مهما بين الانصهار الحضاري Cultural Fusion والتمثل . اذ اعتبر التمثل المقابل الثنائي للانصهار وعرف التمثل بهذا الصدد « هو عملية تقارب من طرف واحد ، اي تقارب حضارة في اتجاه حضارة اخرى »(١٣) .

ب ـ الانصهار الحضاري "Cultural Fusion" :

وهو نوع من التكيف الذي يحدث فيه قدر من التقارب بين نسقي

(10) Unesco. 1972, A Dictionary of Social Science p.p. 749—751.

(11) Ibid, p. 130.

(12) Ibid., p.p. 749—751.

(١٣) ايسكه ، هولتسكورافس ، مصدر سابق ص١٣٢ .

حضارتين مستقلتين ، وقد يكون نتيجة ذلك ظهور نسق حضاري ثالث ، والانصهار في هذه الحالة يؤدي الى محو المعالم الاساسية للحضارتين المندمجتين .

٣ ـ رد الفعل اي الصراع بين القيم الاصلية والقيم الجديدة ، وأن هذه الحالة تتولد بصفة اساسية خلال حالات الاتصالات التي تتصف بسيطرة شعب على آخر اي الاتصالات العدائية ، ويعرف « هيرسكوفيتش Herskovits » رد الفعل هو « تلك الحركات التي يؤكد من خلالها شعب ما القيم التي تحتويها اساليب حياته الاصلية ويتحرك من اجل الحفاظ على معالم حضارته او استعادة قيمه الاصلية » وتنتمي حركات اعادة الاحياء بصفة خاصة الى هذه الحركات[١٤] .

ثانيا : التغير والجماعات الاثنية :

أ ـ التغير الاجتماعي والحضاري* : ـ

يعد التغير الاجتماعي ظاهرة طبيعية ملازمة للمجتمع الانساني ولكن تختلف درجة التغير من مجتمع لآخر ، يعتقد بعضهم ان المجتمعات البدائية في حالة سكون واستقرار وذلك لعزلتها عن العالم الخارجي وصغر حجمها وجمود تقاليدها ، ولكن ليس هناك ثمة سبب يحملنا على هذا الاعتقاد[١] . يقول « ولبرت مور W. Moore ان ظاهرة التغير الاجتماعي ليست حديثة ،

(١٤) أيسكه ، المصدر نفسه ص ٨١ .

(*) نستخدم كلمة حضارة كترجمة حرفية لكلمة Culture كما استخدمها من قبل الاستاذ المرحوم شاكر مصطفى سليم .

(١) أ. ارفنج هالوول « الجوانب الاجتماعية والنفسية لظاهرة التثقف » في كتاب الانثروبولوجية وازمة العالم الحديث ، تحرير رالف لنتون ترجمة عبدالملك الناشق ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ١٩٦٧ ، ص٣٠٢ .

(2) W. Moore "Social Change" Prentice. Hall of India "Private" Ltd, New Delhi, 1965. P. 1.

فهناك تغيرات حدثت في المجتمعات الانسانية ، ولكن الاهتمام بالتغير يعود الى التحولات الهائلة التي تعرضت لها المجتمعات المعاصرة جراء التقدم العلمي والتكنولوجي الذي أصبح سمة العصر الحديث التي تعد من نتاج الحضارة المادية[٣] . اهتم علماء الاجتماع الرواد بدراسة التغير الاجتماعي والمشكلات الناتجة عنه . في حين لم يركز علماء الانثروبولوجية اهتمامهم به الا مؤخرا لكون دراستهم تركزت حول المجتمعات البدائية التي تتصف بعدم وضوح ظاهرة التغير لديها ، وفي ضوء الاتصال الحضاري الذي تم بين تلك المجتمعات والمجتمعات الاوربية وما نتج عنه من تغيرات حضارية ، جعل علماء الانثروبولوجيا يهتمون بدراسة الاتصال الحضاري ودوره في التغير الحضاري والاجتماعي لدى تلك المجتمعات ، ونستطيع القول ان هذه الدراسات أصبحت أوسع مما هي عليه لدى علماء الاجتماع نظرا للتغيرات العميقة التي تعرضت لها المجتمعات التقليدية من جراء احتكاكها بغيرها من المجتمعات أو من خلال تطبيقها لبرامج التنمية التي ادت الى احداث تغيرات كبيرة في حضارتها وبنائها الاجتماعي[٤] .

ويمكن القول ، بوجه عام ان ظاهرة التغير تشمل جميع المجتمعات الصغيرة منها والكبيرة والمعزولة منها والمنفتحة ، و الذي ينشأ نتيجة اختراع أو أكتشاف شيء مادي جديد او أفكار او مفهومات او مصطلحات جديدة للعلاقات او تنظيم جديد للقيم[٥] . واما نتيجة اتصال بين المجتمعات وما

(3) Walter, L, Wallace "Sociological Theory" First Published London, 1969. P. 141.

(٤) أبو زيد ، د. أحمد ١٩٧٥ « البناء الاجتماعي » مدخل لدراسة المجتمع ج ١ المفهومات ، اصدار الهيئة العامة المصرية للكتاب ص٢٥١ .

(٥) ملفيل ج . هيرسكوفتز « عمليات التغير الثقافي » في الانثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث . مصدر سابق ص٢٦٦ .

ينشأ عن هذا الاتصال من استعادة أو انتشار عنصر او مركب حضاري من مجمع الى آخر[٦] .

لقد استعمل علماء الانثروبولوجيا الحضارية Cultural Anthropology اصطلاح التغير الحضاري Cultural Change [٧] . لذا أهتموا بدراسة التغير الحضاري اكثر من دراسة التغير الاجتماعي ، لان التغير الحضاري يكون أوسع وأشمل إذ يتناول التغيرات التي تحدث في أي فرع من فروع الحضارة ، اما التغير الاجتماعي « "Social Change" » فيعني التغير الـذي يحدث في التنظيم الاجتماعي سواء في البناء او الوظيفة الذي يكون جزءا من التغير الحضاري[٨] . الاوسع مفهوما والاعم مدلولا من التغير الاجتماعي الذي يمكن استعماله لتحديد مدى التغير سواء من الناحية المادية او المعنوية فضلا عن مفهوم التغير الحضاري هو المصطلح الملائم[٩] بالنسبة لدراسة الجماعات الاثنية .

اما علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology فقد أعطوا أهمية للتغير الاجتماعي اكثر من التغير الحضاري أذ يرون بأن التغيرات التي تحدث في المجتمع تفصح عن نفسها في سلوك الناس ، اي في المظاهر الحضارية ، وهذا يدل على ان التغير الاجتماعي ينطوي بالضرورة على تغيرات حضارية[١٠] .

(٦) الجوهري ، د. محمد ١٩٨٠ « الانثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات عملية ، ط ١ سلسلة علم الاجتماع ، الكتاب ٣٣ ص١٧٤ .

(٧) شكارة ، د. عادل عبدالحسين « ١٩٧٥ نظرية هوبهاوس في التنمية الاجتماعية » ط ١ مطبعة دار السلام ، بغداد ص٩٤ .

(8) Kingsley, Davis, 1966, Human Society, Second edition Macmillan Co., New York. p.p. 622—623.

(٩) صابر ، الدكتور محي‌الدين ١٩٦٢ « التغير الحضاري وتنمية المجتمع » دار المعارف ، مصر ص٧٥ .

(١٠) أبو زيد ، د. احمد ١٩٧٥ « البناء الاجتماعي » ج ١ ـ مصدر سابق ص ٢٥٣ .

وان دراستهم للتغير الاجتماعي "Social Change" تشمل دراسة التغيرات التي تطرأ على البناء الاجتماعي ، التي تتضمن التغيرات في حجم المجتمع او في نظمه الاجتماعية او في العلاقات الاجتماعية[11] . ويؤكد الانثروبولوجيين البنيويون بأن الاحتكاك والاتصال والتفاعل لا يحدث بين الحضارات وانما يحدث بين الافراد والجماعات داخل بناء اجتماعي محدد[12] . لقد عرف «جسبرج Ginberg » التغير الاجتماعي بأنه التغير الذي يحدث في طبيعة البناء الاجتماعي ، كزيادة او نقص في حجم المجتمع ، أو في النظم الاجتماعية او التغيرات اللغوية والفنية وكذلك التغيرات في المواقف والمعتقدات[13] .

وبعامة يمكن القول ان التغير الاجتماعي والحضاري يرتبطان فيما بينهما ارتباطا وثيقا ، وهما وجهان لعملة واحدة ، فحيث يستخدم التغير الاجتماعي يعني بالضرورة التغير الحضاري والعكس صحيح .

اذ ان التغير الذي يدرسه يشتمل على التبدلات المهمة التي تطرأ على العلائق والنظم والقيم والمعايير والتقاليد والعادات الاجتماعية الثابتة نسبيا خلال مدة زمنية محددة . وان لهذه التغيرات صفة الترابط حيث تؤثر على بقية الظواهر ويحدث هذا نتيجة عوامل ومؤثرات متعددة تتفاعل فيما بينها لاحداث هذه التغيرات .

---

(11) Davis, Kingsley, 1966 : "Human Society". The Macmillan Co, New York. p.p 222—223.

(١٢) أبو زيد ، د. أحمد ١٩٧٥ « البناء الاجتماعي » ج ١ مصدر سابق ص ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(13) Ginsberg, 1961, "Essays in Sociology and Social Philosophy". Vol. III, William Heinemann. Ltd. London P. 143.

ب ـ الجماعات الاثنية :

ان وجود الجماعات الاثنية ظاهرة عالمية سواء في الزمان او المكان[1]. فقد ظهرت الجماعات وانتشرت في المجتمعات على اختلاف عصورها من جراء الهجرات المختلفة او الحروب والغزو والاستيلاء على أرض الغير بالقوة وطرد سكانها كما حدث للشعب العربي في فلسطين المحتلة ، او الهرب مخافة الحرب والدمار او نتيجة للبحث عن فرص اقتصادية، او استجابة لضغوط بيئية[2] . يستخدم أصطلاح الجماعة الاثنية ليشير الى جماعة أو فئة من السكان متمايزة سواء من الناحية الحضارية أو السلالية او القومية . لقد عرف « موريس Morris الجماعة الاثنية بأنها فئة من السكان تعيش في مجتمع كبير لها حضارتها الخاصة ، وتشعر بذاتيتها ، ويرتبط افرادها معا اما برابطة السلالة او الحضارة او القومية[3] .

بينما عرفها « شرمرهورن Schermerhorn » بأنها مجموعة من الافراد يعيشون في مجتمع اكبر ينحدرون من أصل واحد ولهم تاريخ وذكريات وحضارة مشتركة[4] .

من خلال هذه التعريفات يتضح ان الجماعات الاثنية قد يكون لها أصول سلالية مما ادى ببعض الباحثين ان يخلطوا في دراساتهم بين مفهوم الجماعات الاثنية « "Ethnic Group" » والجماعات السلالية

---

(1) Duram, James, "The Ecology of Ethnic Groups from a Kynian Perspective in Ethnicity Vol. I. No. 1 April 1974.

(2) Levine, Robert and Canpbell Donald — 1972. "Ethnocentrism" John Wiley and Sons, New York.

(3) Morris, M.S. "Ethnic Group" in Encyclopadia of Social Sience p.p 167—168.

(4) Schermerhorn, R.A., "Ethnicity in the Perspective of the Sociology of Knowloge, in Ethnicity, Vol. I. NOI April 1974. 1974 P. 1.

"Racical Group" بل أنهم كانوا يستخدمون الاصطلاحين دون تمييز واضح[٥] .

والواقع ان اغلب الدارسين في الوقت الحاضر يرون ضرورة التمييز بين هذين المصطلحين فالجماعة السلالية **Racial Group** تشير الى جماعة من الناس يمتلكون ملامح فيزقية مشتركة . وأكد روس **Rose** بأن كلمة « سلالة » تشير الى صفات بيولوجية وليست اجتماعية[٦] . وهذا ما لا ينطبق على الجماعة الاثنية ، والواقع ان اصطلاح « الجماعة الاثنية » اكثر مرونة من اصطلاحات أخرى استخدمت من قبل مثل « الجماعة السلالية » او « الجماعة الاقلية » او « الطبقة المغلقة » . وقد شاع استخدام اصطلاح الجماعة الاثنية بصفة عامة في اغلب الدراسات الانثروبولوجية وكما استخدمه « ناري **Narroi** » عام ١٩٦٤ . اذ اشار بأن الجماعة الاثنية هي فئة من السكان تتميز بخصائص بيولوجية تحقق لها الاستمرار ، ويشتركون في قيم حضارية اساسية مدركة ومفهومة ، وبوجود مجال محدد من الاتصال والتفاعل بين افرادها ، وبينهما كجماعة وبين الاخرين[٧] . خلاصة القول ، ان للجماعة الاثنية بناءها ، وهناك عوامل مشتركة تجمع بين افرادها ، كالاصل الواحد او الحضارة المشتركة ، وكذلك الدين او اللغة تحدد هذه العوامل الاطار الحضاري وطريقة التفاعل ومظاهر التأقلم للعمليات الاجتماعية ، وتؤثر أجمعها تأثيرا بالغا في السلوك وترسم للجماعة حدودها

---

(٥) اسماعيل ، د. فاروق مصطفى « الجماعات العرقية » دراسة في التكيف والتماثل الثقافي ـ الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٥ ص٤٠ .

(6) Rose, Peter, They and We, Social and Ethtnic Relations Random House Inc. New York, 1964. P. 7.

(7) Barth Frederik, "Ethnic Groups and Boundaries, The Social Organization of Culture Differences" Little Brown and Company. Boston. 1969. p.p 10—11.

الاجتماعية التي تساعدها على اداء وظيفتها كوحدة في تفاعلها مع الجماعات الاخـرى(٨) .

وبعد هذا العرض يجدر بنا ان نحدد اهم المعايير التي اتفق حولها أغلب الدارسين في تحديد الجماعة الاثنية . وهي كالاتي :

اولا : السـلالة :

اي ان افراد الجماعة الاثنية الواحدة ينحدرون من أصل مشترك . لذا ترى وجود ملامح فيزيقية تميزهم عن أفراد الجماعات الاخرى ، ان هذه الملامح ناتجة عن عوامل وراثية حققت للجماعة دوامها واستمرارها .

ثانيـا : الحضـارة :

لكل جماعة أثنية أطار حضاري له من الخصائص ما يميزه عن حضارة الجماعات الاخرى .

مما لا شك فيه ان لهذين المعيارين أهمية في تكوين الجماعات ، الا ان هناك معايير اخـرى لا تقل أهميـة عن هذين المعياريـن في تكون الجماعات الاثنية ، فالدين واللغة وبالرغم من انهما من مركبات الحضارة اذا ما أخذنا بتعريف « تايلور » للحضارة ، ولكن بعض الباحثين يرون ضرورة معالجة الدين واللغة كمعايير مستقلة عن معيار الحضارة حيث أكدت الدراسـات الحديثة التي أجريت في آسيا وافريقيا على أهمية هذين المعيارين في تكوين الجماعات الاثنية .

ان الدراسة التي أجريت على جماعة الهندوس وجماعة المسلمين في الهند أوضحت ان العامل الديني لعب دورا كبيرا في تمايز تلك الجماعتين بالرغم من أن الهندوس والمسلمين لا ينتمون الى فئة سلالية متباينة ، انما ينتميان الى سلالة واحدة ، ولكن الاختلافات الدينية بينهما أدت الى اختلافات في

(٨) اسماعيل ، الدكتور فاروق مصطفى « ١٩٧٥ » الجماعـات العرقيـة مصدر سابق ص٥٣ .

طرق الحياة وأساليبها بينهما أي ان العقيدة الدينية أمـدت كـل جماعـة بأساس واضح لتنظيم ذاتها بما يتعارض مع الجماعة الاخرى(٩) .

اما اللغة فأنها تلعب ايضـا دورا حيويا في تحديـد الجماعة الاثنية ، أذ أنها تحدد طبيعة العلاقات وكيفية الاتصال بين الجماعات ، بـل انها تقيم الفواصل والحدود او لا تقيمها بين الجماعات المتباينة .

في ضوء ما تقدم يمكن اعتبار الغجـر جماعة أثنية ، فالغجـر جماعات تعيش في مناطق متفرقة من العالم ، أكد أغلب الباحثون الذين درسوا الغجر بأنهم ينحدرون من اصل واحد(١٠) . وكل جماعة من هذه الجماعات لها ملامح متعودة ومشتركة كالخصائص البيولوجية المتوازنة التي حققت استمرار هذه الجماعة ودوامها عبر الاجيال ، وكذلك لها حضارتها الخاصة التي تميز أفرادها عن أفراد المجتمع الذي تعيش فيه وتسودها قيم حضارية مشتركة من جانب افرادها ، هذه القيم هي التي جعلتها متمايزة ومختلفة عن المجتمع الكبير الذي وفدت اليه ، كما أنها حددت أطار العلاقات والروابط الاجتماعية بين الغجر أنفسهم . وفيما بينهم وبين الجماعات الاخرى فضلا عن امتلاكهم لغة خاصة بهم .

لقد أشار الباحث « اكتون T. Acton » ان الجمـاعات الاثنيـة الغجرية تطمح للتسكين والتكامل الاجتماعي مع المجتمع الكبير الذي تعيش فيه واتفق مع ما ذهب اليه « اكتون T. Acton » كلا من « جيلـدث Judithokely ونبيل صبحي حنا(١١) .

---

(9) Beteille, Andree, "Race Caste and Ethnic Identity in International Journal of Social Science, Vol, 23, No 1971. p.p 533—534.

(١٠) حنا ، د. نبيل صبحي ١٩٨٣ « البناء الاجتماعي والثقافي في مجتمع الغجر » دار المعارف ، القاهرة ص٢١ .

(11) Okely, Judith : 1983, "Traveller-Gypsies" Cambridge, University Press. P. 40

ثالثا : التغير الاجتماعي لدى جماعات الغجر :

اشتهر الغجر بأنهم جماعات أثنية شديدو الانغلاق ولهم القدرة على الحفاظ على خصائصهم وحضارتهم ووحدتهم الاجتماعية رغم احتكاكهم وأتصالهم المستمر بحضارات العديد من الشعوب التي عاشوا معها ، فجماعات الغجر المنتشرة في جميع انحاء العالم تقريبا ، لم تكن في عزلة تامة ، بل يمكن القول ان الحضارة الغجرية تكونت من خلال عملية الاتصال[١] . حيث بدأت اتصالات جماعات الغجر بالشعوب والمجتمعات المختلفة ، عندما غادروا ضفاف نهر السند منذ عدة قرون[٢] . ان هذه الحقبة الزمنية الطويلة في ترحالهم عبر المجتمعات كانوا على اتصال مستمر مع شعوب تلك الاقطار . مما أدى الى تأثر حضاراتهم بهذه العملية . فأستعادوا الكثير من السمات والعناصر الحضارية من تلك المجتمعات . ورغم ذلك صمدوا وتحصنوا ضد عوامل التذويب والانصهار التام بالمجتمعات الاخرى[٣] .

لذا تصور بعض الدارسين انه يصعب التأثير فيهم ليغير طابع حياتهم القديم والتكامل مع المجتمعات التي يعيشون فيها . في الاونة الاخيرة ظهر تقارب في الاراء حول امكانية تغيير الغجر ، ويرى بعضهم الآخر انه يمكن تغييرهم بسهولة ، مبالغين في تأكيد رغبة الغجر في ذلك[٤] .

أشار الباحث « بور Bonos الذي يعد من الباحثين الذين أكدوا مقاومة الغجر للتغير ، ان الغجر قد أتصلوا عبر القرون العديدة مع المجتمعات

---

(١) فرنسوا كوزا ، الغجر ومشكلة الاتصال الثقافي ، مجلة ديوجين ، العدد ٣٧ السنة ١١ ـ مايو ـ يوليو ١٩٧٧ ، اصدار مطبوعات اليونسكو ص ٢٨ .

(2) J.P. Glebert, The Gypsies, Translated by Charles Puff Penguin Books, London 1967. p. 50

(3) J.P. Glebert, The Gypsies, Op. Cit., p. 8.

(٤) حنا ، د. نبيل صبحي « البناء الاجتماعي والثقافي في مجتمع الغجر » اصدار دار المعارف ، مصر ١٩٨٣ ص٤٣ .

التي عاشوا فيها • ولكنهم ما زالوا محافظين على عاداتهم وطرقهم وبقوا جماعة غير قابلة للتمثيل Assimilation مع المجتمع الذي يعيشون فيه •

ولعل من أفضل الدراسات التي تناولت التغيرات لدى جماعات الغجر دراسة الباحثة « Renacotten » عند دراستها لغجر الكالدراس ، فقد حاولت بدراستها هذه تسجيل أنهيار غجر امريكا ، وذكرت أنه على الرغم من عدم قابلية هذه الجماعة على التكامل مع المجتمع الا انه حدثت بالفعل تغيرات في طابع الحياة ، والمهن ، والعادات لهذه الجماعة ، وتؤكد الباحثة "Suther land" » ان غجر امريكا على وعي بالتغيرات التي حدثت لهم[٦] •

اما الدراسات التي أجريت على جماعات الغجر في بريطانيا ، فقد أشارت الى ان هذه الجماعات لم تعد تمثل الجماعات الغجرية التقليدية ، فقد تغيرت مظاهر حياتهم من جراء اتصالهم واختلاطهم بالمجتمع[٧] •

من الواضح ان عادات الزواج والطقوس الدينية ومراسيم الدفن والميلاد بالاضافة الى اللغة والدين والازياء • قد أستعارتها الجماعات الغجرية من حضارات المجتمعات التي عاشوا فيها ، مما آدى الى أعتقاد الباحثين بعدم أصالة الموروث الغجري مؤكدين انه مقتبس او عُدل او حُرف عن فولكلور المجتمعات الاخرى • مع ذلك نجد هناك بعض المأثورات الشعبية ذات الطابع الغجري الاصيل[٨] •

---

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٤ .

(٦) المصدر السابق ص٤٥ .

(٧) الحلفي ، محمد أمين ، « التنمية الاجتماعية والاتصال الثقافي » دراسة للاثار الاجتماعية الناتجة عنهما في مجتمع الغجر في العراق ، ص١٦ .

(8) Standard Dictionary of folklore, Mythology and Legend, Funk and Wayrals Company, New York, 1972, p.p 951—255

على العموم يمكن القول بأن الغجر في الاونة الاخيرة بدأوا الاتجاه نحو الاستقرار في المدن أو القرى ، وهذا ما يمكن ملاحظته في العراق •

ان الاتصال الذي يحدث بين الغجر بأعتبارهم جماعة أثنية « حضارة فرعية » والمجتمع العراقي بأعتباره مجتمعا شموليا « حضارة سائدة » هو اتصال مباشر ومستمر قد أحدث تغيراً وتبدلا في نمط حياة الغجر مما أدى الى تكيفهم مع حضارة المجتمع العراقي • يتصف هذا التكيف بالانتقائية والتفرد ، حيث انتقوا بعض السمات وتكيفوا معها ، وتفردوا عن غيرهم في طرائقهم الحضارية ، لذا لم يصل الغجر الى الاندماج التام مع المجتمع العراقي كما أنهم لم يتعرضوا للانقراض اي الانصهار الحضاري •

واتخذت عملية التكيف الاجتماعي والحضاري التي نحن بصددها أسلوبين :ـ

اولا : الاسلوب الاجباري

لقد أضطر الغجر في العراق الى الاخذ ببعض الانماط الحضارية السائدة « حضارة المجتمع العراقي » أي ان التكيف هنا قد فرض عليهم فرضا ، ويتضح ذلك في الكثير من المواقف ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، اضطر الغجر الى أحترام القوانين العراقية ، ومن اهم تلك القوانين قانون الجنسية وقانون الخدمة العسكرية ، قانون التعليم الالزامي والقانون المدني ولا سيما الزواج والطلاق والارث الى جانب قوانين الضبط الاجتماعي •

ثانياً : الاسلوب الاختياري او الاداري :

وهنا أخذ الغجر ببعض انماط الحضارة السائدة بمحض ارادتهم ، وهذا واضح في التغيرات الاجتماعية التي حدثت في كثير من أنشطتهم الاجتماعية ، وعلى سبيل المثال وليس الحصر الاستقرار بدل الترحال ، استخدام الات موسيقية مثل العود والكمان والقانون ، فضلا عن استخدام الايقاعات

الشعبية مثل الطبل بأنواعه بدلا من آلة الربابة التي كانت يعتمد عليها بصورة رئيسة •

وبعامة يمكن تحديد بعض مظاهر التكيف الاجتماعي للجماعة الغجرية مع المجتمع العراقي كالاتي :

(١) الـــدين :

الدين نظام اجتماعي ، يقوم على علاقة الانسان بكائن او كائنات او قوى فوق طبيعية ، او اله ، يؤمن به ويعبده ، ويتحد الدين بنسق سلوكي وأخلاقي ، يعين الذين يعتنقونه على تفسير الاحداث التي يواجهونها ويخلق فيما بينهم تماسكا اجتماعيا[٩] •

ان الاعتماد السائد لدى اغلب دارسي الغجر بـأن ليس لهم ديانة خاصة بهم ولكنهم يتدينـــون بالديانة الموجـــودة في المكان او البلد الـــذي يقيمون بـــه[١٠] • وعلى هذا فأن الغجر هنا في العراق يتدينون بالدين الاسلامي طالما ان الدين الاسلامي هو دين المجتمع الذي يعيشون فيه • يلتزم الغجر في العراق بالطقوس الخاصة بقواعد الدين الاسلامي ومنها ختان الاولاد الذكور، والزواج يتم بعقد ديني عند عالم دين « السيد » وكذلك الطقوس الخاصة بالموت والدفن ومراسيم تقبل التعازي ، « الفاتحة » وكنوع من التكيف الاجتماعي مع البيئة التي يعيشون فيها •

٢ ـ اللغــــة :

يعد تعلم لغة المجتمع المستقبل « الحضارة السائدة » واستعمالها من قبل الجماعة الاثنية الجماعة الوافدة « حضارة فرعية » أهم أدوات التكيف

---

(٩) لومي مير « مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية » ترجمة الدكتور شاكر مصطفى سليم ١٩٨٣ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ص٤٦١ .

(١٠) يول كلبيرجان ، الغجر دراسة تاريخية فولكلورية ، ترجمة لطفي الخوري، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٧٦ ص٤٠ .

الحضاري ، لأن اللغة أحد عناصر الحضارة بل هي اهم تلك العناصر(١١) . فاللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الافراد في اتباعه ويتخذونه أساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم وفي تفاهم بعضهم مع بعض . لذا فهي وسيلة التفاهم وتبادل الافكار والتقارب والتعبير بقوانين وقيم واعراف وتقاليد المجتمع . ومن هنا فأن تعلم لغة المجتمع المستقبل من قبل الجماعة الاثنية يعد من العوامل المساعدة للتكيف الاجتماعي والحضارة لهذه الجماعة .

لقد أثبتت الدراسات عن الغجر ان لغة الغجر هي ذات أصل هندي واكد الباحث « بيرميل Pierremeile » أستاذ اللغات الحديثة في مدرسة اللغات الشرقية . ان للغة الغجرية قواعد ومفردات لا يمكن توضيحها الا من طريق السنسكريتية(١٢) .

لذا تم اضافة لغة الغجر ضمن عائلة اللغات الهندية . مما لا شك فيه ان اللغة الغجرية تضمنت مفردات غير هندية وعلى نطاق واسع . لكونها في الاساس لغة جماعة مترحلة فقد اقتبسوا أعداداً كبيرة من الكلمات الاساسية المتواجدة في الاقطار التي مروا بها أو استقروا فيها .

ويؤكد مارتن سبوك ان عدد الكلمات التي أقتبسها الغجر في بلد ما تتناسب طرديا مع المدة التي قضوها في ذلك البلد(١٣) . وفي ضوء ذلك نجد ان الغجر قضوا في العراق والبلاد العربية حقبة طويلة من الزمن ، والحقيقة واضحة فأن لغتهم الاساسية تتضمن الكثير من الكلمات العربية ، ويؤكد

---

(١١) الدكتور عاطف وصفي ، « الانثروبولوجيا الثقافية » ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١ ص١٠١ .

(١٢) جان – بول كليبر – الغجر – ترجمة لطفي الخوري ، منشورات وزارة التربية والاعلام ، بغداد ١٩٨٢ ص٣٢٣ .

(١٣) نفس المصدر السابق ص٥ .

الباحث طه الحديثي ان اللهجة الغجرية في العـراق هي مزيـج من عدة لغات « فارسية وعربية وكردية وتركية »(١٤) بالاضافة الى اللغة الغجرية •

فالغجر في العراق والبلاد العربية استطاعـوا ان يستوعبوا تماما اللغة العربية وبدقة وبلهجة القطر العربي الذي يعيشون فيه ، ونستنتج من ذلك ان استخدام الغجر « جماعة اثنية » لغة المجتمع العراقي ، هو من أهم مظاهر التكيف الاجتماعي والحضارة لهذه الجماعة •

٣ ـ الازيــــــــــاء :

ان الغجر سريعو التكيف ولا سيما في المظاهر الماديـة مع الشعوب التي يعيشون في كنفها ومن ذلك الازياء ، فالغجر في العراق يماثلون بأزيائهم افراد المجتمع العـراقي وليس هناك ما يميز الغجـر في ملابسهم عن افراد المجتمع العراقي وعلى العكس من ذلك في البلاد الاوربية حيث يمكن تميز الغجـر بثيابهم المزركشة الملونة(١٥) •

فالرجل الغجري في العراق يرتدي ملابس الزي العربي الريفيـة او البدوية وكذلك ملابس رجـال الزي الحضري في المدن ، في حين ترتـدي نساؤهم الملابس التي ترتديهـا نسـاء العـراق وكذلك هو الحـال بالنسبة للشـباب •

ان ارتداء أزياء المجتمع المستقبل « الحضارة السائدة » من قبل افراد الجماعة الاثنية « الحضارة الفرعية » هو مظهر تكيفي يحقق نوعا من التماثل الاجتماعي والحضاري للجماعـة الاثنية مـع المجتمع الذي تعيش في كنفه •

٤ ـ الاســــــتقرار :

كان الغجر في العراق يعيشون حياة البداوة ويسكنون الخيام ويتجولون في الصحاري والسهول والجبال وهم ذوو بشرة سمراء داكنة ويعيشون على

(١٤) الحديثي ـ طه حمادي ، « الغجر والفرج في العراق » دراسـة في الجغرافية التطبيقية ـ جامعة الموصل ـ موصل ١٩٧٩ .

(١٥) جان ، بول كليبير ، الغجر ، مصدر سابق ص١٣ .

الرقص والغناء والموسيقى ويقرأون الغيب ويعيشون على هامش المجتمع وهم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة وذلك جراء ترحالهم وغالبا ما يوصفون بأنهم بدو في اغلب البلدان التي يعيشون فيها .

لقد بدأ الغجر في العراق حياة الاستقرار وذلك في عام ١٩٥٨ حيث أستقروا في منطقة الكمالية التابعة لناحية بغداد الجديدة في مدينة بغداد . أذ سكنت في هذه المنطقة (١٧٤) أسرة غجرية في بادىء الامر(١٦) . وقد بلغت حاليا (٢٦٠) أسرة(١٧) . ويتجمع الغجر في العراق في مناطق سكنية خاصة بهم وتقع على هامش المدن الكبيرة . وموزعة كالاتي :

١ ـ منطقة الغجر في الغوار في محافظة القادسية واستقروا فيها عام ١٩٧٠ .
٢ ـ منطقة الغجر في أبي غريب وقد أستوطنوا هذه المنطقة نهاية السبعينات من هذا القرن .
٣ ـ تجمع الغجر في حمام العليل .
٤ ـ تجمع الغجر في ناحية كنعان بمحافظة ديالى وقد استوطنها الغجر في نهاية السبعينات .
٥ ـ تجمع الغجر في الشوملي الواقعة بالقرب من ناحية الشوملي التابعة لمحافظة بابل وقد استوطنوها في منتصف الثمانينات .
٦ ـ فضلا عن تجمع الغجر في الشطرة ومخيمات الغجر في تازة .

ومن الجدير بالذكر الاشارة الى ان أغلب تجمعات الغجر السكانية فيما عدا تجمع الكمالية ، تقع بعيدة عن مناطق سكن الاسر العراقية وذلك ناتج عن عزوف أغلب الاسر العراقية للسكن بالقرب من الغجر . وترتب على ذلك العزلة الكافية بالنسبة لهؤلاء الغجر .

---

(١٦) الحديثي ، طه ١٩٧٩ « الغجر والقرج في العراق » اصدار جامعة الموصل ص٥٠ .

(١٧) الهاشمي ، حميد غافل « الغجر في العراق » اطروحة ماجستير بعلم الاجتماع كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ ١٩٩٤ ص٩٣ .

اذ يعيش هؤلاء الغجر في أحياء خاصة بهم فلم ينشئوا علاقات اجتماعية مع غيرهم اللهم الا علاقات العمل ، فالعزلة المكانية النسبية لهؤلاء الغجر تدل على وجود حدود وفواصل اجتماعية يصنعها افراد المجتمع العراقي بوجه الغجر مما لا يتيح للتفاعل الاجتماعي ان يأخذ مجراه الطبيعي ، وترتب عليه ضعف العلاقات الاجتماعية فيما بين الطرفين . ومما لا شك فيه ان الاستقرار وكما هو الحال في الكمالية سوف يؤدي الى رابطة الجوار بين الغجر وافراد المجتمع العراقي . ويرى « كوين Queen » و «كاربنت Carpenter ان الجوار يشير الى منطقة ما تعيش فيها مجموعة من الافراد يعرف بعضهم بعضا ، يتبادلون الخدمات وبصفة عامة يقومون باعمال مشتركة[١٨] . في حين يؤكد « روث كلاس Ruthclass » ان الجوار يشير الى جماعة محلية يقابل اعضاؤها من أجل دوافع مشتركة ، لهم اتصالاتهم الاجتماعية على الرغم من أنها تلقائية[١٩] .

وبعامة يمكن القول ان علاقة الجوار بين أعضاء جماعة الغجر كجماعة « أثنية » بالجماعات غير الغجرية « أفراد المجتمع العراقي » سوف تؤدي الى القبول الاجتماعي ، وبالتالي سوف يعد من الحدود والفواصل الاجتماعية بين الغجر وغيرهم من أفراد المجتمع العراقي ، التي بدورها تحقق التكيف الاجتماعي والحضاري للجماعات الغجرية « الحضارة السائدة » .

ومما تجدر الاشارة اليه ان نذكر ان منح الجنسية العراقية للغجر يعد من أهم الامور التي أدت الى تكيف الغجر ودمجهم مع المجتمع العراقي ، ان الانتماء الوطني والشعور بالانتماء للمجتمع من قبل الغجر هو عامل مهم من العوامل المساعدة للتكيف الاجتماعي والحضاري .

---

(١٨) أسماعيل ، د. فاروق مصطفى ، « الجماعات العرقية » دراسة في التكيف والتماثل الثقافي — الهيئة ١٩٧٥ ص ١٥٧ .

(19) Gilbert, Herbert. "The Neighbour hood Unit Principle and Organic Theory" in Socialogical Review, Vol, 2 1963. p. 160.

مصـــادر البحـــث

المصـــــادر العـــربيـــة

١ ــ الدكتور أحمد أبو زيد ١٩٧٥ « البناء الاجتماعي مدخل لدراســـة المجتمع » جـ ١ « المفهومات »

٢ ــ ارفنج هالوول° « الجوانب الاجتماعية والنفسية لظاهرة التثقف » في كتاب الانثروبولوجية وازمة العالم الحديث ، تحرير رالف لنتون ، ترجمة عبدالملك الناسف ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٩٦٧ ص ٣٠٢ •

٣ ــ إيكه ، هولنكرانس «قاموس مصطلحات الانثروبولوجيا والفولكلور» ترجمة د• محمد الجوهري و د• حسن الشامي ــ دار المعارف بمصر ١٩٧٢ •

٤ ــ بـول كليبـير جان « الغجـر دراســة تأريخيــة فورلكورية » ترجمة لطفي الخوري ــ دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٧٦ •

٥ ــ حميد غافل الهاشمي ١٩٩٤ « الغجر في العراق » أطروحة ماجستـير تقدم بها قسم الاجتماع في كلية الاداب ــ جامعة بغداد •

٦ ــ رالف لنتون « الانثروبولوجيا وازمة العالم الحديث » ترجمة عبدالملك الناشف ــ المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت ١٩٦٧

٧ ــ الدكتور طه حمادي الحديثي ــ ١٩٧٩ « الغجر والقرج في العراق » جامعة الموصل ــ العراق

٨ ــ الدكتور عادل عبدالحسين شكارة ، ١٩٧٥ « نظرية هوبهـاوس في التنمية الاجتماعية » ط ١ • مطبعة دار السلام ــ بغداد •

٩ ــ الدكتور عاطف وصفي ١٩٧١ « الانثروبولوجيا الثقافية » دار النهضة العربية ــ بيروت

١٠ــ الدكتور فاروق مصطفى اسماعيل ١٩٧٥ « الجماعات العرفية » الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الاسكندرية

١١ــ الدكتور قيس النوري ١٩٧٢ « طبيعة المجتمع البشري » ج٢ مطبعة الاداب النجف ــ العراق

١٠ــ لويس مير « مقدمة في الانثروبولوجيا الاجتماعية » ترجمة د. شاكر مصطفى سليم ١٩٨٣ ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد

١١ــ محمد أمين الحلفي « التنمية الاجتماعية والاتصال الثقافي » دراسة الاثار الاجتماعية في مجتمع الغجر في العراق رسالة ماجستير غير منشور ــ القاهرة ١٩٧٩ .

١٢ــ الدكتور محمد الجوهري ١٩٨٠ « الانثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات عملية » ط ١ سلسلة علم الاجتماع المعاصر ــ القاهرة

١٣ــ الدكتور محي‌الدين صابر ١٩٦٢ « التغير الحضاري وتنمية المجتمع » دار المعارف ــ مصر .

١٤ــ ملفيل ج . هيرسكو فتز « عمليات التغير الثقافي » الانثروبولوجيا وازمة العالم الحديث

١٥ــ نبيل صبحي حنا ١٩٨٣ « البناء الاجتماعي والثقافي في مجتمع الغجر » دار المعارف ــ مصر



٢ ــ المصــــادر الانكليزيــة

1. Andree Beteille "Race Caste and Ethnic Identity in International Journal of Social Science, Vol. 23 No. 1971.
2. Davis Kingsley 1966 "Human Society", Macmillan Company N. Y.
3. Frederik Barth "Ethic Groups and Boundaries the Social Organization of Culture Difference Little Brown and Company, Boston, 1969, p.p 10—11.
4. Herbert Gilert "The Neighbourhood unit Principle and Organic Theory" in Socialgical Review, Vol. 2, 1963.
5. Ginsberg, 1961. "Essays in Sociology and Social Philosophy". Vol. III. Wiliam Henceiman Ltd. London.
6. Glebert J.P., The Gypsies : Translated by Charles Puff gengain Books, London 1967.
7. H.S. Morris "Ethnic Groups" in Enoyclopadia of Social Science.
8. James Duram "The Ecology of Ethnic Groups from a Kynian Perspective in Ethnicity Vol. I No. I April 1974.
9. John Mcleish, 1972 "The Theory of Social Change" four views Considered, London.
10. Julius Gould and William "A Dictionary of Social Science" Unesco Press, 1972.
11. Judith Okely : 1983 "Traveller-Gypsies" - Cambridge University Press.
12. Moore Wiibert, E, 1965 : "Social Change" Prentice-Hall of India Private Ltd., New Delhi.
13. Peter Rose. They and We, Social and Ethnic Relations, Random House, Ire New York, 1964.
14. R.A. Schermerhorn "Ethnicity in the Perspective of the Sociology of Knowloge, in Ethnicity, Vol. I No. 1, April 1974.
15. Robert Lerine and Campbell Donald, 1972 "Ethnocentrism; John Wiley and Sons, New York.
16. Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, Funk and Wagnals Company, New York, 1972.

التغلغل الاقتصادي الاوربي في المغرب
١٨٩٤ ـ ١٩١٢

أ.د. هاشم صالح التكريتي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تواصل في القرن العشريـن التطور الصناعـي العاصف الذي اخذت الاقطار الاوربية المتقدمة تشهده منـذ ان قام الانقلاب الصناعـي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، واستتبع ذلك زيـادة حاجـة تلك الاقطار الى الخامات واسواق التصريف ومجـالات استثمار رأس المال الامر الذي ترتب عليه زيادة الحاجة الى المستعمرات ومناطق النفوذ • ان هذا هو في الواقع ما يفسر زيادة تكالـب الـدول الاستعمارية في هـذه المرحلـة للحصول على المستعمرات وسعيها المكثف لا للمحافظة على المستعمرات التي استحوذت عليها في المراحل السابقة فحسب بل للحصـول على مستعمرات جديـدة وتوسيع امبراطورياتها الاستعمارية عن طريق ضم مناطق جديدة اليها • وطالمـا انه لم تكن قد بقيت في الكرة الارضية « مناطق شاغـرة » يمكن الاستحواذ عليها لان الدول الاستعمارية كانت قد اقتسمت العالـم فيما بينها منذ اواخر القرن التاسع عشر فان هذا التوسع كان لابد ان يتم من جانب البعض من هذه الدول على حساب الممتلكات الاستعمارية للبعض الاخر او مناطق نفـوذه • وكان مما جسد هذه الحقيقة اكثر ان دولا كألمانيا وايطاليا وغيرها كانت قد شغلتهـا في السابـق عوامـل معينة تتعلق بالاوضـاع الداخليـة فيهـا عن التوسع الاستعماري ، بدأت الأن وبعـد ان زالت تلك العوامـل تسعى لان تكون امبراطورياتها الاستعماريـة الخاصة بها فكان لابد لها ان تصطـدم بالدول الاستعمارية القديمة التي هبت للدفاع عن ممتلكاتها الاستعمارية ضد تطاولات هذه الدول •

وهكذا اشتد الصراع بين الدول الاوربية من اجل الحصول على المستعمرات واصبح البعض من هذه المستعمرات ساحة لنزاعات عنيفة بين تلك الدول ، كانت في بدايتها نزاعات اقتصادية ثم تحولت الى نزاعات سياسية وعسكرية وكانت ضحيتها في كل الاحوال تلك المستعمرات نفسها .

يهمنا هنا الصراع الاقتصادي الذي قام بين الدول الاوربية ولاسيما بين فرنسا والمانيا في المغرب ، ذلك الصراع الذي ترك طابعه على كل التطورات التي جرت في هذا البلد في المرحلة موضوع البحث . فالمغرب الذي كان انذاك يتخبط في مشاكله الاقتصادية والسياسية ازدادت احواله في هذه المرحلة سوءاً فاصبح هدفاً مغرياً للاستعماريين الاوربيين الذين كانوا قد حققوا فيه، حتى هذا الوقت ، نفوذاً اقتصادياً ملحوظاً واصبحت لهم فيه مواقع اقتصادية لايستهان بها[1] . وقد سعى هؤلاء الاستعماريون الان للاستناد الى هذه المواقع في محاولة للاستحواذ على اقتصاد البلد باكمله من جهة واقامة نفوذ سياسي لهم فيه من جهة اخرى .

والواقع ان ظروفاً ملائمة استجدت في المغرب في المرحلة موضوع البحث وسهلت للاستعماريين الاوربيين تحقيق اهدافهم التوسعية في ذلك البلد ، ونعني في المقام الاول وفاة السلطان الحسن الاول الذي كان يحاول اعاقة التوسع الاقتصادي الاوربي في بلاده بكل السبل المتوفرة لديه وتولى ابنه السلطان عبدالعزيز الذي لم تكن شخصيته « تحوي من عناصر القوة ماقد يحمله على السير في خطوات ابيه او الاقتراب مما قام به جده القوي العزم مولاي اسماعيل من توطيد اركان الدولة داخليا »[2] . لقد كان السلطان الجديد راغباً في الاصلاح ولكنه كان شاباً تعوزه الخبرة بهرته مظاهر التقدم الغربي

(١) كنا قد كرسنا لهذا الموضوع بحثا بعنوان « التغلغل الاقتصادي الاوربي في المغرب في اواخر القرن التاسع عشر » نشر في العدد الرابع ـ السنة الثانية من مجلة كلية المعلمين الصادرة في تموز ١٩٩٥ .

(٢) روم لاندو ، تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة الدكتور نيقولا زيادة ، الطبعة الثانية بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣٦ـ٣٧ .

فوقع تحت تأثير مستشاريه الاجانب وجلهم من المغامرين والسماسرة من امثال مالكين[٣] الانجليزي الذي احتل مكاناً بـارزاً في البلاط المغربي طيلة عهـود السلاطين الثلاثة الحسن الاول وعبدالعزيز وعبد الحفيظ حيث عمل في البداية مدرباً ثم اصبح قائداً عاماً للجيش المغربي[٤] .

لقد ساءت الاحوال في المغرب في عهد السلطان عبدالعزيـز نتيجة لرد الفعل الذي جوبهت به الاصلاحات التي اراد القيام بها والثورات والاضطرابات التي اجتاحت البلاد بسبب ذلك واستغلال الاجانب كل ذلك لتشديد هجمتهـم الاقتصادية على البلاد فازداد التوسع الاقتصادي الاوربي في المغرب في هذه المرحلة وبرزت اثاره السلبية اكثر مـن السابـق وانعكست هذه الاثار علـى احوال البلاد المختلفة فساءت لدرجة لم يسبق لهـا مثيل . وقد عبر عن ذلك المؤرخ المغربي الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الانصاري الذي عاصـر تلك المرحلة اصدق تعبير حيث قال : « واعلم ان احوال هذا الجيل [عهد السلطان عبدالعزيز] الذي نحن فيه قـد باينت احوال الجيل الـذي قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غايـة الانعكاس وانقلبت اطوار اهـل التجارة وغيرها من الحرف في جميع منصرفاتهم لا في مسالكهم ولا في اسعارهم ولا في سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الاسباب على الناس وصعبت عليهـم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمضادين والسبب الاعظم في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من اهل الأربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم ... واعلم ايضـاً ان امر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علواً منكراً وظهر ظهـوراً لاكفاء

(٣) عبدالعزيز بنعبدالله ، تاريخ المغرب ، العصر الحديث والفترة المعاصـرة ، الجزء الثاني الدار البيضاء ـ الرباط د.ت.ص : ٩٧ .
(٤) انظر : روم لاندو ، المصدر السابق ص ٥٥٧ .

له واسرعت احواله في التقدم والزيادة اسراعاً متضاعفاً كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج حتى كاد يستحيل الى فساد ... »[٥].

وهكذا تميزت المرحلة موضوع البحث بتكثيف الاوربيين لتغلغلهم الاقتصادي في المغرب وابتداعهم لطرق واساليب جديدة لتحقيق ذلك من ذلك مثلا ان السلطان عبد العزيز سمح ببيع الاراضي في المغرب للاجانب الامر الذي ادى الى قيام مزارع كثيرة يمتلكها المستوطنون الاوربيون مما يشكل سبيلا جديداً للاستغلال الاقتصادي الذي مارسه الاجانب في المغرب في تلك المرحلة .

لكن العلاقات التجارية التي جهد الاوربيون ولا سيما الفرنسيون الى توسيعها مع المغرب ظلت الوسيلة الرئيسة لتغلغلهم الاقتصادي في هذا البلد، ذلك ان همهم الاساس في هذه المرحلة كان تأمين الاسواق لمنتجات صناعتهم المتزايدة . وكان الفرنسيون قد تميزوا في هذا المجال اكثر من غيرهم فقد شكلوا في بداية القرن العشرين لجنة خاصة هدفها التوسع الاقتصادي في المغرب اسموها لجنة المغرب وكانت تحظى باسناد بعض رجال السياسة والاعمال التجارية والمالية الكبرى وفي مقدمتهم بنك باريس والارضي المنخفضة وشركة دي شاتيون وشركة شنايدر والبنك الفرنسي للتجارة وللصناعة وشركة الريجي لاستثمار التبغ في المغرب واتحاد المعادن .[٦] وسعت فرنسا الى الحصول على امتيازات اكثر مما ورد في ميثاق مدريد لعام ١٨٨٠ واثمرت مساعيها لدرجة ملحوظة حيث اصبحت تحتل المركز الاول في تجارة المغرب الخارجية ، فاذا ما كانت حصتها ومعها الجزائر في هذه الفرع من فروع الاقتصاد المغربي في ١٩٠١ تعادل ٣٨٪ من حجم التبادل التجاري

(٥) ابو العباس احمد بن خالد الانصاري ، كتاب الاستقصا لاخبار دولة المغرب الاقصى ، الدولة العلوية ، القسم الثالث ، الجزء التاسع ، الدار البيضاء ١٩٥٦ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٦) روم لاندو ، المصدر السابق ص ٧٥ .

الخارجي للمغرب فان هذه الحصـة ازدادت في ١٩٠٥ الى ٥ر٤٦٪ عاماً بـان حصة بريطانيا كانت في التاريخين المذكورين ٢ر٣٦٪ و ٥ر٢٩٪ على التوالي في حين كانت حصة المانيا ٢ر٧٪ و ٩ر٩٪ وحصـة اسبانيا ٣ر٨٪ و ٤٪ على التوالي ايضا .(٧)

لكن المغـرب لم يستفد من اتسـاع علاقاته التجـارية وذلك ان ميزانه التجاري كان سلبياً باستمرار ولهذا ظلـت خزينة الدولة تعاني من مصاعـب جدية وظل اقتصاد البلد يعاني من متاعب اعاقته عن التطور ذلك ان « التجارة الخارجية كانت بالنسبة للمغرب عادة ذلك الفرع من الاقتصاد الـذي يعتمد عليه الى حد كبير تعجيل او ابطاء وتأثر نمو الاقتصاد باجمعه ...».(٨) واذا اضفنا الى ذلك الاموال التي تطلبتها مشاريع السلطان الاصلاحية والمصاريف التي استلزمها القضاء على الثورات التي قامت كرد فعل على هذه الاصلاحات وامتناع اعداد كبيرة من السكان عن دفع الضرائب ادركنا حاجة الدولة الماسة الى المال .

وعمد السلطان في ١٩٠١ ، رغبة منه في الخروج من الازمة المالية الخانقة التي كانت خزينة الدولة تعاني منهـا الى الغـاء الضرائب القديمـة (الزكاة والعشور والنائبة) واستعاض عنها بضريبة جديدة عرفت بـ « الترتيب » وهو الامر الذي اقره ميثاق مدريد عام ١٨٨٠ . وتقرر ان تجبى الضريبة الجديدة التي فرضت على جميع السكان دون استثناء وعلى الاجانب القاطنين في المغرب ايضاً ، من قبل موظفين حكوميين خاصين وليس من قبل القادة كما كان الامر في السابق .

لقد اريد لهذه الاجراءات ان تسهل جباية الضرائب وتزيد من ايراداتها وذلك لان المفروض فيها ان تقضـي على سوء الاستغلال الـذي كان القادة

---

(٧) N.S. Lutskaya, Ocherki Noveishei Istorii Marokko, Moskva, 1973. P. 25

(٨) L.L. Fituni, Marokko, Moskva, 1985, St. 85

يمارسونه حيث كانوا يستحوذون لأنفسهم على حصة الاسد من مبالغ الضرائب التي كانوا يجمعونها ، باضافة الى ان فرض الضرائب على الاجانب الذين كانوا معفوين منها في السابق من شأنه ان يزيد من الاموال التي تتم جبايتها . غير ان ذلك لم يتحقق بل على العكس ادى هذا الاجراء الى نتائج عكسية سببت للسلطان الكثير من المشاكل وفتحت له ابواباً جديدة للصرف ذلك انه «اثار بعمله [هذا] غضب الاغنياء والفقراء ورأي مكانته تزداد هبوطاً في نظر شعبه» .[9] لقد اغضب هذا الاجراء الاغنياء وذوي النفوذ لانه حرمهم من استنزاف القبائل والغى امتيازات قبائل الجيش والاشراف والطوائف الدينية الذين كانوا جميعاً معفيين من الضرائب واستاء منه الفقراء لانهم كانوا معفيين من الزكاة التي كانت تجبى لمساعدتهم بينما الضريبة الجديدة «فرضت حتى على اولئك الذين لايملكون الاشاة واحدة » وزاد الطين بلة ان العلماء اعلنوا ان « الترتيب » مخالف لتعاليم القرآن فاعطوا بذلك حجة للتمرد والامتناع عن دفع الضريبة الجديدة .[10] وكان ذلك من بين الاسباب التي جعلت الاضطرابات تشمل اجزاء واسعة من البلاد واصبحت محاولات القضاء عليها تستنزف جزءاً لايستهان به من موارد الدولة . يضاف الى ذلك ان الاتفاق مع ممثلي الدول الاجنبية في طنجة حول دفع الاجانب للضريبة الجديدة ، كما يقضي بذلك ميثاق مدريد لسنة ١٨٨٠ استغرق مدة سنتين بسبب معارضة فرنسا وروسيا ، ولما كان السلطان عبدالعزيز قد الغى الضرائب القديمة عندما اعلن « الترتيب » فقد حرمت خزينة الدولة من ايرادات الضرائب التقليدية طيلة السنتين التي استغرقتها محاولة الاتفاق مع ممثلي الدول الاجنبية حول الضريبة الجديدة .

وهكذا ظل الوضع المالي في المغرب صعباً للغاية وظلت خزينة الدولة تعاني من ازمة عميقة كانت تشتد باستمرار خصوصاً وان ابواباً جديدة للصرف

---

(٩) روم لاندو ، المصدر السابق ص ٦٣ .

(١٠) محمد خير فارس ، المسألة المغربية ١٩٠٠-١٩١٢ ، بيروت ١٩٨٠ ص١١٠

فتحت امام الحكومة المغربية بسبب تكاليف الحملات التي كانت تنظمها للقضاء على الاضطرابات التي سببتها القبائل التي كان الفرنسيون يثيرونها عامدين .[11] ولم يجد السلطان طريقاً للخروج من هذه الازمة الا بالاقتراض من الاجانب فأنبرت المؤسسات المالية الفرنسية التي كانت تترقب مثل هذه الفرصة وابدت استعدادها في ١٩٠٢ لاقراض حكومة السلطان مبلغ ٣٨٠ ألف جنيه استرليني .[12] لكن الانجليز لم يريدوا ان تنفرد فرنسا بهذا المكسب فأخذت الدبلوماسية البريطانية بالضغط على اسبانيا التي كانت بعض مؤسساتها المالية قد شاركت مع الفرنسيين في المحادثات حول هذا القرض ، لدفعها الى التخلي عن المشاركة فيه وأبدى احد البيوت المالية الانجليزية استعداده لتزويد السلطان بقرض تساوي قيمته المبلغ الذي عرضه المصرفيون الفرنسيون .[13] وانتهى الامر بعقد قرض في عام ١٩٠٣ اشتركت في تقديمه بيوت مالية من كل من فرنسا وبريطانيا واسبانيا بحصص متساوية وبلغت قيمته ٢٢٫٥ مليون فرنك اقتطعت منها البنوك الفرنسية نسبة ٤٠٪ اي تسعة ملايين فرنك ، عمولة لها .[14]

ولكن هذا القرض لم يساعد على احداث تغيير جذري في الوضع المالي للمغرب فتكاليف الحملات الكثيرة وامتناع السكان عن دفع الضرائب والرغبة في توفير المال اللازم لاستغلال ثروات البلاد المعدنية وغير ذلك من الامور كانت تجعل السلطان بحاجة دائمة الى المال . ولهذا لم يلبث السلطان ان توجه للاقتراض من جديد . وكانت فرنسا في هذه المرحلة هي الاقدر بين

(١١) لقد لاحظ ذلك واكده عدد من المؤرخين والباحثين الانجليز والفرنسيين ـ انظر : روم لاندو ، المصدر السابق ص ٧١ .

(١٢) E.D. Morel, The Black Man's Burden, The White man in Africa From The Fifteenth Century To World War 1, New York and London, 1969, P. 78

(١٣) Ibid. P. 78

(١٤) Lutskaya, OP. Cit. P. 25

الدول الاوربية على الاستجابة لحاجة المخزن فهي « الدولة الوحيدة في اوربا التي تتمتع برصيد كبير من رؤوس الاموال الجاهزة للتصدير في حين ان انكلترا كانت تعاني في تلك الفترة ونتيجة لحرب البوير مصاعب مالية جعلتها هي نفسها بحاجة الى رؤوس اموال اجنبية جاء قسم كبير منها من فرنسا . وكانت اسبانيا اكثر من انكلترا احتياجاً لاستيراد رؤوس اموال فرنسية . اما المانيا فقد كانت تميل الى استهلاك ما لديها من رؤوس اموال في الصناعة»[١٥].

وهكذا انفردت البنوك الفرنسية لوحدها في تقديم القرض الجديد للمخزن . لقد تم التوقيع على القرض الجديد في حزيران ١٩٠٤ وبلغت قيمته ٦٢٫٥ مليون فرنك بفائدة مقدارها ٥٪ ، ونص العقد على ان يستهلك هذا القرض في ست وثلاثين سنة وان يسدد منه قرض ١٩٠٣ الذي سبق ذكره ومقداره كما ذكرنا ٢٢٫٥ مليون فرنك وان يكون للبنوك الفرنسية حق الافضلية في كل القروض المقبلة وان تكون الكمارك المغربية في جميع الموانىء المفتوحة للتجارة حاليا او التي ستفتح في المستقبل ضمانة للقرض حيث سيقيم في كل ميناء جباة فرنسيون يودعون يوميا ٦٠٪ من عائدات الكمارك في كل ميناء لحساب الدين .[١٦]

لقد مارست البنوك الفرنسية بهذا القرض عملية نهب سافرة للمغرب فضحها النائب الاشتراكي في البرلمان الفرنسي جان جوريس بعد ذلك بسنوات عندما اعلن في البرلمان في ١٤ آذار ١٩١١ بان عمولة اصحاب البنوك الفرنسية في هذا القرض بلغت ١٢٫٥ مليون فرنك وان ما تسلمه السلطان المغربي منه لم يتجاوز ٤٨ مليون .[١٧] واذا اضفنا الى ذلك حصول الفرنسيين على حق الاشراف على سك العملة في المغرب اضافة الى المواقع الاقتصادية التي حققها لهم هذا القرض ولاسيما التزام المغرب بمنح الفرنسيين حق

(١٥) محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ١٤٠ .
(١٦) محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ١٤٥–١٤٦ .
(١٧) نقلا عن : روم لاندو ، المصدر السابق ص ٧٠ .

الافضلية في القروض المقبلة ادركنا معنى قول دوسانت اولير الوزير الفرنسي المفوض بالوكالة في طنجة عندما وصف هذا الالتزام بانه « تعميد للحماية الفرنسية » .(١٨)

بهذا الشكل كان الرأسمال الفرنسي يسعى للاستحواذ على المواقع الاساسية في الاقتصاد المغربي تمهيدا لترسيخ النفوذ السياسي الفرنسي فيه . وهذا السعي في الواقع هو السبب الكامن وراء الهجمة الاقتصادية التي تعرض لها المغرب في هذه المرحلة من جانب فرنسا . وقد اتخذت هذه الهجمة اتجاهين متميزين الاول من حيث الزمن هو سعي الفرنسيين الى اقامة استثمارات صغيرة خاصة بهم في المغرب . فالفرنسيون الذين قدموا الى المغرب بمبادرتهم الخاصة والذين كانوا يملكون رؤوس اموال صغيرة اتجهوا نحو شراء قطع صغيرة من الارض والاستقرار فيها واستثمارها ، او نحو اقامة بعض المشاريع الانشائية الصغيرة كمعامل انتاج السمنت والطابوق والقرميد او ورشات لنشر الاخشاب او تصنيع المنتجات الزراعية وغير ذلك من مشاريع الاستثمار الصغيرة . وقد ازداد عدد اصحاب امثال هذه المشاريع الصغيرة في المغرب ولاسيما بعد ان جرى احتلال بعض مناطق البلد احتلالا عسكريا في ١٩٠٧ .

اما الاتجاه الثاني فقد تمثل بالهجمة الكبيرة التي قام بها رأس المال المصرفي الكبير الذي اسس له في المغرب شركات فرعية كانت تحصل على امتيازات للتنقيب عن المعادن وبناء الموانىء وانشاء السكك الحديد والطرق . وقد برزت في هذا المجال « كومباني ماروكن » التي اسستها في ١٩٠٢ شركة « شنايدر وكو » فقد قامت بنشاط ملحوظ باتجاه التغلغل الاقتصادي في المغرب حيث شاركت في المحادثات التي جرت بشأن القرض الذي سبق ذكره وحصلت على امتيازات لبناء مينائين في الدار البيضاء وصافي وافتتحت لها

(١٨) نقلا عن : احمد زيادي ، انتفاضة الشاوية ١٩٠٧ . دراسة . وثائق تاريخية . ملاحق ادبية . الدار البيضاء ١٩٨٦ ص ١٤ .

وكالات في كل من طنجة وفاس ، بل ان احد ممثليها واسمه ڤير كان يحظى بثقة السلطان نفسه .(١٩) وكان للفرنسيين في المغرب شأنهم في ذلك شأن الانجليز والالمان والاسبان مكاتب البريد خاصة بهم تنقل الرسائل وتقوم بالمهمات البريدية الاخرى في جميع انحاء البلاد .(٢٠)

اثارت النجاحات الفرنسية في المغرب استياءً شديدا في المانيا . والواقع ان الاهتمام بالمغرب في المانيا لم يقتصر على الاوساط الرسمية بل تعدى ذلك ومنذ وقت طويل قبل المرحلة موضوع بحثنا فشمل اوساطا واسعة من الرأي العام واسهمت في ذلك الصحافة والجمعيات العلمية والاقتصادية ودعاة التوسع الالماني من اعضاء الاتحاد الجرماني ومؤيديه وغير ذلك من الاوساط .(٢١) وحقق الالمان نجاحات لا يستهان بها في مجال التوسع الاقتصادي في المغرب فقد اقاموا عددا من المؤسسات التجارية عملت جاهدة على توسيع التبادل التجاري بين المغرب والمانيا . وبالفعل اخذت المانيا منذ عام ١٩٠٠ تزاحم فرنسا على المركز التجاري الثاني فقد بلغت نسبة تجارتها مع المغرب ١٣٪ من تجارة ذلك البلد في حين جاءت حمولة سفنها بالمرتبة الثانية .(٢٢) لقد كانت توجد في المغرب اربعون شركة المانية مجموع رأسمالها ١٠ ملايين مارك في حين كانت هناك خمس شركات المانية تزور بواخرها بشكل منتظم ثمانية من موانيء المغرب .(٢٣)

---

(١٩) Lutskaya, OP. Cit. P. 26

(٢٠) عبدالمجيد بن جلون ، جولات في مغرب أمس ، الرباط د.ت. ص ١٣ .

(٢١) انظر حول ذلك : حسن صبحي ، المسألة المغربية في بداية القرن العشرين ١٩٠٠ — ١٩٠٤ ، الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ١٦ ؛ محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٢٢) ابراهيم شحاته حسن ، نصوص ووثائق في تاريخ المغرب تحت « الحماية » الاسكندرية د.ت.ص ٤٩ .

(٢٣) Lutskaya, OP. Cit. P. 26

أخذت الشركات الالمانية تعمل على التغلغل في فروع الاقتصاد المغربي المختلفة فقد شاركت في احتكار التبغ واسهمت في الشركة المراكشية للانشاء والتعمير بنسبة مقدارها ٣٠٪ من رأسمال تلك الشركة وافتتح في المغرب بنك الماني واسست جريدة كانت تصدر هناك باللغة الألمانية(٢٤) • ولم يكتف الألمان بذلك بل واصلت الاوساط الاستعمارية في المانيا نشاطها المكثف للتغلغل في المغرب ادراكاتها للفوائد الكبيرة التي يوفرها لها استغلال مثل هذا البلد الغني وقامت بدعاية واسعة لاثارة اهتمام الألمان بالمغرب ، فقد كتبت احدى الصحف الألمانية الصادرة في برلين في آب ١٩٠٢ تقول : « ان كل واحد يعرف جيداً ما هي قيمة المغرب هنا • ان عدداً ضخماً من المستكشفين الألمان قد زاروا المغرب وان الانطباع الذي يستخلص من تقاريرهم هو ان المغرب بلد غني ومهمل تماماً • فالارض ذات خصوبة ملحوظة وفي كل مكان حيث يوجد الماء ينجح كل شيء ويزدهر • ولا يوجد في هذا البلد سكك حديدية او تلغراف او طرق مواصلات وليس فيه موانىء ولا منارات [يقصد فنارات] فلماذا لا يشترك الألمان في العمل لفتح المغرب امام التوغل الاقتصادي ؟ وكم من الفلاحين الألمان يستطيعون بعمل بسيط ان يجدوا حياة سهلة في هذه الارض المقفرة الآن ••• ؟ »(٢٥) وألفت في برلين في ١٩٠٢ لجنة للدفاع عن المصالح الالمانية في المغرب(٢٦) ، ونشطت الجمعيات الجغرافية واتحادات التصدير في المانيا لجذب الانظار نحو المغرب حتى ان « اللجنة الكبرى للجغرافيا التجارية والدفاع عن المصالح الالمانية في الخارج » جعلت المسألة المغربية الشعار اليومي لجلساتها في تشرين الاول ١٩٠٣(٢٧) • واثمر

---

(٢٤) يؤكد الباحث الفرنسي موريس بانه لم يكن يوجد في المغرب في ١٩٠٣ الا ١٣٥ المانيا و١٢ شركة تجارية المانية وان قيمة التبادل كانت ٨٫٤ مليون فرنك ــ نقلا عن : **Lutskaya, OP. Cit. Foot note 8, P. 446.**

(٢٥) نقلا عن : محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٢٦) **Lutskaya, OP. Cit. P. 27**

(٢٧) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

هذا النشاط فازدادت المصالح الاقتصادية الألمانية في المغرب واتسع التعامل الاقتصادي بين البلدين وحصلت الشركات الألمانية على امتيازات لانجاز العديد من المشروعات في انحاء المغرب المختلفة فقد اسهمت في توسيع ميناء العرائش وفي بناء كاسر للامواج في طنجة وفي التنقيب عن الثروات المعدنية في بعض انحاء البلاد ، وكان التجار الألمان يتواجدون في جميع المدن المغربية الكبرى تقريباً ، وكانت مراكز البريد الألمانية في المغرب تتمتع بسمعة عالية وتعد افضل من غيرها بكثير[٢٨] .

لقد كانت الصناعة الألمانية تعاني ، كما هو معروف ، من نقص في خامات النحاس والحديد ولهذا فان بعض الباحثين يرى ان وجود خامات هاذين المعدنين في المغرب كان احد الاسباب الرئيسة لاهتمام المانيا بهذا القطر . وبالفعل كانت المطامع الألمانية تتركز في مناطق الجنوب المغربي ولاسيما منطقة السوس وهي المناطق التي كانت الصحف الألمانية تشير الى خصوبتها وغناها بخامات الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك من المعادن[٢٩] . ولهذا كانت الشركات الألمانية تسعى للحصول على امتيازات لاستغلال مناجم الحديد والنحاس وابرزها في هذا الشأن شركة « مانسمان » التي حصلت من السلطان عبدالعزيز على حق التنقيب عن المعادن في اراضي شاسعة من منطقة السوس[٣٠] . لقد استطاعت هذه الشركة ان تتغلغل في المغرب وتستحوذ على مواقع اساسية فيه حيث كانت تمارس نشاطاً تجارياً واسعاً يشمل سلعا عديدة ، بما فيها السلاح والذخيرة ونشرت نشاطها في المناطق الداخلية من البلاد فكونت لها هنالك اربعة عشر مراكزاً وبيتاً تجارياً . ولاجل ان تزيد من عدد المتعاملين معها اخذت تبيع بالنسيئة ، واشترت من السلطان حق احتكار استغلال جميع مناجم النحاس في المغرب بالاضافة الى انها كانت تهيمن على واحد من ترستين

(٢٨) Lutskaya, OP. Cit. P. 27

(٢٩) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٣٠) عبدالمجيد بن جاون ، المصدر السابق ص ١١٤ .

انشئا لاستغلال مناجم الحديد هناك[٣١] كما اشترت من السلطان عبدالعزيز اراضي تبلغ مساحتها نحو خمس الاراضي المغربية وعندما حل السلطان عبد الحفيظ محل اخيه على العرش المغربي تمكنت الشركة من جعله يصادق على هذا الشراء[٣٢] .

واصات المانيا تغلغلها الاقتصادي في المغرب فحصلت لشركة « بورجو — روتمان» على عقد للقيام بانشاء مرسى ومستودع في ميناء طنجة ، واجرت في ١٩٠٥ مفاوضات مع السلطان لمنحه قرضاً بعشرة ملايين مارك ، غير ان معارضة فرنسا الشديدة اضطرت الشركة الى التخلي عن الحق في استغلال المرسى والمستودع والالتزام بتسليمها الى المخزن فور الانتهاء من العمل ، كما اضطر الالمان الى القبول بمشاركة الفرنسيين في عملية القرض[٣٣] .

لكن الالمان لم يكفوا عن السعي للاستحواذ على مواقع متقدمة في الاقتصاد المغربي فاتجهت الشركات الالمانية الى الاسهام في الشركات العالمية المختلفة التي انشئت لاستغلال ثروات المغرب ، ففي ١٩٠٧ شارك الرأسمال الالماني مع رأسماليين من بريطانيا وفرنسا واسبانيا وايطاليا والنمسا وبلجيكا والبرتغال في انشاء شركة « يونيون دي مين » العالمية ، كما اسهمت الشركات الالمانية في الاتحاد الاحتكاري «سوسايتي ماروكين دي تراخوا بوبليك» وشاركت مع الرأسمال الفرنسي والبريطاني والاسباني في شركة « سوسايتي انترناسيونال دي ريجي كواتيريسي دي تابا دو ماروك » الى جانب اشتراك الرأسمال الالماني مع الفرنسي في بناء السكك الحديد في مناطق المغرب المختلفة[٣٤] .

(٣١) Lutskaya, OP. Cit. P. 27, Foot note 10 P. 446.

(٣٢) عبدالمجيد بن جلون ، المصدر السابق ص ١٢٠–١٢١ .

(٣٣) انظر : محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٣٤) Lutskaya, OP. Cit. P. 27

وعلى الرغم من ان انشاء هذه الشركات المختلطة ادى الى تشابك مصالح الشركات الالمانية والفرنسية الا انه لم يقض على المنافسة الحادة التي كانت قائمة بين الجانبين • وقد برز بشكل خاص في هذه المرحلة التنافس الشديد بين شركة « مانسمان » الالمانية التي سبق ذكرها والشركة العالمية المذكورة اعلاه « يونيون دي مين »(٣٥) التي يتزعمها شنايدر الفرنسي ويشترك فيها كروب الالماني •(٣٦)

لقد اصبحت لالمانيا مصالح اقتصادية لا يستهان بها في المغرب • وتحولت الشركات الالمانية صاحبة هذه المصالح الى قوة ضغط مستمرة على الحكومة الالمانية تحاول دفعها الى انتهاج سياسة اكثر نشاطا باتجاه المحافظة على هذه المصالح وتوسيع المواقع التي احرزها الرأسمال الالماني هناك • ولهذا فان المستشار الالماني بيلوف لم يكن صادقا عندما اعلن في الرايخشتاغ في ١٣ نيسان ١٩٠٤ في معرض تعليقه على اتفاقية ٨ نيسان ١٩٠٤ بين بريطانيا وفرنسا وهي الاتفاقية التي اطلقت فيها بريطانيا يد فرنسا في المغرب قائلا : « •• ان لنا هناك [في المغرب] قبل كل شيء مصالح تجارية ولهذا فان لنا مصلحة هامة في ان يسود الهدوء والنظام في المغرب ومامن داع للخوف من ان تتجاهل مصالحنا او تؤذى من قبل اي دولة • »(٣٧) • فالواقع ان هذه الاتفاقية قد « اقلقت المانيا الى اقصى حد »(٣٨) وذلك لان « الاستعمار

(٣٥) الواقع ان هذه الشركات كانت عبارة عن احتكار عالمي يديره الرأسماليون الفرنسيون الذين كانت حصتهم فيه ٦٢٪ • اما حصة الالمان فكانت ٢٠٪ في حين كانت حصة البريطانيين ٦٪ والاسبان ٦٪ والايطاليين ٤٪ والبرتغاليين ٢٪ •

Lutskaya, OP. Cit. Foot note 11, P. 446.

(٣٦) **Lutskaya, OP. Cit. P. 28**

(٣٧) نقلا عن : خير الدين فارس ، المصدر السابق ص ٢٤٣ •

(٣٨) **Diplomaticheskii Slovar, Pod red. A.A Gromeko ig dru. T.1, Moskva 1960 Str. 111.**

الالماني لم يكن يستطيع ان يتقبل فقدان قطعة مغرية لم تكن قد قسمت بعد كالمغرب »[٣٩] . ولهذا فان المانيا لم تستطع الاستمرار بالتظاهر بالهدوء فلم يلبث الالمان ان كشفوا عن موقفهم الحقيقي من هذه الاتفاقية التي كانت تؤلف خطرا اقتصاديا وسياسيا كبيرا عليهم . ففي ٣١ آذار ١٩٠٤ كتب بيلوف نفسه حول هذا الموضوع قائلا « ان النشاط الالماني التجاري في المغرب ينمو بسرعة وانه لامر حيوي منع وقوع احتكار فرنسي » وفي الوقت نفسه التقى السفير الالماني في لندن وزير الخارجية البريطاني وحذره قائلا « ان المانيا حريصة على ابقاء السوق المغربي مفتوحا » ، وكان الامبراطور الالماني الذي استفزته النجاحات الفرنسية في المغرب اكثر صراحة حيث صرح قائلا : « انني لست مستعدا لان اترك الامور تصل الى مثل هذا الحد »[٤٠].

لكن فرنسا واصلت بعد ان ضمنت موقف بريطانيا تغلغلها في المغرب واستغلت الظروف الصعبة التي كان السلطان المغربي يواجهها فعرضت عليه خدماتها لاجراء « اصلاحات » في بلاده وطالبت بعدد من الامتيازات وارسلت في خريف ١٩٠٤ بعثة خاصة الى فاس لتقديم هذه المطاليب للسلطان . وقد زاد ذلك من قلق المانيا واثار مخاوفها فاخذت تشجع السلطان على رفض مطالب فرنسا والمطالبة بعقد مؤتمر دولي ، ثم اخذت هي نفسها تطالب بعقد مؤتمر للدول التي شاركت في مؤتمر مدريد عام ١٨٨٠ لمناقشة المسألة المغربية على اساس مبدأ الباب المفتوح وتساوي الفرص ، وترفض كل محاولات فرنسا الرامية الى التوصل الى اتفاق فرنسي ــ الماني مباشر حول المسألة المغربية . ويأتي في هذا السياق الخطاب الذي القاه الامبراطور الالماني وليم الثاني عند زيارته لطنجة في ٣١ آذار ١٩٠٥ في نطاق « النزهة البحرية » التي كان يقوم بها انذاك والذي طالب فيه لالمانيا بحرية التجارة في المغرب والمساواة

---

(٣٩) V.M. Khvostov, Istoriya Diplomatii. T. II, Moskva 1963, Str. 500.

(٤٠) نقلنا تصريحات المسؤولين الالمان هذه عن : محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

مع الدول الاخرى واعلن نفسه صديقا للاسلام وحاميا له ومدافعا عن استقلال المغرب • لقد قومت الصحافة العالمية هذا الخطاب على انه « تحدٍ صريح لفرنسا وانجلترا » وقد قرنت المانيا هذا التحدي بتهديدات عسكرية موجهة ضد فرنسا •[٤١]

اضطرت فرنسا الى الموافقة على عقد المؤتمر فعقد في ١٥ كانون الثاني في مدينة الجزيرة الاسبانية وواصل اعماله حتى ٧ نيسان من العام نفسه •

اقر مؤتمر الجزيرة ميثاقا يتألف من ١٢٣ مادة يهمنا منها هنا المواد المتعلقة بانشاء بنك للدولة في المغرب وعددها ١٧ مادة تضمنت انشاء هذا البنك الذي كان عليه ان يمارس جميع العمليات التي تمارسها البنوك وله امتياز خاص باصدار السندات لحاملها وتدفع لدى ابرازها ولها قوة ابرائية في الخزائن العامة للسلطنة المغربية وله وحده من دون اية مؤسسة مالية اخرى ان يقوم بدور الخازن الصراف للسلطنة ، اما رأسماله فيجب ان لا يقل عن ١٥ مليون فرنك ولا يزيد عن ٢٠ مليون[٤٢] والواقع ان هذا البنك لم يكن في واقع الامر الا وسيلة اعتمدها الرأسمال الاجنبي للسيطرة على المغرب • وقد تقرر ان يكون رأسماله (١٥٤٠٠٠٠٠) فرنك مقسمة الى اربعة عشر قسما متساويا يبلغ الواحد منها (١١٠٠٠٠٠) فرنك وكان لكل دولة من الدول الثلاث عشرة[٤٣] التي اشتركت في المؤتمر الحق في قسم واحد من هذه الاقسام ، غير ان الولايات المتحدة تخلت عن حصتها فاستحوذت عليها فرنسا

(٤١) قامت بسبب ذلك الازمة التي عرفت بأزمة مراكش الاولى ذلك ان وزير الخارجية الفرنسي دلكاسيه الذي كان يأمل بالمساعدة من جانب بريطانيا اراد استغلال الوضع لمحاربة المانيا لكن زملاءه الاخرين لم يشاطروه الرأي فاضطر الى الاستقالة ووافق وزير الخارجية الجديد روفيو على عقد المؤتمر . Diplomaticheskii Slovar, ... T. 11enp. 255.

(٤٢) محمد خير فارس : المصدر السابق ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٤٣) هي : فرنسا والمانيا وبريطانيا والنمسا - المجر وروسيا وايطاليا واسبانيا وبلجيكا وهولندا والبرتغال والسويد والولايات المتحدة والمغرب.

الامر الذي جعل البنوك الفرنسية تحصل على حصتين(٤٤) ، وتقرر ان يكـون عدد المديرين في البنك بعدد الحصص في رأس المال وان تسيطر على الادارة هيئة من المراقبين ترشحهم البنوك الرسـمية في كـل من فرنسـا والمانيـا وبريطانيا واسبانيا .(٤٥)

وتضمن الميثاق ايضا موادا خاصة بتنظيم الضرائب وايجاد عائدات جديدة الزمت الاجانب بدفع ضريبة « الترتيب » ولكنها منحتهم بالمقابل حق الحصول على ملكيات في الموانىء المفتوحة للتجارة والمناطق المتاخمة لها لمسافة عشـرة كيلومترات وفي القصر الكبير واصيلا وازمور والمناطق المتاخمة لها لمسـافة كيلومترين ، اما غير ذلك من المناطق فان حق التملك للاجانب فيها كان مرهونا بموافقة السلطان .(٤٦)

لقد كان مؤتمر الجزيرة خطوة واسعة اخرى على طريق تغلغل الـدول الاوربية في الاقتصاد المغربي واستحواذها على ثروات هذا البلد الغني تمهيدا لترسيخ نفوذها السياسي فيه ، فقد منح ميثاقه الاجانب كما رأينا حق التملك في المغرب وفسح للرأسمال الاجنبي مجال العمل فيه بحرية وفتح ابوابه امـام رعايا الدول الاجنبية لممارسة نشاطهم الاقتصادي فيه دون عائق . وكان لذلك كله نتائجه السلبية على المغرب . وكانت هذه النتائج على درجة من السـوء دفعت احد المغاربة الى القول بان السلطان بتوقيعه على هذا الميثاق انما وقـع

(٤٤) استولت فرنسا بعد الحرب العالمية الاولى على حصة كل من المانيا والنمسا ـ المجر وروسيا ، وبعد الحرب العالمية الثانية اعيد توزيع اسهم البنـك واصبحت على النحو الاتي : ٢ ر ٥٧ ٪ لفرنسا و٢ر١٠ ٪ لمصر ، ٧ ٪ لكل من بلجيكا وهولندا والبرتغال و١ر٤ ٪ لايطاليـا و٣ر٣ ٪ للفاتيكـان و٢ر٣ ٪ للسويد و٨ر. ٪ لبريطانيا . والغريب في هذا التوزيع ان المغرب لم يكن يملك سهما واحدا في هذا البنك الذي يعد بنكه الوطني الخاص به .
Lutskaya, OP. Cit. Foot note 12, P. 446.

(٤٥) محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ٣٤٢ .

(٤٦) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

« حكم الموت على المغرب المستقل » فقد « كان المخزن قبل المؤتمر مريضا جدا اما بعد المؤتمر فقد انتهى المخزن ... »(٤٧)

لقد اكد ميثاق مؤتمر الجزيرة المساواة التامة بين الدول في المغرب في المجالين الاقتصادي والسياسي ، وطبيعي ان مثل هذه النتيجة لم ترض الفرنسيين الذين رأوا في مقررات المؤتمر عقبة تعيقهم عن الانفراد في الاستحواذ على المغرب ، ولهذا فقد واصلوا التغلغل فيه دون الالتفات الى هذه المقررات ولكنهم اصطدموا بالالمان الذين انبروا هم ايضا للعمل النشيط في المغرب محاولين بكل السبل اقامة العقبات امام الفرنسيين الامر الذي ادى بهؤلاء الى الاقتناع بعدم امكانية تجاهل المصالح الالمانية في المغرب.لقد كشف عن هذا الاقتناع فيما بعد رئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي دي شانيل عندما تساءل في معرض دفاعه في البرلمان عن ضرورة تصديق اتفاقية تشرين الثاني عام ١٩١١ بين فرنسا والمانيا قائلا : « هل بامكاننا ان نتصنع تجاهل الجهود التي بذلتها المانيا في المغرب طيلة نصف قرن : رحلات مستكشفيها ونشاط معمريها ومشاريعها الزراعية والتعدينية وخطوط بواخرها ودوائر بريدها وعلى الاخص تلك الحركة من الافكار التي تجذبها نحو الامبراطورية الشريفية ... » .(٤٨)

وهكذا اعتقد الفرنسيون بان الوسيلة المثلى لمواصلة نشاطهم في المغرب بدون عائق هي الاتفاق مع المانيا عن طريق القيام لها ببعض التنازلات . وكان الالمان من ناحيتهم يدركون حدود امكاناتهم في المغرب ولاسيما وان نتائج ازمة مراكش الاولى اظهرت لهم بان من الصعب عليهم اعاقة التفوق الفرنسي هناك . وعلى هذا الاساس عقدت بين فرنسا والمانيا في شباط ١٩٠٩ اتفاقية كان هدفها المعلن تنفيذ ميثاق الجزيرة وتلافي « سوء الفهم » بين الدولتين .

---

(٤٧) نقلا عن : المصدر نفسه ص ٣٤٩-٣٤٧ .

(٤٨) Quoted in Morel, OP. Cit. PP. 80-81

لقد التزمت فرنسا في هذه الاتفاقية بالمحافظة على استقلال وحصانة الدولة المغربية والالتزام بمبدأ المساواة بين الدول في النشاط الاقتصادي في المغرب ووعدت « بعدم اعاقة المصالح الصناعية والتجارية الالمانية فيه » • اما المانيا فقد اكدت من جانبها بان اهدافها في المغرب تقتصر على الجانب الاقتصادي فقط واعترفت بان « المصالح الخاصة لفرنسا في المغرب ترتبط بشكل وثيق بالمحافظة على النظام والسلام الداخلي فيه » • والتزم الطرفان بعدم العمل على التميز الاقتصادي في المغرب وبالسعي لتوحيد مواطني الدولتين في مشاريع مشتركة يمكن ان تؤسس في ذلك البلد •(٤٩) وهكذا فان هذه الاتفاقية « كانت تعني ان فرنسا تستطيع ان تخضع المغرب كليا بشرط ان تحافظ ظاهريا على استقلاله وتؤمن للالمان شروطا مساوية في النشاط الاقتصادي» •(٥٠)

لقد شجعت اتفاقية ١٩٠٩ على انشاء مشاريع فرنسية ـ المانية مشتركة لاستغلال الثروات الطبيعية في المغرب استغلالا مشتركا • وقد انشئت بالفعل بعض الشركات • ففي ٣ كانون الاول ١٩٠٩ تم تأسيس شركة لاحتكار التبغ كان نصيب فرنسا فيها ٥ر٣٦٪ ونصيب كل من المانيا واسبانيا ١٧٪ واشتركت فيها دول اخرى • وفي ١٧ شباط ١٩١٠ تأسست الشركة المغربية للاشغال العامة وكانت حصة فرنسا فيها ٥٠٪ والمانيا ٣٠٪ وبريطانيا ٥ر٦٪ واسبانيا ٥٪ وكل من ايطاليا وبلجيكا والسويد ٥ر٢٪ والبرتغال ٥ر١٪ •(٥١)

ومع ذلك فقد فشلت تجربة العمل الاقتصادي المشترك بين فرنسا والمانيا ومعهما بعض الدول الاخرى ذلك ان هذه الدول جميعا « تأبى الا ان تشجع مواطنيها على اكتساب المصالح في منطقة السدس وتعرض عليم صيانة هذه المصالح بحد السلاح » •(٥٢) والواقع ان السبب الاساس في فشل هذه

(٤٩) Khvostov, OP. Cit. P. 680.

(٥٠) Ibid. P. 680

(٥١) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٤٠٩ـ٤١٠ .

(٥٢) عبدالمجيد بن جاون ، المصدر السابق ص ١١٥ .

المشاريع هو رغبة فرنسا في الاستحواذ على المغرب وسعيها للانفراد في العمل فيه ونظرتها الى المشاريع المشتركة على انها خطوة تكتيكية للوصول الى ذلك.

وهكذا جهد الفرنسيون في العمل على تمهيد الطريق للاستيلاء على المغرب بمفردهم ولم يقتصروا في سعيهم هذا على التغلغل السلمي فقط بل كثيراً ما عمدوا الى الاستفزاز المباشر فقد استغلوا مقتل احد الاطباء الفرنسيين في مدينة مراكش في آذار ١٩٠٧(٥٣) لاحتلال وجدة الواقعة في شرق البلاد . وفي صيف السنة نفسها اثاروا مصادمات بين سكان الدار البيضاء وعمال الشركة المغربية واستغلوا مقتل عدد من الفرنسيين بسبب هذه الاحداث حجة لقصف المدينة وانزال القوات الفرنسية فيها .(٥٤)

وقد اثار احتلال القوات الفرنسية لبعض مناطق المغرب قلق الاسبان فاخذوا يسعون لاستغلال الوضع بهدف تحقيق مكاسب اقتصادية ، فبادرت الشركتان الاسبانيتان « نورمي افريكانو » و « ميناس ديل ريف » الى مطالبة السلطان بالاعتراف لهما بالحق في امتيازات المناجم .(٥٥) وعندما رفض السلطان ذلك ارسلت اسبانيا قواتها فاحتلت بعض المناطق المغربية في اقليم الريف مستغلة لذلك مقتل عدد من العمال الاسبان بسبب نزاعات قامت في المنطقة ،، ولكنها جوبهت هناك بمقاومة عنيفة اضطرتها الى الحد من عملياتها العسكرية والدخول في مفاوضات مع الحكومة المغربية طالبت خلالها بتعويض كبير عن المصاريف التي تكبدتها نتيجة للعمليات العسكرية التي قامت بها

---

(٥٣) انظر تفصيلات هذا الحادث وملابساته والنتائج التي ترتبت عليه في : اسماعيل بن محمد الرشيد العلوي ، جلاء الظلام الدامس في موجز تاريخ المغرب الى عصر محمد الخامس ، مطبعة فضالة ، الطبعة الاولى ١٩٥٧ ، ص١٥٦ ؛ محمد خير فارس ، المصدر السابق ص ٣٥١–٣٦٠ .

(٥٤) كرس الباحث المغربي احمد زيادي كتابه المار الذكر (انتفاضة الشاوية) لدراسة احداث الدار البيضاء هذه وقد دعم دراسته بالوثائق وحاول من خلالها ان يرد على بعض الباحثين الذين انساقوا وراء المواقف الفرنسية فشوهوا الصورة الحقيقية لهذه الاحداث .

(٥٥) Lutskaya, OP. Cit. P. 29

لاحتلال الاراضي المغربية • وقد انتهت هذه المفاوضات فيما بعد (١٧ تشرين الثاني ١٩١٠) بعقد اتفاق فرضت بموجبه على المغرب غرامة مقدارها ٦٥ مليون فرنك تدفع على ٧٥ سنة بضمانة ٥٥٪ من رسوم المناجم وما تبقى من كمرك سبتة • (٥٦)

وكانت فرنسا من جانبها تطالب ايضا بتعويض قدره ستون مليونا من الفرنكات لتغطية نفقات احتلال المدن المغربية بالاضافة الى (١٣٠٦٩٦٠٠) فرنك تعويضا عن الاضرار التي لحقت بالتجار الفرنسيين اثناء الحملات التأديبية وقصف الدار البيضاء من البارجة الفرنسية •(٥٧) وزاد ذلك ، الى جانب تراكم الديون القديمة والديون الجديدة التي نشأت ،بسبب اعمال البناء والتعمير في الموانىء من حدة الازمة المالية التي كانت الحكومة المغربية تعاني منها الامر الذي اضطر السلطان الى طلب قرض جديد • وبعد مفاوضات طويلة اجرتها الحكومة المغربية مع بنك الدولة المغربي ، وهو البنك الذي تأسس بموجب ميثاق مؤتمر الجزيرة كما اشرنا سابقا ، تمكنت من الحصول من البنك في ١٧ أيار ١٩١٠ على قرض مقداره ٩٠ مليون فرنك بفائدة مقدارها ٥٪ ويتم سداده خلال ٧٥ سنة على ان تكون ايرادات الضرائب الكمركية وبعض المدخولات الاخرى ضمانا له(٥٨) •

ولان هذا القرض ادى الى ان يسيطر الاجانب على جزء لا يستهان به من مصادر الدخل في الدولة ، فحرم المخزن من اهم موارده ، ولانه صرف لاطفاء الديون القديمة ولم يبق منه ما يمكن ان يستثمر في تطوير اقتصاد البلد

---

(٥٦) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٤٣٢–٤٣٣ .

(٥٧) روم لاندو ، المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٥٨) Lutskaya, OP. Cit. P. 29

(٥٩) كان عبدالحفيظ قد تولى الحكم سلطانا للمغرب عام ١٩٠٨ على اثر ثورة قام بها ضد اخيه السلطان عبدالعزيز ، مستغلا تخاذل عبدالعزيز امام الفرنسيين الذين قصفوا الدار البيضاء واحتلوا منطقة الشاوية في ١٩٠٧ كما رأينا .

فانه اثار نقمة الجماهير المغربية ووجد السلطان عبدالحفيظ[٥٩] نفسه في وضع حرج • وحدثت في ١٩١١ اضطرابات شعبية استغلتها القوات الفرنسية لاحتلال فاس[٦٠] واستغلتها الحكومة الفرنسية لارسال تعزيزات عسكرية اضافية الى المغرب بحجة « المحافظة على النظام وحماية الموانىء وتأمين التجارة •• »•[٦١] وفي الوقت نفسه صادق مجلس الوزراء الفرنسي على مشروع قرض جديد لحكومة المغرب بمبلغ ١٥ مليون فرنك يخصص « لتنظيم قوة عسكرية مؤهلة لدعم سيطرة السلطان على القبائل ولوضع قوات من الشرطة في الموانىء ولتنفيذ الاعمال العامة الضرورية ولاطفاء الديون القديمة »[٦٢] • وقد جعلت الضرائب التي تجبى من منطقة الشاوية ضمانا لهذا القرض •

اثارت النجاحات التي حققتها فرنسا في المغرب المانيا وادى احتلال القوات الفرنسية لفاس الى قيام ازمة مراكش الثانية او ازمة اغادير المعروفة التي انتهت بعقد اتفاقية ١٩١١ بين المانيا وفرنسا التي اقرت فيها المانيا باعتبار المغرب منطقة نفوذ فرنسية في مقابل حصولها على جزء من الكونغو مساحته ٢٧٥ كم٢ والاعتراف لها بمبدأ « الباب المفتوح » في المغرب لمدة ٣٠ سنة •[٦٣]

لقد الزمت اتفاقية ١٩١١ المانيا بعدم اعاقة فرنسا عن القيام «باصلاحات» ادارية ومالية وعسكرية في المغرب الامر الذي كان يعني اطلاق حرية العمل لفرنسا في المغرب • وقد استغل رجال الاعمال والسياسة الفرنسيون ذلك اوسع استغلال وباشروا بالعمل بكل الوسائل على تكثيف تغلغلهم الاقتصادي ونفوذهم السياسي فيه الامر الذي ادى في النهاية الى فقدان هذا القطر العربي استقلاله ووضعه تحت الحماية الفرنسية •

---

(٦٠) انظر تفاصيل ذلك وملابساته والدور الذي ادته في هذه المسألة لجنة المغرب التي سبقت الاشارة اليها في : روم لاندو المصدر السابق ص ٧٥–٧٧ •

(٦١) نقلا عن : **Lutskaya, OP. Cit. P. 30**

(٦٢) **glid. P. 30.**

(٦٣) انظر : **Diplomaticheskii Slovar ... T. 11 P. 256.**

Journal

of the

ACADEMY OF SCIENCES

Quarterly Journal - Established 1369 H - 1950

Add: ACADEMY OF SCIENCES.

P. O. Box 4023 WAZYRIA, AADAMEA, BAGHDAD - IRAQ

Tel: 4221733 - 4222066 Fax: (964 - 1) 4254523

— Annual Subscribtion : In IRAQ (4000) I. D.

Outside IRAQ (50 Dollar) air mail not included

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٧٦ لسنـــة ١٩٩٨



Journal

of the

ACADEMY of SCIENCES

No . 1

Vol. 45

1418 H - 1998